@ketab_n
Follow Me
2.3.2016

ميخائيل نعيمه

سبعون ...

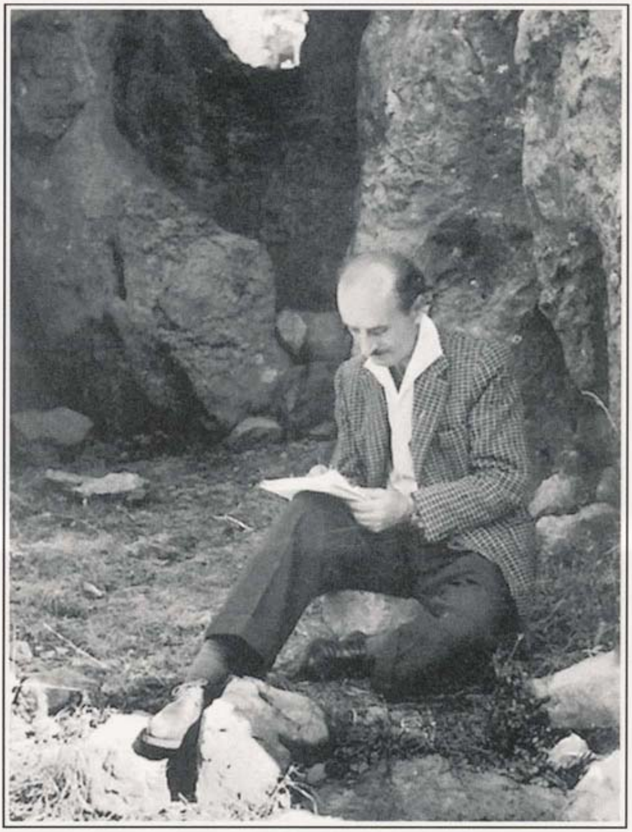

المرحلة الثالثة

نوفل

سبعون...

٣

Twitter: @ketab_n

ميخائيل نعيمه

سبعون...

حكاية عمر

١٨٨٩ - ١٩٥٩

المرحلة الثالثة

١٩٣٢ - ١٩٥٩

نوفل

Twitter: @ketab_n

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف والناشر

الطبعة الثامنة

٢٠٠٤

نوفل

٩٩ شارع الصوراتي • بيروت • لبنان • فاكس ٣٥٤٣٩٤ (٠١)
تلفون ٣٥٤٨٩٨ (٠١) ٧٤٦١٣٠ (٠١) ٤٩٩٠٧٤ (٠١)
E-mail: Naufalgroup @ terra. net . lb

Twitter: @ketab_n

في رفقة البحر

«كَم مَنزِلٍ في الأرْضِ يألفُه الفتى
وحَنينُـهُ أبَـداً لأوَّلِ مَنْـزِلِ!»

صدق أبو تمّام. فأنا منذ أن غادرت وكري في سفح صنّين لأوَّل مرّة سنة ١٩٠٢ طوّفت بعيداً - وبعيداً جدّاً - في شتّى الدّيار. وما أكثر المنازل التي عرفتها وعرفتني، وألفتها وألفتني، في خلال السنوات الثلاثين من تطوافي. وما أغرب ما لاقيته في تلك المنازل من سعة وضنك، وأنس ووحشة، واطمئنان وقلق، وانفتاح وانغلاق. إلاّ أنّ خيوطاً - بل أمراساً - خفيّة ما برحت تشدّني إلى ذلك البيت الوضيع في بسكنتا الذي كان نافذتي على العالم؛ وإلى الشخروب وصخوره وأشجاره وأطياره؛ وإلى صنّين ومواكب الأضواء والظّلال في أعاليه وأغواره.

لقد كنت، حيثما تنقّلت في الأرض، لا أشبع من تأمّل معالمها، ومن التفكير في أنّ كلّ بقعة من رقعة وجهها العجيب لا بدّ أن تكون عزيزةً على قلب إنسان من النّاس، أو مخلوق من المخلوقات التي تزحف أو تدبّ أو تطير. فهذه جميعها تحنّ إلى منابتها، وإلى مسارحها ومراعيها، وإلى جحورها وأوجارها

Twitter: @ketab_n

وأوكارها حنين النّاس إلى مواطنهم. فكأنّما الحنين إلى المصدر سُنّة من سُنن الطبيعة، أو سرّ من أسرار البقاء والاستمرار.

بيد أنّ شوقي إلى لبنان، وأنا في طريقي إليه من أميركا، كان أكثر بكثير من شوقٍ إلى أهل ومنبت، أو إلى تراب وسماء، وهواء وماء، ومسارح الطفولة والصِّبا والفتوّة. ولو كان لي أن أتخيّل شوق موسى بن عمران إلى «أرض الميعاد» بعد أن خرج بقومه من مصر وتاه وإيّاهم أربعين عاماً في البرّيّة لقلت إنّ شوقي إلى لبنان كان ذلك الشوق.

لقد بتُّ أحسّني كما لو كنت على موعد مع نفسي ومع ربّي في خلوة بديعة هيّأها لي صنّيني. وبتّ أتوق بالغ التوق إلى الساعة، بل الساعات، بل الأيّام، التي ستحتويني فيها تلك الخلوة كيما أنصرف، بوحي من سكينتها الطاهرة، المطمئنّة، إلى غربلة جميع ما حمّلتنيه ثلاث وأربعون سنة من شتى الانطباعات والذكريات، والمشاعر والأفكار، والهواجس والوساوس.

والأمر الوحيد الذي كنت أخشى أن يعكّر عليّ صفاء خلوتي هو أمر المعيشة. فالدولارات القليلة التي في جيبي لن تكفيني أكثر من مؤونة بضعة شهور. والذي يستغلّه أهلي من أملاكهم أقلّ من أن يقوم بأودهم. وأنا بتّ ولا خير يُرجى مني في تدعيم ميزانيّة العائلة. فقد صمّمت أن أحيا حياة تقشّف وتأمّل، وأن لا أُذلّ نفسي للفلس،

Twitter: @ketab_n

فلا أطلبه في المتاجر أو في الوظائف مهما اشتدّ إغراؤها، ولا أقبله إلاَّ إذا هو جاءني بدلاً عن أشياء ظاهرة أنتجتها أرضي، أو خواطر ذات بال جاد بها قلمي. ولكن أرضنا كانت لا تزال أشحّ من أن تكفي العاملين فيها. ونتاج الأقلام في بلادي كان أرخص من أن يتنازل الفلس فيرضى أن يُبذل بدلاً عنه.

إلاّ أنّني كنت أهوّن المشكلة على نفسي عندما أفكّر بأخي نسيب. فهو اليوم أستاذ في مدرسة محترمة. ومن الأكيد أنّه لن يختار التدريس عملاً دائماً. بل لا بدّ أن يستثمر معارفه الزراعيّة بطريقة عمليّة وفي حقل أوسع من حقل التدريس. وإذ ذاك يصبح دعامة قويّة لأهله ويحمل عني الحمل الثقيل الذي حملته في سبيله وسبيلهم طوال خمس عشرة سنة.

بلى. بلى. ستكون لي خلوتي. وستكون لي فيها سياحات بعيدة في العالم اللامتناهي الذي هو عالمي وعالم كلّ منظور وغير منظور في الكون. وسأعود من سياحاتي باليقين الذي تطمئنّ إليه النفس من حيث وجودها والغاية من وجودها. وذلك لن يتمّ لي إلاّ بغربلة تلك النفس من شوائبها – من قناطير الزؤان والحسك والتراب والحصى التي اجتذبتها إليها على مرّ السنين فباتت وكأنّها بعض منها. وإذا أنا أحسنت الغربلة تناثرت عن كاهلي أعباء كثيرة، فانجلت باصرتي وبصيرتي، وأصبح في إمكاني أن

Twitter: @ketab_n

أعكف على تنظيف بيتي الروحي، وترتيبه، وأن أتبيّن هدفي من وجودي، ثمّ أن أمضي في شقّ طريقي إلى ذلك الهدف.

لقد كانت الأيّام العشرون التي أمضيتها في رفقة البحر ما بين نيويورك وبيروت خير تمهيد لتلك الخلوة وتلك الغربلة. فما وقفت مرّة على مقدّمة الباخرة أو مؤخّرتها، في النهار وفي الليل، وأرسلت طرفي يتغلغل في الزّبد المتطاير، وفي المدى الشاسع، وفي الأعماق السحيقة، المظلمة؛ أو يتزحلق على الأمواج المتلاحقة، الصاعدة، الهابطة إلاّ شعرت بما يشبه السحر - أو هو السحر - يسطو على خيالي وفكري وكلّ نبضة من نبضات قلبي.

أيّ مدى هائل هذا المدى المنبسط أمامي! إنّه يمنطق الأرض من القطب إلى القطب ومن المشرق إلى المغرب. وهو من الاتّساع بحيث لا تستطيع حتى عين الشمس أن تلفّه بنظرة واحدة. فكيف بعيني؟ وعيني مجالها قصير وبؤبؤها حسير. وهي إذا طال بها المدى أبعد من بضعة كيلومترات - عمياء. وإذا تقلّص دون أجزاء من المليمتر - عمياء. وإذا اشتدّ عليها النور فوق حدّ معلوم - عمياء. وإذا خفّ دون درجة معلومة - عمياء. وهي لا تستطيع اختراق شيء من الأشياء إلاّ إذا صفا صفاء قطرة الطلّ وشفّ شفوف الهواء. والبحر أكثر من قطرة طلّ، وليست له شفافة الهواء. فكيف لعيني أن تبصره وأن تسبر أغواره؟

Twitter: @ketab_n

ولكنّ آلاف العيون، ومنذ أقدم العصور، تواصلت وتعاونت كيما يتم لها أن تبصر البحر - كلّ البحر. فكان لنا علم الجغرافية. وكانت لنا الخريطة تعطينا بالخطوط والألوان صورة رمزيّة للأرض، وتبيّن حدود البحر فيها، وترسم شطآنه، وتقسّمه إلى بحور كبيرة وصغيرة، وتطلق على كلّ بحر اسماً يُعرف به. فمحيط هادئ، ومحيط أطلسي، ومحيط هندي، ومتجمّد شمالي، ومتجمّد جنوبي، وبحر أبيض، وبحر أسود، وبحر أحمر، إلى آخر ما هنالك من محيطات، وبحور، ومضايق، وأرخبيلات. وأنا الذي لم يبصر غير جزء يسير جدّاً من هذه البحور التي تغمر نحو ثلاثة أرباع الأرض عليّ أن أصدّق ما أبصرته عيونٌ غير عيني، وأن أتقبّل ما تقوله لي الخريطة دون أقلّ ريبة أو تردّد. وإنّي لأصدّقه وأتقبّله بالشكر والرضى. فالذي فعلته عيون واضعي الخريطة وأدمغتهم لم يكن غير امتداد لعيني ودماغي.

كذلك أتقبّل ببالغ الشكر والرضى جميع ما توصلت إليه عيون غير عيني، وأدمغة غير دماغي، ومن معلومات عن تكوين قعر البحر، وعن أعماقه، وعن سكّانه. فهذه المعلومات، على ضآلتها وافتقارها إلى الدقّة والشمول، تصلح نقطة انطلاقٍ لفكري وخيالي. وحسبي منها أنّها تشهد لي بأن في البحر أعماقاً سحيقة إلى حدّ أنّه لو جفّ البحر لبات علوّ قمّة «إفرست»

Twitter: @ketab_n

بالنسبة لأوطإ نقطة في الأرض نحو ٩٠،٠٠٠ قدم، أمّا الكائنات الحيّة التي تسكن تلك الأعماق فلم يبلغها بعدُ نظر أو منظار. والمقول إنّها من فداحة الحجم وغرابة الشكل بحيث لا يستطيع أن يتخيّلها أجرأ خيال. فالضغط الهائل الذي تتحمّله لفوق ما يستطيع تحمّله أضخم الهياكل الحيّة التي لنا بها معرفة.

وكذلك أتقبّل بمنتهى الامتنان ما كشفته لي عيون غير عيني وعقول غير عقلي عن الماء والعنصرين العجيبين اللّذين منهما يتركّب. إنّهما الهيدروجين والأوكسجين بنسبة اثنين إلى واحد. وإذ ذاك فالبحر الذي يغطي أقلّ بقليل من ثلاثة أرباع سطح الأرض ليس أكثر من $H^{2}O$. إنّه في نظر الكيمياء حرفان من حروف الهجاء يتوسّطهما رقم صغير.

ثمّ إنّي عرفت بخبرتي وخبرة إخواني النّاس أن البحر لا ينفكّ ينبض. ولا ينفكّ في مدّ وجزر؛ وأنّه، في الواقع، قطرة واحدة، هائلة، من الماء الأُجاج، تتصل بقلبها وجميع أطرافها اتصالاً هو الغاية في الوهن والغاية في القوّة في آنٍ معاً. ففي استطاعة أيّ جسم غريب مهما يكن واهياً أن يفصل بين قطرتين متلاصقتين من الماء. ولكنّه ما إن يرتفع من بينهما حتى تعود القطرتان قطرة واحدة. فكأن في الماء عنصراً غير الهيدروجين والأوكسجين. إنّه عنصر ما اهتدت إليه الكيمياء. أمّا اسمه فقد

Twitter: @ketab_n

يكون التآلف، أو التآخي، أو التواحد، أو التحابب، أو نحو ذلك من الأسماء التي تعني التكتّل في وحدة كلّها قوّة لأنّها كلّها نظام. وهل النظام، في النهاية، غير الوئام والانسجام؟

وعرفت بخبرتي وخبرة إخواني النّاس أن البحر الذي لا يسكن غير المنخفضات في الأرض يستطيع، بمعونة الشمس والهواء، أن يرسل أوشالاً منه إلى الفضاء. وهذه الأوشال تتّخذ أحياناً شكل البخار أو الضباب أو السحاب. وأحياناً تشفّ وتخفّ إلى حدّ أن لا نبصر لها شكلاً أو لوناً. ولكنّها، في الغالب، تعود فتهبط إلى الأرض. وإذا بها ندًى أو ثلوج أو أمطار. وإذا بها ينابيع وجداول وأنهار تروي ما عطش من نبات الأرض وحيوانها. وتحمل ما فاض عن ذلك إلى البحر الذي انطلقت منه.

من البحر وإليه النيل وزانبيزي، والأمازون والأورينوكو، وكولومبيا والمسّيسبي، والرين والدانوب، والدنيبر والفولغا، والدجلة والفرات، والكنج ويانغ - تسي، وكلّ قطرة ماء أينما جرت، وحيثما استقرّت. فهذه ما انفصلت، في الظاهر، عن البحر إلاّ لتبقى فيه، وتستمد كيانها من كيانه. فانفصالها عنه ليس أكثر من خدعة بصريّة.

أمّا في الواقع فالبحر ليس ما نراه منه وحسب. ولا هو حيث نراه. إنّه لأكثر بكثير ممّا نبصر منه ونسمع. وإنّه لأكبر

Twitter: @ketab_n

بكثير من أن تحصره خلجان وشطآن كالتي رسمناها له على الخريطة. وكيف لنا أن نبصر البحر أو أن نسمعه وهو في الجَلَد الأزرق من فوقنا؛ وفي الهواء من حوالينا؛ وفي كلّ جذر وورقة من جذور كلّ نبتة صغيرة أو كبيرة وأوراقها؛ وفي كلّ خليّة من كلّ جسم حيّ؛ وفي كلّ حفنة تراب؟ إنّه الدموع في مآقينا، واللُّعاب في أفواهنا، والسوائل في أمعائنا. والذي لا نبصره منه ولا نسمعه لأهمّ في حياتنا بكثير من الذي نبصره ونسمعه – فكلّ جسم جفّ ماؤه جفّت حياته.

يشفّ الماء ويخفّ فإذا به ذريرات منثورة في الجو. وهذه الذريرات من اللطافة بحيث لا تبصرها عين، ولا تلمسها يد. ولا يشمّها أنف، ولا يتذوّقها لسان، ولا تسمعها أذن. فكأنّها، بالنسبة إلى حواسّنا، لا شيء. ولكنّها، في الواقع، كلّ شيء. فلولاها لما كان أيّ شيء.

وتتكاثف تلك الذريرات فإذا بها قطرات. وتتكاثر القطرات وتتجاور وتتلاصق فإذا بها ينابيع وجداول وأنهار وبحيرات؛ ثمّ إذا بها غمار فوق غمار، تتدافع وتتلاطم، فيُبصَر لها زبَد وموج. ويُسمع لها هدير وزئير. ولكنّها، في كرّها وفرّها، لا يفتك بعضها ببعض، ولا يُفني بعضها بعضاً. فكأنّ كرّها وفرّها نبض الحياة فيها أو كأنّه ضرب من المداعبة البريئة والترويح عن النفس.

Twitter: @ketab_n

ويتجمّد الماء فإذا به لا حركة فيه ولا حياة. أو أن الحركة والحياة فيه تصبحان في حالة سُبات. فما إن تتهيّأ له الحرارة الضروريّة حتى يعود الجليد ماء، وتعود إليه الحركة والحياة.

ذلك، على الإجمال، ما عرفته عن البحر بخبرتي وخبرة إخواني النّاس. وخبرتي وخبرة النّاس هي خلاصة ما استنتجته عقولهم وعقلي من مؤثّرات تعرّضت لها حواسّهم وحواسّي الخارجيّة. والحواسّ الخارجيّة أبلد وأبطأ وأعجز من أن تنقل إلى العقل جميع ما تتعرّض له من مؤثرات في أيّ لمحة من الزمان، وفي أيّ نقطة من المكان. فكيف بالمؤثرات التي لا تتعرّض لها لأنّها أبعد من متناولها؟ أم كيف بالمؤثرات التي تنخدع بها فتنقلها إلى العقل على غير طبيعتها كما جرى للعميان في حكايتهم مع الفيل؟ بل كيف بالحواسّ ذاتها يعطّلها النوم والمرض والسكر والغضب والثورات النفسانيّة على أنواعها ودرجاتها من العنف والقوّة؟

يقولون إنّ هنالك حواسّ الإنسان السويّ وعقله. وهذه يُركن إليها وإلى استنتاجاتها. ولكن أحداً لم يُبصر بعد وجه ذلك «الإنسان السويّ» ولم يهتدِ إلى مقرّه. وهل إن ما يحسّه ويعقله الذين دون مستوى «الإنسان السويّ»، أو فوق مستواه، خداع في خداع؟

Twitter: @ketab_n

وها أنا الإنسان الذي لا يعرف أهو دون مستوى «الإنسان السويّ» أم فوقه - ها أنذا لا أكتفي معرفةً عن البحر بما خبرته عنه بحواسّي وحواسّ «الإنسان السويّ» وبعقلي وعقله.

إنّي أريد أن أعرف عن الماء أكثر من أنّه هيدروجين وأوكسجين. أريد أن أعرف ما هو الهيدروجين والأوكسجين؟ ومن أين؟ ولماذا يتّحدان بنسبة اثنين إلى واحد ليتكوّن منهما الماء؟ وهل هما، والطريقة التي بها يتّحدان، من تصميم قوّة واعية تهدف إلى غاية، أو غايات، بعينها؟ وما هي تلك القوّة؟ وأين هي؟ وما هي غايتها؟

وأريد أن أعرف إذا كان هنالك تصميم وهدف في جعل كميّة المياه في الأرض - المنظورة منها وغير المنظورة - لا أكثر ممّا هي ولا أقلّ ممّا هي. ومَن هو المصمّم؟ وما هو الهدف؟

وهل في التحالف العجيب ما بين البحر والشمس والتراب والهواء تصميم وهدف؟ ومن هو الذي صمّم، وما القصد من تصميمه؟ فلولا هذا التحالف لما عرفت الأرض نبتة ولا حشرة ولا حيواناً أو إنساناً. وما الحكمة من وجود النبتة والحشرة والحيوان والإنسان؟

وهل هنالك تصميم وهدف في هذه الكثرة الهائلة من أنواع النبات والحشرات والحيوان والإنسان؟ وهل وُجدت هذه

Twitter: @ketab_n

الكثرة دفعة واحدة؟ أم أنّها تدرّجت - ولا تزال - من البسيط إلى المركّب، ومن الوحدة إلى الكثرة؟ وهل أنّها ستقف في تدرّجها وكثرتها عند حدّ؟

أم أنّ ما أحسبه تصميماً ليس أكثر من مصادفات عمياء لا تعقل شيئاً ولا تهدف إلى شيء؟ وإذ ذاك فما شأني - أنا الإنسان العاقل الذي لا يتنفّس، ولا يفكّر، ولا يتحرّك إلاّ لهدف من الأهداف - ما شأني من عالم لا عقل فيه ولا هدف له؟ وفيمَ تفتيشي المحموم عن المعقول في ما ليس يعقل فلا يمكن أن يكون معقولاً؟ إنّه لضرب من الجنون. أو هو الجنون. والجنون هو اختلال العقل أو فقدانه. فلا سبيل للعاقل إلى التفاهم مع المجنون. لأن كلام العاقل وحركاته تخضع لنظام. وليس كذلك كلام المجنون وحركاته.

إن يكن العالم الذي أنا منه وفيه عالم فوضى وجنون فمحاولتي أن أفهمه بعقلي هي الجنون المطبق. وإذ ذاك فكلانا مجنون - العالم وأنا.

ولكنّني أُحسّ بالغ الإحساس أن العالم الذي في داخلي ومن حواليّ منظّم أبدع التنظيم في أدقّ جزئياته وأوسع كلياته. فما من شيء في الكون إلاّ يخضع في تكوينه، وفي حركاته، وفي نموّه وانحلاله لنظام صارم لا يتبدّل من يوم ليوم، ولا من ألف

Twitter: @ketab_n

عام إلى ألف عام. ولولا ذلك لما كان لنا نحن الآدميّين أن نتناسل، وأن نزرع ونجني، وأن ننسج ونلبس، وأن نبني البيوت والجسور، وأن نركب اللُّجّة ونمتطي الهواء، وأن نحلم بغزو الأجرام السماويّة، أو أن نقوم بأيّ من الأعمال الصغيرة والكبيرة التي تحفل بها حياتنا في كلّ لحظة وساعة. فنحن في جميع ذلك إنّما نساير نظاماً نحن منه وفيه وله.

والنظام ينفي الفوضى والمصادفات والحركات الاعتباطيّة من أيّما نوع كانت. والنظام لا يكون بغير هدف. وإلاّ كانت الفوضى. وهدف النظام لا يمكن أن يكون خارج النظام. فهو المبدِع والمُبدَع في آن معاً. وهو الهدف والوسيلة إلى الهدف.

وها أنا - الإنسان الصغير الواقف على ظهر سفينة في عرض البحر - أسأل البحر عن نظامه. ثمّ أعود فأسأل نفسي عن الدافع، أو الدوافع التي تحملني على طرح ذلك السؤال. فهو سؤال لا تطرحه الأسماك التي في البحر؛ ولا المياه التي تتخبّط فيه، أو تخرج منه لتعود إليه؛ ولا المعادن والنباتات والحشرات والحيوانات التي في اليابسة وعليها. ويطرحه إنسان مثلي. ولولا أنّه سؤال معقول لما صدر عن إنسان عاقل. ولو لم يكن طارح السؤال يشعر أن الجواب عنه أمر ممكن ومعقول لما طرحه، ولما أجهد عقله وخياله في الوصول إلى جواب عنه.

Twitter: @ketab_n

ويأتين الجواب في شكل بارقة خاطفة ألمح معها سناء النظام الذي يهيمن عليّ، وعلى البحر، وعلى كلّ ما ظهر لي واستتر عني من الأكوان التي تملأ الفضاء اللامتناهي. ويبدو لي أن ذلك النظام هو العقل الأزليّ، الكليّ، الكامل، الشامل، الذي منه عقلي وعقل كل إنسان، وغريزة كلّ نبتة وحشرة وحيوان، وطبيعة الذرّات التي تتألّف منها سائر الأجساد، سواء السائل منها والجامد، والحيّ، وما نحسبه بغير حياة. وهذا العقل يوزّع من ذاته في الكون نظير ما يوزّع البحر من ذاته في الأرض. وذلك بغير انقطاع. فلا هو ينضب. ولا هباته تنضب.

ثمّ يبدو لي أن عقلي لا يختلف بشيء عن العقل الأزلي، الكلّي، الكامل، الشامل، العامل بغير انقطاع، إلاّ كما تختلف البذرة عن الشجرة التي هي منها، أو كما يختلف الطفل عن والديه، والجدول عن البحر. فالبذرة، إذا تهيَّأت لها الظروف المؤاتية، مُعَدّة لأن تصبح شجرة، والطفل مُعَدّ لأن يصبح رجلاً أو امرأة، والجدول لأن يغدو بحيرة أو بحراً. إنّها قضيّة ظروف زمان ومكان. والزمان ضمن الأزل والأبد يغدو وكأنّه لا زمان. والمكان ضمن اللانهاية يغدو وكأنّه لا مكان. فعقلي باقٍ ما بقي العقل الأزلي، الكليّ، الكامل، الشامل، العامل بغير انقطاع. والمجال المُهيّأ لتفتّحه ونموّه هو كلّ الزمان، وكلّ المكان.

Twitter: @ketab_n

وإذ ذاك فالبحر وما توحيه أبعاده وأعماقه، وارتعاشاته وانتفاضاته، وتجمّداته وتبخّراته، وما ينطلق منه ليعود إليه من ينابيع وجداول وأنهار؛ واليابسة وما فيها وما عليها؛ والفضاء الأوسع بشموسه وأقماره ومجرّاته وما بينها من فجوات هائلة تبدو كما لو كانت فراغاً وما هي بالفراغ؛ والولادة والموت وما بينهما من نموّ وانحلال، وفرح وترح، وشوق وقلق - كلّ هذه ليست سوى الظروف المؤاتية ضمن الزمان والمكان التي أعدّها العقل الأكبر للعقل الأصغر كيما تساعده على التفتّح والتمدّد والتفهّم إلى أن يصبح كليّاً، وشاملاً، وكاملاً، وأزليّاً أبديّاً كالعقل الذي منه انبثق.

ثمّ إنّي لا أستطيع البتّ - ولا إخال غيري يستطيع - بأن هذه الأرض هي المسكن الأوّل أو المختبر الأوحد الذي هيّأه لنا العقل الأكبر. فقد يكون - وهو الأرجح - أنّنا عرفنا أرَضين كثيرة قبل أن ننتقل إلى هذه الأرض. وأنّنا سنعرف أرَضين أكثر فأكثر من بعد أن نقضي لبانتنا من هذه الأرض. مثلما قد يكون أنّنا لبسنا من قبل أجساداً غير التي ألفناها ههنا. وسنلبس أجساداً تختلف منتهى الاختلاف عن التي نلبسها الآن. ففي المسكونة مختبرات بغير عدّ. وهي ليست كلّها للإنسان وحده. بل لكلّ ما في المسكونة من كائنات بعضها دون الإنسان تفتُّحاً بكثير.

Twitter: @ketab_n

وبعضها فوقه بكثير. وأجهزة الواحد من هذه المختبرات قد لا تتشابه وأجهزة الآخر ومعدّاته. فالوسائل تتغيّر وتتبدّل بتغيّر الأوضاع والحاجات وتبدُّلها. ولا نهاية لقدرة العقل الأكبر على استنباط الوسائل وتبديل الأوضاع التي من شأنها أن تدفع العقل الأصغر الى التفتيش بغية التفتّح والانطلاق من الحدود والقيود إلى حيث لا حدود ولا قيود.

إن يكن الإنسان أوسع الكائنات تفتّحاً في المختبر الذي هو الأرض فإنّه لمن السخف أن نحسب جميع الكواكب والمجرّات بعضاً من معدّات ذلك المختبر بدلاً من أن نحسبها مختبرات لكائنات قد يكون بعضها أرقى منّا بما لا يقاس. وكيف تكون تلك الكواكب والمجرّات وصيفات للأرض في حين أن الأرض لا تطلّ أبداً على الكثير منها؟ وبين ذلك الكثير ما يبعد عن الأرض ملايين السنوات الضوئيّة! وأسخف من الذين جعلوا الأرض محور الكون هم أولئك الذين جعلوا الإنسان سيّد الكائنات بأسرها، ثمّ جعلوه الهمّ الأكبر لربّ الكون، أو أربابه.

أجل. مختبر هي الأرض. ولعلّها، في هذه المرحلة من تفتُّحنا، المختبر الأمثل لنا ولسائر شركائنا فيها من الكائنات. ولكنّها ليست المختبر الأوّل والأخير. والذي نختبره فيها يتفاوت أعظم التفاوت بالنسبة للمستوى الذي بلغه كلّ منّا من التفتّح.

Twitter: @ketab_n

وإذ ذاك فلا عجب أن نختلف اختلافاً كبيراً في نظرنا إلى الأشياء من حيث أحجامها وأشكالها وألوانها، ومن حيث قيمتها، أو من حيث هي «حقائق ثابتة» أو «أعراض زائلة».

فالزهرة للنحلة والفراشة هي غيرها للذبابة والزنبور. والشجرة للنملة هي غيرها للعصفور. والمطر للصخرة الصَّمَّاء هو غير المطر للنبتة في الصحراء. والشمس للنسر هي غير الشمس للوطواط. والشاة لابنها الحَمَل هي غير الشاة للقصّاب. وجميع الأشكال التي تبدو للرجل العادي حقائق كثيفة، راهنة، ثابتة، تبدو لرجل كأفلاطون خيالات زائلة لفكرة لا تزول. والبحر الذي هو من أروع الأجهزة التي أعدّها لنا العقل الأكبر في مختبرنا الأرضي يبدو للسواد الأعظم منّا وكأنّه ليس أكثر من خزّان هائل من الماء الأُجاج، نستمدّ منه الريّ لأجسادنا ومزروعاتنا، ونصطاد منه الأسماك والإسفنج واللؤلؤ، ونُجري فيه سفننا التجاريّة والحربيّة، وتستحمّ في مياهه أو نفرغ فيها نفاياتنا وأقذارنا.

أمّا أنّ البحر كان H^2O قبل أن يكون بحراً، فما كانت تبصره عين، ولا تسمعه أذن، ولا تلمسه يد، ولا يتذوّقه لسان، ولا يشمّه أنف؛ وأمّا أنّه في الهواء الذي نتنفس فلا نبصره، ولا نسمعه، ولا نلمسه، ولا نتذوّقه، ولا تشمّه؛ وأمّا أنّه يتجمّد أحياناً فيغدو عديم الحركة والحياة، ثمّ يذوب فإذا به كلّه حياة

Twitter: @ketab_n

وحركة؛ وأمّا أنّه يثور أحياناً ويرغي ويزبد لكنّ أعماقه تبقى أبداً ولا ثورة فيها، ولا موج، ولا رغوة، ولا زبد – فهذه جميعها أمور ليس ينتفع بمعانيها وموحياتها إلاّ القليل من القائمين في مختبر الأرض وعليه. أمّا الكثرة الساحقة فلا تبصر من البحر أكثر من موجه ورغوته وزبده. فهي في اصطراع دائم يشبه اصطراع موج البحر إلى حدّ بعيد. وهي غارقة في الرغوة والزبد إلى حدّ أن نحسبهما من البحر بمثابة المعنى من الكلمة واللُّباب من القشرة.

* * *

يطول بي الحديث عن البحر ويتشعّب حتى أكاد لا أبلغ نهاية. وأنا بصدد مرحلة من كتاب كانت له بداية، ولا بدّ له من نهاية. فلنترك البحر للبحر، ولنعد إلى فجر اليوم الذي فيه سلّمني البحر إلى اليابسة بعد أن كان لي في رفقته عشرون فجراً.

Twitter: @ketab_n

فجر جديد وصدمة عنيفة

فجر التاسع من أيار سنة ١٩٣٢ - ما كان أروعه فجراً في حياتي!

نحن في ميناء بيروت. الميناء يستفيق شيئاً فشيئاً على نهار جديد حافل بالحركة التي أَلِفها في كلّ يوم: استقبال مسافرين وتوديع مشافرين. وتفريغ بضائع وشحن بضائع. من الأرصفة تطرق مسامعي قعقعة الدواليب، ووقع سنابك الخيل، وقصف سياط الحوذية، ولغط السماسرة والعتالين: يا أحمد! يا مصطفى! يا أبو زكّور! وزعقات منكرة ما سمعَتْ مثلها بيروت التي أبحَرْتُ منها قبل عقدين من السنين. إنّها زمّارات السيّارات.

أمامي غابة من الصواري وقد التفّت عليه الأشرعة. ومن خلفها بنايات بعضها طاعن في السنّ وبعضها في نضرة الشباب. ومن خلف البنايات ساحل أخضر، فسيح. ولكنّ عيني تقفز من فوق الصّواري، والأرصفة، والبنايات، والساحل الأخضر إلى التلال التي وراء ذلك الساحل.

للّه ما أروع هذه الغلالة الشفّافة التي لفّ بها الفجر تلك التلال! فهي هنا بلون اللؤلؤ، وهناك بلون البنفسج، وهنالك بلون اللُّجَين وقد ذررت عليه شيئاً من التبر. وأروع منها هي التلال

Twitter: @ketab_n

الملتفّة بها وقد تداخل بعضها في بعض، ثمّ راحت تتقاعس وتتمطّى أبعد فأبعد، وأعلى فأعلى، حتى بلغت نقطة بدت عندها كما لو أنّ السماء قد اتكأت عليها. تلك النقطة هي قمّة صنّين.

صنّين متّكأ السماء! إنّه أمامي!

عيناي تكادان تقفزان من وجهي. وقلبي يكاد يطير من بين ضلوعي. إنّي أودّ لو أُدرك تلك القمّة الحبيبة قبل أن تُدركها الشمس. فأتبرّك بلمس خمارها الأبيض. وأفتح صدري لأنفاسها المثلوجة، المنعشة، وأُطلّ من فوقها على الشخروب ومن فيه وما فيه، وعلى البحر عندما تتسربل أمواجه بالنُّور؛ وعلى هذه التلال المكسوّة بالصنوبر والبلّوط والسنديان، والمزارع والقرى المنثورة على أكتافها وفي أحضانها، والأخاديد العميقة المتلوية بين جنباتها وقد أخذ اللّيل يقوّض منها خيامه.

إنّي أودّ أن أنطلق مع العصافير من وكناتها، ومع النحل من خلاياه، ومع البهائم من مرابطها وزرائبها، ومع الزحّافات من جحورها. وأوَدّ أن أرافق هذه المخلوقات في المسالك العجيبة التي تسلكها إلى رزقها. فمسالكها، مهما تشعّبت ومهما اكتنف بعضَها من مظاهر النزاع والقسوة، تبقى بريئة، وشريفة، وطاهرة، بالنسبة إلى مسالك الآدميّين في ممالكهم ومدنهم. فما أبعدها عن قرصنة البورصة، وجشع المصانع والمتاجر والمصارف ، ومكايد

Twitter: @ketab_n

السياسة، وأحابيل الاستعمار، وأحقاد المذاهب، ونفاق السلطة، ورياء الظلم وقد تجلبب بجبّة العدالة، وخداع العهر وقد لبس المسوح. ثمّ ما أبعدها عن الجلبة الصاخبة التي خلّفتُها ورائي في بابل القرن العشرين، والتي سئمَتْها نفسي وضاقت بها أُذناي.

وينتشر النُّور أبعد فأبعد، وأبهَى فأبهَى بُعيد إطلالة الشمس من فوق صنّين. فينقلب الفجر صبحاً، والصبح نهاراً. وتزداد الحركة على الباخرة، وعلى الرصيف بجانبها. حقائب، وجوازات سفر، ورجال من الأمن العام يمحّصون تلك الجوازات. وعلى السلالم مسلّمون يصعدون، ومسافرون ينزلون.

ويقترب مني بغتة رجلان وامرأة. إنّهم أخي نجيب، وخالي سليمان، وسوزان زوجة أخي نسيب الفرنسيّة.

- أنت أخي؟!

- أنا أخوك.

ويضمّني نجيب ويشمّني. وأضمّه وأشمّه. فلا هو يرتوي ولا أنا أرتوي. إنّه شابّ عامر البنية، وسيم الوجه، تتدفّق العافية والرجولة من عينيه وصوته وحركاته. وهو اليوم أب لثلاثة أطفال - ميّ ويوسف ونديم. ولكنّني أستشعر شيئاً من الكبت في لهفته.

أمّا خالي سليمان فهو غير الخال الذي ودّعته في بيروت عام ١٩١١ . لقد هرم قبل الأوان وبدت على وجهه وقيافته ملامح الهمّ

Twitter: @ketab_n

والقلّة. وكنت أعرف أنّه قد أقفل دكّانه بعد الحرب، وأنّه قد رهن بيته في بسكنتا لابن عمّ له في مصر بمبلغ يوازي أقلّ من ربع قيمته، وأن البيت لم يكن بيته وحده، بل كان لوالدتي وشقيقتيها فيه نصيب أكبر من نصيبه. ولكنهن تمنّعن عن المطالبة به شفقة على أخيهما الذي لم يكن يشفق على نفسه فبذّر ثروته بالقمار.

وأمّا سوزان ففتاة لطيفة الملامح، رزينة الصوت والحركة؛ على عينيها نظارتان، وعلى وجهها شيء من الخجل والوجل. إنّها تبدو مرتبكة أمام هذا الرجل الغريب القادم من أميركا. فلا تعرف كيف يليق بها أن تخاطبه وأن تتصرّف معه.

وأسألها من بعد أن سلّمت عليها أحرّ السلام:

- وأين نسيب؟ فتجيبني بصوت خافت:

- في البيت.

- أيّ بيت؟ في عاليه أم في بسكنتا؟

- في بسكنتا.

- ألم يتسلّم برقيّتي؟

- بلى. تسلّمها.

- ولماذا لم يأتِ معكم؟

- لأنّه منحرف الصحّة... وأسمع غصّة في صوت سوزان.

Twitter: @ketab_n

- وماذا يشكو؟

فتختنق سوزان ولا تجيب. وأذكر في الحال علّة داء الجنب التي ذاق منها نسيب ما ذاق في آخر سني دراسته في جامعة نانسي. وأذكر أنّه تعافى منها تماماً قبل أن أقدم على الزواج. ولكنّني أذكر كذلك ما قرأته وسمعته عن تلك العلّة. وفي جملته أن الذين يصابون بها ويتعافون منها عليهم أن يتجنّبوا لبضع سنوات بعد ذلك جميع أنواع التفريط والإرهاق. وإلاّ تعرّضت الرّئتان لداء الصدر. وفهمت في الحال أنّ ذلك ما يشكوه أخي. ولعلّه لا يزال في بدايته. ولعلّه يكون من الممكن التغلّب عليه. فهو داء ما عرفه من قبلُ أيٌّ من آبائنا وأجدادنا.

إنّها لصدمة عنيفة يا ميخائيل. ولكنّه لا يليق بك أن تترنّح تحتها. أفلا ذكرت حديثك مع البحر وعنه؟ إن النظام الذي يسيّر البحر يسيّرك وكلّ ما في الكون. وهو في فكرك وقلبك، وفي لحمك ودمك. وهو لا يؤذي إلاّ الذين يجهلونه فيعاندونه ويحاربونه. فطاوِعْه وسالمه عن رضى وعن طيبة خاطر إذا شئت ألاّ يسحقك.

لقد استعجلتَ النتائج عندما ظننت أن مسؤولياتك الماديّة نحو أهلك قد انتهت. إنّها تتجدّد وتتكاثف. وأنت ما تعوّدت الهرب. فاثبت. وتصبّر. وحذار أن يفلت منك إيمانك بالموجّه

Twitter: @ketab_n

الأعظم ونظامه العادل، الكامل، الشامل. وإذا الذين أمامك الآن، والذين ينتظرونك في بسكنتا خارت قواهم وانهار إيمانهم، فليكن لهم من إيمانك سند وقوّة وإيمان.

انطلقنا إلى المدينة من بعد أن ودّعت رفيقي وصديقي إسكندر وتعاهدنا على أن نعود فنلتقي في سفح صنّين، وفي جوار قلعة الحصن ولو مرّة في الصيف. وفي المدينة انضمّ إلينا صهري - زوج أختي غاليه - ونفر من الأنسباء المقيمين في بيروت.

لقد تغيّرت بيروت وتبدّل الكثير من معالمها. اختفت الزواريب الضيّقة، المسقوفة، المظلمة التي عرفتُها من قبل في جوار المرفأ، والتي كان يرهقني القفز من فوق حفرها المليئة بالأقذار، والتهرّب من كلابها المنبطحة باطمئنان على الأرض، أو المتهاوشة على كسرة خبز أو عظمة. واختفت، أو كادت، العربات التي تجرّها الخيل وحلّت محلّها السيارات. إلاّ الطنابر، فقد كانت لا تزال المعوَّل الأكبر في نقل البضائع والأثقال. والأهمّ والأعجب أنّ الحجاب أخذ يتقهقر في حربه الخاسرة مع السفور.

إي. لقد تغيّرت بيروت. غيّرتها الحرب. وغيّرها الانتداب. فهي تبدو لناظري أرحب وأكبر بكثير من بيروت التي عرفتها قبل عشرين سنة. إلاّ أنّها، على الإجمال، لا تزال بعيدة جدّاً عمّا كنت أرجوه لها من النظافة والترتيب والهدوء والنظام. إنّها ما

Twitter: @ketab_n

برحت تستلذّ الصخب، والضجيج، والمهاترات، والكلام البذيء، والمناداة بأعلى صوتها عمّا عندها من سلع ممتازة وبأبخس الأثمان. فهناك الحوانيت النظاميّة؛ والحوانيت المحمولة على العجلات، وعلى الرؤوس، وعلى الأكتاف والظهور؛ والحوانيت التي تحتلّ أيَّ قسم شاءت من أي رصيف.

لكأنّ آذان هذه المدينة من مادّة لا تضطرب ولا تلتهب. وكأنّ عيونها من زجاج فلا تبصر الأقذار في شوارعها؛ وكأنّ أنوفها أبداً مزكومة فلا تشمّ روائح النفايات المنسربة من مثاناتها عند قاعدة هذا العمود أو ذاك من أعمدة التلغراف والكهرباء. وكأنّها معرض لأصناف البشر وأزيائهم ولغاتهم ولهجاتهم ودياناتهم. ههنا تلتقي أناقة باريس وخشونة البادية؛ وتدبّ الرِّجل الحافية إلى جانب الحذاء اللمّاع؛ وتختلط سُمرة الشرق الأدنى بصُفرة الشرق الأقصى، وبياض شمال أوروبا وأميركا بسواد إفريقيا الاستوائيّة؛ وتمرّ العمامة بالقلنسوة، والصدر المكشوف بالوجه المحجَّب؛ ويشهد النّاقوس أن المسيح ابن اللّه، والمئذنة أنّ محمّداً رسول اللّه، والكنيس أن موسى كليم اللّه؛ ويشهد الكلّ أن الفلس هو مفتاح السعادة في الأرض وسُلّمها إلى السماء.

أمّا الانتداب فآثاره في كلّ مكان: في الجنود السنغاليّين وضبّاطهم الفرنسيّين تمرّ بهم هنا وهناك؛ وفي هذه اللافتات فوق

Twitter: @ketab_n

أبواب الحوانيت وقد كُتب معظمها بالفرنسيّة؛ وفي الـ «بونجور» والـ «بونسوار» والـ «مرسي» تسمعها بغير انقطاع؛ وفي أسماء الشوارع ما بين «غورو» و «ويغان» و «كليمنصو» و «مدام كوري» وغيرها وغيرها. حتى لتحسب أن لبنان لم يبدأ تاريخه إلاّ سنة ١٩١٩ بعد الميلاد. فلا رجال لهم شأنهم في حياته قبل ذلك التاريخ، ولا قمم وينابيع وأنهار لها من الروعة والجمال والمنفعة ما يجعلها حَريّة بأن يتشرّف باسمها شارع من شوارع المدينة.

ولكنّ بيروت تتفجّر حيويّة واندفاعاً في سبيل اقتناص الرزق واللذّة. فهي من ذلك في ما يشبه الحمّى لا تنفكّ في ارتفاع مستمرّ. وهذه الحيويّة تعوّض إلى حدّ بعيد عمّا يلازمها من صخب وهذيان وفوضى. وعمّا ينتابها بين الحين والحين من ضيق في النفَس يعزوه الجاهلون إلى ضيق في صدر عيسى ضد محمّد، أو في صدر محمّد ضدّ عيسى. وعيسى ومحمّد منه براء. فالذي أنطق الواحد أنطق الآخر. وهو الذي ما برح يُنطق حتى الصخرة والشجرة والحشرة وقطرة الماء وذرّة التراب بالخير والمحبّة والجمال. ولكن لقوم يعقلون.

Twitter: @ketab_n

لقاء

كان أخي نجيب قد اكترى سيارة لتنقله ومَن معه إلى بيروت، ولتعود بنا جميعاً إلى البيت. والسيارة إحدى سيارات ثلاث كانت تعمل بين بسكنتا وبيروت عند وجود ركّاب. وكان يملكها ويسوقها رجل من بسكنتا. ونحو الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم ركبناها وانطلقنا في اتجاه صنّين.

اللّه، اللّه! لقد سبقتني دواليب العمّ سام ومحرّكاته وبنزينه إلى بلادي. وسبقتني أشياء أخرى كثيرة من ديار هجرتي لم يكن لبلادي بها عهد. والمدهش أن السيارة الأميركيّة غزت لبنان وسوريا دون مقاومة تقريباً. ولكنها أعياها أن تجلب معها أسماء أجزائها في لغة بلادها. وقد استقلّت لغة المنتدبين بتلك الأسماء. فكان «الموتير» و«الديركسيون» و«الفيتسّ» و«الشامبرير» و«البوجي» و«الإيشابمان» و«الكيلومتراج» إلخ إلخ... ثمّ كان «الشوفير». لكم تمنّيت لو يقوم صاحب «قِفا نبكِ» من قبره ليرى ماذا حلّ بلغة «الدَّخول وحَومل» من بعد أن تبوّأت السيارة عرش الناقة، وانتزعت الطيارة «قصب السبق» من «مِكَرٍّ، مِفَرٍّ، مُقْبِلٍ، مُدبرٍ معاً»!

الطريق في أوّله سهل ومعبّد بالزفت. وهو يجتاز بساتين

Twitter: @ketab_n

غضّة من البرتقال واللّيمون والموز تمتدّ كلّها في محاذاة الشاطئ. ثمّ ينطلق منها ويأخذ يصعّد في الجبل، متلوّياً كالأفعوان بين غابات من الصنوبر والبلوط يتخلّلها هنا وهناك بعض الزيتون والكرمة والخرّوب. ثمّ لا يلبث أن ينزع عنه وشاح الزفت ليتدثّر بدثار من الحصى والتراب. إنّه، على ضيقه، وكثرة تعرّجاته، لطريق يبعث البهجة في نفسي المتعطّشة إلى السكينة والسلام والجمال، ويملأ صدري بنسمات منعشات وطاهرات من السموم التي تنفثها مصانع المدن ومتاجرها، وأوكارها وأوجارها، وأرصفتها وشوارعها. وكنت أشعر، ونحن لا نزال في أوّل الطريق، كما لو كنت مقبلاً على أبواب جنّة من جنان الأساطير. إلاّ أن ذلك الشعور كان ينقلب إلى ضدّه كلّما مرّ في خاطري خيال أخي نسيب. وهل كان لي أن أردّ ذلك الخيال أو أن أصدّه؟..

المسافة بين بسكنتا وبيروت تكاد لا تزيد على عشرين كيلومتراً في خط مستقيم. ولكن طبيعة الجبال التي يمرّ فيها الطريق جعلت طوله خمسة وأربعين كيلومتراً. وهي مسافة تقطعها السيارة في نصف ساعة أو أقلّ حيث الطريق سهل ومستقيم. ولكنّها تعجز عن قطعها في أقلّ من ساعة ونصف الساعة إذا كان الطريق من تراب، وكانت فيه الأخاديد والحفر،

Twitter: @ketab_n

وكان يتلوّى بين أضلاع التلال وفي بطون الأودية لينتهي من سطح البحر إلى علوّ ٤٥٠٠ قدم ويزيد.

لم أُلقِ أيّ بالٍ في البداية إلى السيارة وهيكلها المتهدّم، ولا إلى الحشرجة في أمعائها، والطقطقة في مفاصلها. فقد كانت المناظر الخلاّبة أمامي وعن جانبيَّ تشغلني حتى عن نفسي، وحتى عن التفكير في أخي المشرف على حرب قد تكون يائسة مع داء شديد عنيد. وكيف لا تشغلني هذه المناظر ومفاتنها ما انفكّت تدغدغ أحلامي وأفكاري طوال غربتي الطويلة عنها؟

ولكن نشوتي كانت قصيرة الأمد. فما تركنا الساحل وأخذنا نصعّد في الجبل حتى توقفت سيارتنا في وسط غابة من الصنوبر، ثمّ ترجّل سائقها، ورفع الغطاء عن محرّكها، وراح يفتّش عن سبب الوهن في مفاصلها وقد ارتسمت على وجهه موجات من الحيرة السوداء. إن مطيته تأبَى الصعود شبراً واحداً أبعد من النقطة التي بلغتها. ولكنها لم تستنكف عن أن تعود بنا القهقرى. إنّها تؤثر النزول على الصعود.

– بسيطة. بسيطة يا أفندية. الكاراج قريب. نرجع إلى الكاراج ونصلح الخلل في الحال.

وعاد صاحبنا بنا القهقرى نحو الكيلومتر. وبعد نصف ساعة كنّا في طريقنا للمرّة الثانية. ولكنّنا ما كدنا نبلغ المكان

Twitter: @ketab_n

الذي توقّفنا فيه منذ نصف ساعة حتى حرنت مطيّتنا ثانية وأضربت أنباضها عن الحركة. فراح السائق يمثّل عين الدور الذي مثّله من قبل ويطمئننا بأن المسألة «بسيطة». لقد احترق أحد «البوجيات». والكاراج قريب.

رجعنا أدراجنا إلى الكاراج. فتبيّن أنّ العلّة ليست كما توهّم صاحبنا. ولكنّها لم تكن من التعقيد بحيث تستغرق مداواتها أكثر من نصف ساعة آخر. وانقضى نصف الساعة فركبنا السيارة للمرّة الثالثة. وللمرّة الثالثة توقّفت حيث توقّفت في المرّة الأولى. عندئذٍ فارت مرارة السائق فانطلقت الشتائم من فمه انطلاق القذائف من المدفع:

- حراميّة. أولاد كلب. لا يفهمون الطمس من الغمس ويدّعون الفهم. لقد خرّبوا العربة. وكانت مثل الساعة. الحقّ ليس عليهم. الحقّ عليّ لأني سلّمتهم عربتي. أنا حمار. باللّه عليكم يا جماعة الخير. لا تؤاخذوني. لا بدّ من العودة إلى بيروت. هنالك كاراج أعرفه وأعرف أصحابه. إنّهم بارعون في صنعتهم. وأنا أثق بهم. وسيصلحون الخلل في الحال. بسيطة. بسيطة إن شاء اللّه...

رجعنا إلى بيروت - إلى الكاراج الذي آمن به صاحبنا. وهناك لبثنا ساعتين - بين الزيت والشحم وقعقعة المطارق. ولقد عجبت وعجب الذين معي لصبري كيف لم ينفد، ولرجليّ

Twitter: @ketab_n

كيف لم يتطرّق إليهما الوهن من الوقوف. إذ لم يكن في المكان كرسيّ أجلس عليه. لقد تجاوزت الساعةُ السابعة وأنا أتحمّل مضض الوقوف والانتظار في مثل ذلك المكان شفقة مني على السائق الذي ما شئت أن يخسر أجره فوق تعطيل سيارته، والذي ما انفكّ يطمئنني بين الفينة والفينة أن «المسألة بسيطة. وستنتهي بعد دقائق».

أخيراً لفظ القدر حكمه. وكان الحكم أن تصليح السيارة لن يتمّ قبل الغد!..

عندها مضى أخي نجيب يفتّش عن سيارة غريبة تقلّنا إلى البيت. ولم يكن من السهل وجود «شوفير» غريب يقتحم السفر ليلاً إلى بسكنتا وطريقها من البعد والوعورة والخطر على ما هو مشهور عنه. ولكنّ أخي توفّق إلى مثل ذلك الشوفير. وكان من تلك العراقيل التي نبتت لنا أنّني حُرمت الاستمتاع في ضوء النهار بروعة المشاهد التي ترافق الطريق من البحر إلى صنّين؛ وأن شعوراً حادّاً نفذ إلى قلبي بأنْ ستقوم في وجهي متاعب جمّة في الفترة الأولى من وجودي في بسكنتا بعد عودتي إليها.

كانت الساعة نحو العاشرة مساء عندما بلغنا بيت خالي حيث كان يقيم في الدور العلويّ منه أخي نسيب وزوجته من بعد أن غادرا المدرسة في عالَيه، وحيث كان الأهل والأنسباء

Twitter: @ketab_n

والجيران قد تجمّعوا لاستقبالنا، وأضاؤوا الشموع في الشرفات والقناديل في الداخل. ولكنّ فرحة الاستقبال كادت تنقلب مناحةً عندما طال انتظار الجماعة فراحت والدتي تلطم كفّاً بكفّ جازمة بأن كارثة قد حلّت بنا في الطريق وصائحة: «يا ليته بقي حيث كان!» ولم تكن أقلّ منها لوعة وقلقاً شقيقتي. أمّا نسيب فقد تظاهر بالصبر ورباطة الجأش ليسكّن روع والدته وأخته. ولكنّه أصرّ على إرسال سيارة للبحث عنّا وكنّا قد تلاقينا وإيّاها في منتصف الطريق. وكان بالإمكان تلافي ذلك الانزعاج لو كانت هناك وسيلة للاتصال بسكنتنا. ولكن التلفون لم يكن بعد قد غزا بيروت. فكيف بسكنتنا؟

«ولَدي! سَنَدي! روحي! دعني أشبع. هذه لك. وهذه لأديب. وهذه لهيكل. ولدي! ولدي!»

يا لقلب الأمّ! إنّه من غير هذا العالم، ومن عنصر أبقى، وأنقى. وأشرف بما لا يقاس من اللحم والدم. إنه النفحة العجيبة التي بها تحيا الأكوان وتتماسك، والمحور الأزلي، الأبدي الذي عليه تدور. وإنّه لأوسع من الزمان والمكان، وأقوى من الانحلال والزوال.

ويا لسذاجة الحواسّ تتلاعب بها شعوذات الساعات والسنين فإذا الأشياء لا تستقرّ على حال، وإذا الوجوه والقامات

Twitter: @ketab_n

والأصوات والحركات في تغيّر مستمر. فأمّي التي تضمّني الآن وأضمّها هي غير أمّي التي ضمّتني وضممتها قبل عشرين سنة. لقد تجعّد وجهها، وتهدّل الجلد على عنقها ويديها، وابيضّ الجانب الأكبر من شعرها، وغفا البريق في عينيها، وبدا احديداب طفيف في ظهرها. ولكنّ قلبها ما يزال قلبها، إنّه قلب الأمّ!

وها هي شقيقتي غاليه. لقد تركتها وهي دون العاشرة. وإذا بها اليوم ذات قامة فارعة، وذات بعل، وأمّ لأربعة بنين وابنة، أكبرهم صبيّان توأمان، وأصغرهم طفل في شهره الثاني. وقد دعوه «جرير» باسم ابن خاله أديب في أميركا.

وها هي سيّدة فتيّة تقترب مني وتعانقني بلهفة خجولة؛ فتسترعي انتباهي نعومة في ملامحها الحلوة وفي بشرتها المشرقة، وخَفَر في عينيها، وعذوبة في صوتها، حتى لتبدو جديرة بريشة كريشة دافينشي. إنّها زكية زوجة أخي نجيب. وأنا لا أعرفها فقد كانت طفلة يوم غادرت بسكنتا. وأعرف أخاها الذي كان رفيقي في مدرسة القرية.

وأخيراً ها هو نسيب. قامة طولها ستّ أقدام. منكبان عريضان. رأس كبير، جميل التكوين، كثيف الشعر، ناعمه، عريض الجبين، عاليه، نافر الصدغين. وأنف فيه كلّ ملامح الرجولة؛ وفم ينمّ عن العزم والثقة بالنفس؛ وعينان لا تعرفان

Twitter: @ketab_n

القسوة ولا الوجل؛ وذقن تحدّث عن إرادة قحّامة. لكأنّه عنوان العافية الكاملة. أيكون أن الطبيب الذي فحصه كما أخبرتني سوزان قد أخطأ التشخيص؟ ويتحاشى نسيب تقبيلي. أمّا أنا فأقبّله. ويضمّ واحدنا الآخر ضمّة قويّة، طويلة.

أمّا الوالد فقد قيل لي إنّه يقضي ليلته في الشخروب ولن يتسنّى له النزول إلى البلدة إلاَّ في الصباح. وجاء الصباح. وجاء الوالد. إنّه لا يزال يمشي بقدم ثابتة، وبقامة كأنّها الرّمح استقامة واعتدالاً. وبريق الأنس واللّطف والوداعة ما يزال يلتمع في عينيه الصغيرتين. وابتسامة الضمير الصافي، والإيمان الحيّ، والقناعة الزاهدة في أمجاد الأرض وزخارفها، لا تزال تطفو على وجهه الذي لوّحته الشمس. ولكنّ الشيخوخة لم تترك شعرة سوداء في رأسه، وفي حاجبيه وشاربيه.

وفي الصباح جاؤوني بصغار أخي نجيب وصغار أختي غاليه. يا لبراءة الطفولة والكنوز المخبوءة فيها! ويا لجمال الطفولة قبل أن تمعن فيه هموم العمر وحذلقاته ومخرقاته تبديلاً وتعديلاً! فمن عينَي ميّ - ابنة نجيب - الواسعتين، السوداوين، الناعستين، والمكلّلتين بأهداب طويلة مقوّسة؛ ومن تقاطيع وجهها الملائكي؛ ومن الذؤابتين المسدولتين على ظهرها والشريط الحريري المعقود في آخرهما؛ ومن الفستان الزاهي الذي كان يبدو أنّها تعتزّ به -

Twitter: @ketab_n

أطلت عليّ دنيا من الطهر والحسن والحلاوة، ودنيا من الأحلام والأسرار. أمّا أخوها يوسف فأبرز ما لفت نظري فيه دهشة وتحفُّز في عينيه الكبيرتين، وحيويّة يضيق بها هيكله الصغير، ورقّة في القلب لا يصعب عليها أن تنتزع اللّقمة من فمها لتطعمها الغير. وأمّا نديم، وهو أصغر الثلاثة، فقد كان في أوّل عهده بالمشي والنطق، وكان في حركاته ونبراته ما ينمّ عن الإقدام والاستقلال. ولكم كانت لي معه فيما بعدُ جولات ونزهات أحمله فيها على ظهري أو بين ذراعيّ وأمضي ألقنه بعض كلمات وعبارات بالإنكليزيّة.

والذي أقوله في صغار أخي نجيب يمكنني قول مثله في صغار أختي غاليه. فهؤلاء وأولئك والكبار الذين يتولّون شؤونهم هم اليوم أهلي في بسكنتا، وسيكون لهم النصيب الأكبر من همومي. وعليّ أن أعايشهم وأنسجم وإيّاهم برغم ما قد يكون بيننا من عظيم التفاوت في الطبع والمزاج، وفي التفكير والاتجاه بنوع خاصّ.

وفي صباح ذلك اليوم قادوني إلى البيت الذي يقطنه الولدان مع نجيب وعائلته. وهو غير البيت الذي وُلدتُ وإخوتي فيه، والذي بات اليوم خربة وقد انتقلت العائلة إليه قُبيل الحرب. وهو في حجمه أكبر من القديم مرّتين ويبعد عنه زهاء مائة متر.

Twitter: @ketab_n

ويمتاز عن القديم بأن له ثلاثة شبابيك، وبابين بقفلين من الحديد بدل الخشب؛ وبأن فيه المقاعد والكراسي والخزانات والمرايا. فهو «أغنى» من القديم بكثير. وهو منعزل عن البيوت. أمّا سطحه فمن التراب، شأنه في ذلك شأن الأكثريّة الساحقة من بيوت الضيعة.

ذلك هو العالم الذي عدتُ إليه بملء إرادتي من بعد أن خبرت عوالم كثيرة سواه. وكنت أعلم، قبل عودتي إليه، أنّه غير العالم الذي نزحت عنه من زمان. فلا بسكنتا هي هي. ولا الشخروب هو هو. ولا صنّين هو هو. لقد جرفت الأمطار والسيول آلاف آلاف الأطنان من ترابها إلى البحر؛ وفتّت الثلج والصقيع الكثير من صخورها، وبدّلت الفصول والظروف في نباتها وحاجاتها وفي نمط الحياة التي يحياها سكّانها. ولكنّها لم تبدّل شيئاً في زرقة سمائها، وطيب مائها وهوائها، ولألأة نجومها، وأنغام عصافيرها وأنسامها، وألوان أغساقها، ورقصة الأنوار والظلال على قممها وتلالها وفي بطون أغوارها.

كذلك كنت أعلم أن الذي عاد مني إلى هذه الأصقاع في أيار سنة ١٩٣٢ .

كذلك كنت أعلم أن الذي عاد مني إلى هذه الأصقاع في أيار سنة ١٩٣٢ هو غير الذي نزح عنها في تشرين الثاني سنة ١٩١١ . إلاّ أن السلك الخفيّ الذي أدعوه «أنا» والذي لا زال

Twitter: @ketab_n

يربط هذا العائد بذلك النازح هو المسلك الذي ما انفكّ يغريني بفتوحات لن تتاح لي إلاّ في خلوة طويلة هيّأتها لي هذه الجبال.

Twitter: @ketab_n

عهود تتجدّد

قبّلتُ زاوية الكوخ في الشخروب، وجذع البلّوطة الدهريّة القائمة أمامه، والتراب الذي تحتها، وجلست في ظلّها الظّليل ووجهي نحو صنّين، وعيناي وأذناي، وفكري وقلبي، ولحمي ودمي في نشوة من الفتنة والغبطة.

السماء أصفى من المرآة؛ والنسيم ألطف من همس الحبيب في المنام؛ وأشعّة الشمس المتكسّرة على بقع الثلج العالقة هنا وهناك بجبين صنّين جواهر ترتقص على كفّ ساحر؛ وزهر الوزّال[1] الذهبيّ ألسنة من نار تشبّ بين خضرة الشجر وبياض الصخور؛ وأغاريد العصافير الذاهلة عن كلّ شيء إلاّ عن أوكارها وصغارها تسابيح وتهاليل وقرابين؛ وأجنحة السنونو والخطّاف تحت أطناف شواهق الشخروب أقلام تخطّ بسرعة خاطفة أشياء وأشياء على صحيفة الهواء؛ وكركرة مياه نبع صنّين على بعد أمتار مني تهاويد ربّانيّة للأعشاب والصخور الغافية عن جانبيها، وللنفوس العطشى إلى السكينة والسلام والجمال كنفسي.

إنّني لفي ما يشبه الانخطاف من فرط ما انتثر فوقي وتحتي،

---

(١) نبات بري أغصانه كالمسلات، وأوراقه دقيقة جداً. أما عطره فقوي وزكي. وهو قلما يعلو عن الأرض فوق المترين.

Twitter: @ketab_n

وأمامي وخلفي من روعة وبهجة. حتى ليخيّل إليّ أنّ صنّين والشخروب والأرجاء المحيطة بهما قد تضافرت جميعها لتولم مثل تلك الوليمة لهذا الابن الشاطر الذي هجرها ثمّ عاد إليها، والذي «كان ميتاً فعاش. وكان ضالاً فوُجد». ويأخذني شعور كثيف، عميق، جارف أودّ معه لو أستطيع أن ألفّ كلّ ما تبصره عيني وتسمعه أذني بشغاف قلبي، وأن أطعمه من لحمي وأسقيه من دمعي ودمي اعترافاً بفضله عليّ. ولكنّه أكبر وأكرم من أن يطلب شكراناً وعرفاناً.

وبغتة يمرّ في خاطري أنّ هذه النشوة التي أنا فيها لن تدوم. فهي إلى الزوال. وإلى الزوال الأشياء والحواسّ التي ساعدت في خلقها. فتؤلمني هذه الخاطرة، وتفعل بي فعل الماء سكبته على النّار. إلاّ أنّني أعود فأقول في نفسي: أجل. الأشياء إلى زوال. والحواسّ إلى زوال. ولكنّ الجمال ليس إلى زوال. إنّه القيَم التي يستخلصها الروح من تفاعل الحواسّ والأشياء. وهذه القيَم هي «روح» الأشياء والحواسّ. أو هي روح الروح. وهي باقية ببقائه. فيا ويل الذين جمالهم إلى زوال، والذين روحهم بغير روح!

* * *

هربتُ في ذلك النهار من التشريفات التي تلازم استقبال المسلّمين والمهنئين وتوديعهم. فكان أوّل نهار أمضيته في

Twitter: @ketab_n

الشخروب بعد أوبتي. وقد آليت على نفسي أن أتفقّد كلّ زاوية من زوايا تلك البقعة العزيزة على قلبي - من قعر الوادي في الجنوب وحتى هامات الصخور السامقة في الشمال؛ وأن أسلك الشعاب التي سلكتها من زمان، وأن أبرّد يديّ ووجهي ورجليّ في مياه نبع صنّين كما كنت أفعل أيّام الصِّبا. وأنّى اتجهت كانت تواكبني شتى الرسوم والذكريات من الماضي البعيد فأحسّني كما لو كنت جمهرة من النّاس لا إنساناً واحداً، وكما لو كنت أعيش في عوالم كثيرة وليس في عالم واحد هو هذا العالم الصغير، الضيّق الذي يحتوي ما ظهر مني لعينيّ وعيون النّاس.

يكاد يكون الشخروب عين الشخروب الذي غادرته قبل عقدين من السنين. فما من جديد فيه غير طريق السيارات الذي يقطع القسم الأعلى منه، والذي شقّه أبناء بسكنتا حديثاً من البلدة حتى نبع صنّين؛ وغير بستان صغير من الفاكهة، وشجرة كستناء بديعة، وعدد لا بأس به من شجر الجوز، وعمارة من النحل جاءته بسعي أمّي وتدبيرها أيّام الحرب.

أمّا البستان فقد غرسه الوالد بعد سفري في خريف ١٩١١، فكان أحد ثلاثة بساتين مهّدت السبيل لاستثمار الفاكهة في منطقة صنّين، ومن بعدها في بسكنتا؛ وكان والدي

Twitter: @ketab_n

أوّل ثلاثة كانوا السبّاقين إلى غرس الفاكهة في هذه الأرجاء. ولقد أشاد بهم وبفطنتهم الحاكم الفرنسي الذي زار المنطقة في مستهلّ عهد الانتداب. إلاّ أن جنينة الشخروب ابتليت بضربة قاسية في شتاء ١٩٢٩ - ١٩٣٠ إذ تراكمت عليها الثلوج واشتدّ الصقيع إلى حدّ قلّما عرفته جبالنا، فهشّمتها تهشيماً، وتركت الجانب الأكبر منها أوتاداً تنوح على عزّها وخصبها وشبابها. ولقد أخبرتني الوالدة أن ثمار تلك الجنينة حفظت الرمق لكثيرين أيّام المجاعة. إذ انّها - وأعني الوالدة - لم تردّ يوماً جائعاً جاءها يطلب بعض التفاح أو الخوخ أو الكرز.

وأمّا عمارة النحل فقد كانت أهمّ تجديد أبصرته في الشخروب. وأهميتها عندي لم تكن في العسل الشهيّ الذي تنتجه على قدر ما كانت في أنّها ستوفّر لي الفرصة لمعاشرة النحلة ودرس غرائزها العجيبة عن كثب. فهذه الحشرة اللطيفة، النظيفة، العفيفة، الدؤوبة، الكريمة، والمنظمة في حياتها وحركاتها أبدع التنظيم، باتت تثير فضولي ودهشتي من بعد أن قرأت «حياة النحلة» لموريس مترلينك. ولعلّه يتاح لي أن أحدّثك فيما بعد حديثاً أطول وأجدى عن هذه المخلوقة المدهشة. أمّا الآن فحديثنا عن الشخروب، وعن أهله والأتعاب المضنية التي يبذلونها فيه، والغلّة الزهيدة التي يستدرّونها منه.

Twitter: @ketab_n

ما تمنّيت يوماً لو كان لي مال قارون أنفقه على الجاه واللذة والرفاهية. وتمنيت لو كان لي من الوفرة ما يسعفني على استصلاح الموات من أرض الشخروب، وعلى تمهيد الوعر منها، وتوفير ما تحتاج إليه من الماء للري، فحبّ التحسين والتجميل والتنظيم في دمي. وكذلك الرغبة في تخفيف الأعباء عن كواهل الكادحين وتيسير المعقّد من أمورهم أينما كانوا. فكيف بهم إذا كانوا في عقر داري ومن لحمي ودمي؟

إنّي أُحبّ التراب وكلّ ما ينبته. وأُحبّ البهائم ترعى أعشابه، والطير تصطاد حشراته، والنّاس يعملون فيه ليقتاتوا ببقوله وحبوبه وفاكهته. ولكنّني لا أُحبّ لرجل كوالدي، وقد بات على أعتاب الثمانين، أن يمضي في عمله حتى نهاية عمره. لقد آن له أن يستريح. ولا أُحبّ لفتي كأخي نجيب أن يقوم بالأعمال المرهقة التي يقوم بها في كلّ يوم منذ أوائل الربيع وحتى أواخر الخريف. فحبّة القمح وحدها يكلّف الحصول عليها في هذه الجبال ضروباً وضروباً من الهمّ والعناء. فزرعها من المشقّة بمكان، وكذلك العناية بها حتى تنضج، ثمّ حصدها باليد والمنجل، ثمّ حملها على الظهر إلى البيدر، ثمّ درسها أيّاماً على الثيران، ثمّ تذريتها بالمذراة، ثمّ تصويلها وتجفيفها، ثمّ نقلها ونقل ما أعطته من تبن على ظهور الحمير إلى البيت... إنّها لعمليّة طويلة،

Twitter: @ketab_n

معقّدة، لا تتمّ إلاّ بالكثير من عرق الجبين، ووجع الظهر، وكدّ العصب. ويا لفداحة الخيبة والخسارة إذا أمحل الزرع فلم يعوّض على الزارع غير البذار، أو أكثر من البذار بقليل!

ليس أدعى إلى الحزن والشفقة من تعب الفلاّح والعامل يذهب هدراً. فهذه الجذوع اليابسة من جنينة الشخروب المهشّمة يؤذيني منظرها كلّما وقعت عليها عيني. إنّي أُحبّ العمران ولا أطيق الخراب. فالخراب دليل القنوط والاستسلام والاندحار. وفي طبيعتي ما يأبى القنوط والاستسلام والاندحار. فلا بدّ من النهوض. ولا بدّ من السير إلى الأمام. لا بدّ من تجديد الجنينة في الشخروب، ومن غرس أشجار الفاكهة مكان أشجار التوت في البستان الذي نملكه في الضيعة. فالتوت قد بارت مواسمه ببوار موسم الحرير الطبيعي من بعد أن بات الحرير النباتي يزاحمه أشدّ المزاحمة. ومن ثمّ فقد آن لوالدتي أن تستريح من تربية دود القزّ المضنكة.

ولكنّ «العين بصيرة، واليد قصيرة». فما الحيلة؟ ومن أين المال لسدّ تكاليف التجديد الذي أبتغيه؟

وأسأل أخي عن تلك التكاليف فأرى أن لديّ بقيّة من المال لتغطيتها. فأجرة العامل كانت لا تزال نحو نصف الليرة اللبنانيّة في النهار. وأثمان النصوب الضروريّة كانت زهيدة. ولذلك أقدمت على العمل.

Twitter: @ketab_n

ونسيب؟

إنّه بات همّي الأكبر من بعد عودتي. فما خطر مرّة في بالي إلاّ انقبض قلبي. لقد نزلت وإيّاه إلى بيروت ليفحصه طبيب متخصّص. وكان رأي الطبيب أن ذهابه إلى مصحّ أجدى له بكثير من البقاء في البيت. فنقلناه إلى المصحّ حيث كنت وزوجته نزوره مرّتين في الأسبوع أو أكثر.

لا بأس يا ميخائيل. لا بأس إذا تراكمت عليك المشكلات والمسؤوليات. فهي لا تأتي إلاّ ومفاتيحها فيها. ولكن لقوم يحسنون التفتيش عن تلك المفاتيح، ويحسنون استعمالها. وما يبدو للنّاس مشكلات ليس كذلك في نظر النظام السرمدي، الكامل، الشامل الذي تؤمن به. إنّه بعض من نظامه. وعليك أن تتفهمه بعقلك وقلبك وروحك.

ومفتاح أي مشكلة في أنّها لا تأتيك عفواً واعتباطاً. بل تأتيك لأنّك جلبتها لنفسك بأشياء عملتها وفكّرتها ونويتها واشتهيتها؛ وتأتيك لتمتحن إيمانك بالنظام، ولتردّك إليه كلّما انحرفت عنه. فهي لك المربّي والنذير والبشير في آن معاً. وما عليك، إذا أنت شئت أن تخلص من المشكلات، إلاّ أن تطهّر عينيك وأذنيك ويديك، وفكرك ونيّتك وقلبك من كلّ ما من شأنه أن يحرفك عن النظام فيخلق لك المشكلات.

Twitter: @ketab_n

وحسبك أنّك اليوم في دنيا يساعدك سلامها وهدوؤها وجمالها على التطهّر والتفهّم. وكنت حتى أمس القريب في دنيا كلّها شغب وصخب وشهوات عنيفة تستعر بغير انقطاع. فاعتصم بحكمة النظام الكليّ وعدله وجماله يا ميخائيل. وافتح أبواب عقلك وقلبك وروحك لبوارق إرشاده وإلهامه.

Twitter: @ketab_n

ولادة جديدة

بعد عودتي بأسبوعين رأت بسكنتا أن تستقبلني استقبالاً جماعيّاً فتقيم لي حفلة تكريميّة. وكان من حسن ذوق المكلّفين بترتيب الحفلة أن أقاموها في البهو الكبير من المدرسة الروسيّة التي فيها تلقّنت دروسي الابتدائيّة، والتي باتت تديرها جمعيّة أرثوذكسيّة محليّة. وقد مضى على مغادرتي إيّاها ثلاثون عاماً بالتمام.

وقفت في ذلك البهو الذي ضاق، على سعته، بالمحتشدين فيه ونفسي تتقاذفها تيارات كثيرة من الذكريات والانفعالات. ففي أرض هذه البناية، وفي جدرانها وسقفها آثار مني يلتقطها خيالي ولا تلتقطها عيني وأذني - آثار من صورتي، ومن صوتي، ومن وقع قدميّ، ومن أحلامي وآلامي أيّام كنت صبيّاً. وفيها آثار من الذين رافقوني، والذين علّموني. ومن هؤلاء من بات اليوم خلف ستار المحسوسات. ومنهم مَن لا يزال يتنفّس أنفاس هذه الأرض. وبعضهم بين الذين يحتفلون بعودتي.

وما من شكّ في أن الذين جاؤوا للترحيب بي لم يجيئوا لأنّهم قرأوا لي أشياء كتبتها فاستساغوها وأُعجبوا بها. فمن الأكيد أنّهم، إلاّ حفنة منهم، لم يقرأوا كلمة واحدة ممّا كتبت.

Twitter: @ketab_n

لكنّهم سمعوا أن هذا الرجل الذي يحتفون بعودته قد فعل «شيئاً ما» استحقّ عليه تكريمهم واهتمامهم. وذلك «الشيء» لم يكن من النوع الذي اعتاد رجالهم ونساؤهم ركوب البحار في سبيل الحصول عليه. إنّه لمن نوع جديد. وكيفما كان الأمر فقد كان يغريهم أن يعرفوا شيئاً عن ذلك «الشيء». وعلى الأخصّ لأنّهم كانوا يعرفون البيت الذي فيه نبت هذا المغترب، ويعرفون أباه وأمّه وإخوته؛ ويعرفون شخروبه. ولذلك كان يشوقهم أن يبصروه بلحمه ودمه، وأن يسمعوه لعلّهم يعرفون السبب الذي من أجله استحقّ تكريمهم.

أمامي رجال ونساء بينهم المعلّم والطالب، والطبيب والمحامي، والتاجر ورجل الدين. ولكنّ معظمهم من العاملين في الأرض. والعاملون في الأرض كانوا، وما برحوا، أقرب النّاس إلى قلبي، وأحقّهم باعتباري ومحبّتي وإجلالي، لأنّهم أنفع النّاس، وأقلّهم حظوة وتقديراً في عيون النّاس. فعليّ أن أظهر لهم بالغ اعتباري وتقديري ومحبّتي، وأن أُظهرهم كباراً في عيني لعلّهم يكبرون في عيون أنفسهم؛ ثمّ أن أُبيّن لهم جانباً من النِّعم التي أسبغتها عليهم الحياة في هذه الجبال وهم يكادون لا يعرفون لها قيمة. وهكذا خاطبتهم بقولي:

«يا أبناء بسكنتا - يا لحمي ويا دمي!»

Twitter: @ketab_n

ومضيت في الحديث فقلت:

«منذ عشرين سنة أدرت وجهي إلى البحر وظهري إلى صنّين. واليوم صنّين أمامي والبحر ورائي. وأنا بين الاثنين وكأنّي في عالم جديد، وكأنّي وُلدت ولادة ثانية.

«ما أنا بالنبي يصنع العجائب. غير أنّي منذ عدت إليكم والعجائب تكتنفني. فكأنّني في عالم مسحور. أنظر إلى الجبال التي كنت أتسلّقها فإذا بها تتسلّقني. وإلى الأودية التي كنت أهبط إليها وإذا بها تهبط إلى أعماقي. وإلى البساتين والكروم والحقول التي كنت أتمشى فيها وإذا بها تتمشى بين حنايا ضلوعي، وكأنّ كلّ غرسة فيها غُرست في داخلي، وكلّ يدٍ تعمل في تربتها تعمل في تربة نفسي.

«أكاد لا ألمس حجراً إلاّ تفجّرت منه سيول من الطهر والجمال. أكاد لا أسمع زقزقة عصفور إلاّ سمعت فيها أجواقاً من الملائكة ترنّم بصوت واحد: «قدّوس! قدّوس! قدّوس!» أكاد لا أرفع بصري إلى نجم إلاّ تدلّت منه سلالم سحريّة. هي سلالم المحبّة التي تربط كلّ ما في السماء بكلّ ما على الأرض...

«لقد كان لي عندما غادرت هذه الربوع أب واحد وأمّ واحدة. واليوم أينما وقعت عيني على أبٍ، أبصرتُ فيه أباً لي. وحيثما التقيتُ أُمّاً على صدرها طفل رأيتني ذلك الطفل، ورأيت

Twitter: @ketab_n

في أمّه أمّي. لقد كان لي مسكن واحد. واليوم لي في كلّ بيت من بيوتكم مسكن. فما أكرم ربّي الذي يسّر لي التمتّع بهذه النعمة. وما أطيبكم تحسبونني أهلاً لها!»

ثمّ رحت أحدّثهم عن الغربة والاغتراب فقلت أن «لا غربة في الكون على الإطلاق إلاّ غربة الإنسان عن ربّه - غربة الإنسان عن نفسه». وأردفت بقولي:

«كلّ ما تسمعونه عن التغرّب لكسب المعالي والثروة والفخار ليس إلاّ قبض الريح... فما هي المعالي التي من أجلها يستطاب ركوب البحار واقتحام الأخطار؟ أهي أن تصبح على رأس جبل وجارك في واد لا سلّم يرقى به إليك وتنزل به إليه؟ وما هو الفخار؟ أهو أن يشقى جارك ليبتاع بخوراً يحرقه أمامك وأن تنعم أنت ببخوره وشقائه؟ وما هي الثروة؟ أهي أن تشبع وجارك جائع، أو أن تلبس الحرير وهو عريان؟ صدّقوني أن لا راحة في ذلك ولا سعادة».

وشئت أن أبيّن لهم قدسيّة العمل وجماله وجلاله فرويت لهم الحكاية التالية:

«قالت لي إحدى النسوة اللواتي جئنني مسلّمات عندما وضعت يدها في يدي: يا عيْب الشوم منّك. ديّاتي مخشبرين. - فأجبتها: بل يا عيب الشوم منك. ديّاتي ناعمين. - وعجبت

Twitter: @ketab_n

لزمان تعتذر فيه اليد التي تعطي إلى اليد التي تأخذ. أقول لكم إنّ كلّ يد خشّنها العمل تصافح يد الله وتشاركها في توليد خيرات الأرض. والذي يخجل بها إنّما يخجل بربّه. في حين أن الكثير من الأيدي الناعمة قد لا يصافح إلاّ يد إبليس.»(١)

في هذه الخطبة، وفي جميع ما ألقيته بعدها من خطب في شتى المناسبات وشتى الأندية والمعاهد ما بين لبنان وسوريا وفلسطين، كنت أحرص منتهى الحرص على أن لا يفوه لساني إلاّ بما يفيض به قلبي وفكري. فلا أتصنّع، ولا أمالىء، ولا أُداجي أو أُجامل. حتى إنّي لم أتوجّه مرّة إلى السامعين بالنداء المبتذل: «سيداتي. سادتي!»

وإنّي لأذكر في هذه المناسبة ما وقع لي مرّة في دمشق يوم دُعيت إليها لإلقاء الخطبة الرئيسيّة في احتفال كان من المنتظر أن يحضره رئيس الجمهوريّة يومذاك. فجاءني إلى الفندق الوفد الذي كان عليه أن يرافقني إلى مكان الاحتفال. وإذا برئيسة يخاطبني باهتمام واحتشام فيقول:

– العادة عندنا يا أستاذ، في حضور رئيس الجمهوريّة، أن يتوجّه الخطيب إليه وحده دون باقي النّاس فيبتدئ كلامه بقوله: «يا صاحب الفخامة!» قلت:

---

(١) انظر خطبة «صنين.والدولار» في كتاب «زاد المعاد» للمؤلف.

Twitter: @ketab_n

- إذن خير لكم أن تستغنوا عني.

فانذهل الرجل ومَن معه لجوابي وقال متلعثماً:

- أنت تمزح من غير شك يا أستاذ.

- بل أقول الجدّ كلّ الجدّ.

- ألهذا الحدّ؟

- أجل. لهذا الحدّ.

- وأيّ بأس عليك إذا أنت خاطبت رئيس الجمهوريّة بقولك: «يا صاحب الفخامة»؟

- لست أريد أن أهين نفسي، وأهينه، وأهينكم وباقي السامعين.

- وأين الإهانة؟ إنّني لا أفهم.

- وأنا لا أفهم ما هي «الفخامة»، ولا كيف يكون إنسان واحد ذا فخامة، ولا نكون أنا وأنت وباقي النّاس ذوي فخامة. لعلّك يا صاحبي أفخم في نظري من «صاحب الفخامة». فكيف تريدني أن أسخّر لساني ليتلفّظ بكلمات لا يقبلها عقلي، ويمجُّها ذوقي، وينفر منها فكري؟ وأنا رجل بين لسانه وعقله وذوقه وفكره ترابط وتجانس، ومواثيق بأن لا يخدع الواحد الآخر.

وانتهى الجدل بأن رضخ الوفد ورئيسه، وبأنّ «يا صاحب الفخامة» لم يكن لها من خطبتي أيّ نصيب.

Twitter: @ketab_n

ضربت - ولا أزال - على الوتر عينه في العديد من خطبي ومقالاتي وإذاعاتي. ولكنّ القوم في هذا الشرق - شرقنا - لا تزال تستهويهم النعوت الكاذبة والألقاب المزيّفة ولا استهواء الدمية للولد الصغير. فكأنّهم، من حيث نضجهم الروحي، لا زالوا في طور الطفولة. أو كأنّ الذل قد تمكن من نفوسهم إلى حدّ أن استئصاله بات أصعب من استئصال السرطان. حتى المثقفون منهم يستميتون في الركض وراء وسام أو أيّ إشارة أو لقب يتميّزون بها من عامّة النّاس. وعامّة النّاس تتنافس في تقديم إكبارها وإجلالها لتلك الشارات والألقاب، وفي تحقير نفسها بالنسبة إلى حامليها.

بعد حفلة بسكنتا بأيّام نبتت لي حفلة تكريميّة ثانية. وكانت الحفلة في «مسرح الأمبير» ببيروت وبدعوة من جمعية كانت تدعى «جمعيّة التضامن الأدبي». وكانت الصحف قد مهّدت لها بنشر نبذة من حياتي ومقتطفات من نظمي ونثري. وقد قيل لي يومئذ إنّ عدد الحضور كان في جوار الألفين. وفي هذه الحفلة كذلك شئت أن أنقل إلى السامعين بعضاً من شعوري: إفلاس المدنيّة الغربيّة التي دعوتها «مدنيّة الآلات والأزمات»[١] وبعضاً من إيماني بحيويّة الرسالة التي حملها

(١) انظر «زاد المعاد».

Twitter: @ketab_n

الشرق إلى العالم بلسان معلّميه وأصفيائه، ثمّ بعضاً من نشوتي بفتنة الجمال والسلام المخيّمين في جبال لبنان. فقلت لهم من بعد أن حدّثتهم عن الضائقة الماليّة والاقتصاديّة التي كانت تتخبّط فيها الولايات المتحدة في ذلك الزمان:

«ما تلك بنكبة الولايات المتحدة وحدها. إن هي إلاّ نكبة العالم أجمع. إنّها نكبة مدنيّة رأسها في جيبها، وقلبها في معملها. فإن أنت شددت على جيبها شددت على خناقها. وإن أنت أقفلت أبواب معملها أقفلت أبواب قلبها...

«ويل للإنسان يخترع الآلات لتكثير خيرات الأرض. وإذ تكثر خيراته تكثر غصّاته. ويل له يجدّ وراء الراحة. وإذ يجدها لا يعرف كيف يستغلّها، فيقدمها ذبيحة لإبليس. ويل له يستنبط الحيَل لتقصير المسافات فيبقى حيث هو. فلو أنّه اتخذ جناحين ليطير بهما من البغض إلى المحبّة، ومن الشقاء إلى السعادة، لقلنا: بارك اللّه في جناحيه. ولكنّه يحمل في الجوّ كلّ ما يحمله على الأرض من بغضٍ وحسد ومطامع وهموم وأوهام. فلا فرق إذ ذاك أَقَطع ألف ميل في الساعة أم ميلاً واحداً. فالمسافة بين ما يعرفه من نفسه وما يجهله هي هي...

«إنّكم تفاخرون كلَّ المفاخرة بتاريخ بلادكم. فتدعونها «مهد الأنبياء». ولكن ما نفعكم من هذا المهد وقد أصبح اليوم

Twitter: @ketab_n

عُشّاً طار منه فراخه؟ ما نفعكم من أنبيائكم ما لم يشعّ نورهم في قلوبكم؟ لقد دفنتموهم في بطون الكتب وفي ظلمات المعابد. ويا ليتكم تدفنونهم في قلوبكم. لقد علّمكم أنبياؤكم أن تتعرّوا أمام الحقّ فتمثلوا لديه لا رفعاء ولا وضعاء. بل أبناء تساووا بما لهم وما عليهم. وها أنتم تنتقون من بينكم أفراداً فتخلعون على البعض جبّة «الفخامة»، وعلى الآخر «العطوفة»، وعلى الثالث «السعادة». فكأن مَن بقي منكم ليسوا إلاّ خشارة الحياة. وهكذا تُسكنون الذلّ في قلوبكم وشفاهكم تطلب الرفعة. وتبنون أعشاشاً للعبوديّة في أرواحكم وألسنتكم تتغنّى باسم الحريّة. ألا كفى الإنسان مجداً أنّه إنسان.

«كذلك سمعتكم تقولون: بلدنا بلد طيّب المناخ، جميل الوجه. ولكنّه فقير.

«ألا خبّروني ما هو الفقر؟ أهو الفقر أن تكون لك عزيمة تفتق من الصخور عنباً وزيتوناً وقمحاً؟ أهو الفقر أن تشرب الماء القراح وتنشق الهواء المعطر؟ أهو الفقر أن تفترش الأرض وتلتحف السماء، وأن تقاسمك العافيةُ فراشك ولحافك؟ أم هو الفقر أن تأكل رغيفاً معجوناً بعرق جبينك ومخبوزاً بنار إيمانك بدلاً من أن تأكل رغيفين معجونين بدم قريبك ومخبوزين بنار بغضائه وألمه؟

Twitter: @ketab_n

«وما عساني أقول في جمال هذا البلد الذي ترونه فقيراً؟ إن لم يكن له من بحره وجباله إلاّ جمالها لكفاه ثروته. إنّه لمن السهل أن تحدّد ثمن ذراع من الحرير أو رطل من البصل. أمّا هياكل الصخور التي تحجّ إليها الرياح والنسور؛ والتلال الحاملة على ظهرها الصنوبر والسنديان والريحان؛ والأودية العابقة بأنفاس السلام؛ وملاءة النسيم السحريّة التي تنخل لك من نار الشمس نوراً وبلسماً - أمّا كلّ هذه وسواها من نوعها فكيف تثمّنها؟»

ثمّ حدّثت السامعين حديثاً قصيراً عمّا زوّدنيه البحر وصنّين فقلت:

«أمّا البحر فعلّمني أن الحياة متلاصقة بعضها ببعض تلاصق القطرة بالقطرة والموجة بالموجة... وعلّمني البحر أنّه لا يزيد ولا ينقص لأنّه يعطي من نفسه بدون حساب. فلا أزمات فيه على الإطلاق. وأنّ ما يتصارع على وجهه من الموج يصرع أبداً ذاته، ولا يترك سوى الزبد والعجيج. أمّا في الأعماق فلا صراع ولا زبد ولا عجيج. بل سكينة أبديّة.

«وأمّا صنّين فعلّمني كيف أزجّ بمدنيّة الآلات والأزمات في شقّ صخر من صخوره. وكيف أخنق زفراتها بزقزقة عصفور. وأطهّر أنفاسها بعبير زهرة. وأقف عرياناً في حضرة الفنّان الأكبر، فأرقب يده تنحت من الصخور تماثيل يترنّح بمنظرها قلبي.

Twitter: @ketab_n

وتنقش في الحقول رسوماً تتجنّح بجمالها نفسي. فأصبح وكأنّني الفنّان وكلّ ما أبدعته يداه.»

وختمت حديثي بالنداء التالي:

«يا أبناء بلادي! لا يبهرنّكم برق يلعلع في عيون المدنيّة الغربيّة. إنّه لبرق خُلّب. ولا يهولنّكم رعد يزمجر في صدرها. إنّه لحشرجة الموت. ولا يحزننّكم أنْ لا عَلَم لكم يخفق في مقدّمة أعلام الأمم. فإنّني لست أرى بين تلك الأعلام ولا واحداً لا أثر فيه للدم والاغتصاب والتهويل والإرِهاب...

«بلادكم بلاد عمل وسلام. فليكن ما تضيفونه إلى خزانة البشريّة لا دبّابات ولا مدرّعات، بل عملاً مثمراً وسلاماً منعشاً. بلادكم بلاد وحي وجمال. فليكن ما تقدمونه لإخوانكم النّاس وحياً وجمالاً. وليكن عَلَمكم عَلَم نور - علم هداية - علم محبّة!»

Twitter: @ketab_n

ناسك الشخروب

انتقلت العائلة في ذلك الصيف، على عادتها في كلّ صيف، إلى الشخروب. فكان لا بدّ لي من خلوة غير الكوخ أنصرف فيها إلى التأليف والتأمّل. ولذلك بنيت لي خيمة من أغصان الشجر في فسحة من الأرض تكتنفها الصخور العالية في القسم الشمالي من الشخروب. وصنعت لها بيدي طاولة صغيرة للكتابة ومقعداً. وكنت قد آليت على نفسي في الفترة الأولى بعد عودتي أن لا أطالع الصحف السيارة لئلاّ تشوّش عليّ أخبارها صفاء عزلتي وتفسد عليّ تأمّلاتي.

في تلك الخيمة كنت أصرف نهاري فلا أنحدر إلى البيت إلاّ في أوقات الأكل والنوم، وإلاّ لاستقبال زائر، أو لمساعدة أبي وأخي في أعمال الحقل على قدر طاقتي إذا لم يكن لديّ أعمال كتابيّة. فقد كنت أجد أكبر اللذة في فري السنابل بالمنجل، وفي أعمال البيدر، وفي ريّ المزروعات الصيفيّة من مياه نبع صنّين، وفي رعي بقراتنا وسوقها إلى موارد الماء. ولكن إلى حدّ جدّ محدود. فقدرتي البدنيّة ما كانت تساعدني على القيام بمثل تلك الأعمال إلاّ على سبيل الرياضة والترويح عن النفس. ولَكَم كان يَعجب أهل الجوار وعابرو السبيل من أبناء بسكنتا كلّما رأوا

Twitter: @ketab_n

منجلاً أو مذراة أو مجرفة في يد هذا الرجل الذي كان موضوع تكريمهم منذ أيّام. أو رأوه يسوق بقرات إلى المرعى أو إلى الماء. أمّا أنا فكان يسرّني أن أبيّن لهم بالفعل والقول عظيم محبّتي للأرض وجميل تقديري للعاملين فيها، وصدوفي عن الكثير من الأساليب المشبوهة التي يرتزق بها أهل المال والسياسة والجاه والسلطان. لقد كنت أريد لهؤلاء النّاس الذين ينفقون حياتهم في معاشرة التراب والبهيمة أن لا يعتبروني بعيداً عنهم، أو أرفع منهم، بل شريكاً لهم في أعمالهم.

اتّفق لي ذات مساء أن كنت مع البقرات بالقرب من الطريق. وإذا شابّ يحمل في يده حقيبة ويجدّ في السير، فلا يصبح على محاذاتي حتى يتوقّف ليسألني إذا كان لا يزال بعيداً عن الشخروب. فأجبته:

- أنت الآن في الشخروب.
- وأين بيت الأستاذ نعيمه؟
- على بعد مئتي خطوة من هنا.
- أتعلم إذا كان هو اليوم في الشخروب؟
- نعم. في الشخروب.
- أتظنّني أستطيع أن أراه؟ لقد جئت من بعيد. وجئت ماشياً من بسكنتا إلى هنا إذ لم أوفّق إلى سيارة.

Twitter: @ketab_n

- لا تزال الرِّجل والحافر أقرب المواصلات بين بسكنتنا وهذه المنطقة. أمّا السيارات فقليلة ولا تأتي إلى هنا إلاّ بطلب خاصّ وبأجر كبير. ومن أين أنت قادم؟

- من صافيتا في سوريا.

- جئت خصيصاً لتقابل ميخائيل نعيمه؟

- أجل، خصيصاً. وأرجو ألاّ تفوتني مقابلته.

- إنّه أمامك.

وجحظت عينا الشابّ وظنّ أنّني أهزأ به. إذ لم يكن يقدّر أنّ راعي البقر الواقف أمامه يمكن أن يكون ميخائيل نعيمه الذي قرأ له وعنه. ولكنّه عندما رأى الابتسامة على وجهي عاد فقال متلعثماً:

- أنت؟!.. أنت هو؟ وترعى البقر؟!

- وعلامَ لا؟ ما أظنّك تخجل بالحليب واللبن واللّبنة والجبن والزبدة والقشدة على مائدتك. فكيف تخجل بأن تسوس البقرة التي منها هذه البركات؟

استبقتُ الحوادث فرويت لك هذه الحكاية التي لم تحدث في الصيف الذي أحدّثك عنه، بل في الصيف الذي تلاه. وما ذلك إلاّ لأنّها تصلح تمهيداً للفصل الذي أنا بصدده.

في أوّل صيف أمضيته في الشخروب بعد عودتي إليه جاءني عصر يوم من الأيّام فتًى قدّرت له من العمر نحو العشرين.

Twitter: @ketab_n

ولم يكن يحمل في يده غير محفظة صغيرة للأوراق. ومن بعد أن سلّم سلاماً فيه الكثير من الحرارة والشوق ذكر لي اسمه. وكان اسمه توفيق عوّاد. ثمّ لم يلبث أن أضاف:

- هذا الاسم لا يعني لك شيئاً، بالطبع. - قلت:

- لا. لست أذكر أنّني سمعته من قبل. - قال:

- ولكن بينك وبين صاحبه صلة. ولك عليه أكبر الفضل.

قلت، وقد حاولت عبثاً أن أجد للاسم أيّ أثر في ذاكرتي:

- هلاّ أخبرتني عن تلك الصلة متى وكيف نشأت، وعن ذلك «الفضل» من أيّ نوع هو؟

- أتذكر أنّ كاهناً يدعى الأب روفائيل نخله من الكليّة اليسوعيّة في بيروت كتب إليك مرّة - أو مرّات - إلى نيويورك؟

- نعم. أذكر الاسم. وأذكر أنّه ترجم لي ولغيري من رجال «الرابطة» بعض الشعر والنثر إلى لغة «الإيدو» - وهي من طراز «الاسبرانتو» - وأنّه أرسل إليّ نسخة مطبوعة من ترجماته.

- ولا تذكر غير ذلك؟

- بلى. فقد بعث إليّ مرّة بثلاث قصائد عربيّة في موضوع «الأمّ». وكانت القصائد لثلاثة من تلاميذه لم يذكر لي أسماءهم. وقد طلب إليّ أن أُبدي له رأيي في ما أتوسّمه من استعدادات شعريّة عند كلّ من أصحاب القصائد الثلاث.

Twitter: @ketab_n

- أتذكر جوابك؟

- أجل. أذكر أنّني انتقيت واحدة من تلك القصائد وقلت فيها إن ناظمها يملك شرارة الشعر.

- ذلك الجواب - جوابك - حفظته عن ظهر قلب وما زلت أحتفظ بنسخة منه. فقد تلاه المعلّم علينا في الصف. وما أن سمعته حتى ضاق بي جِلدي، وضاق الصف، بل ضاقت الأرض. لقد كِدت أطير من فرحي. فالقصيدة التي توسّمتَ في صاحبها خيراً كانت قصيدتي.

قلت: أرجو أن تتحقّق نبوءتي[1].

بات الرجل ليلته معي في الخيمة التي كنت أقمتها على سطح الكوخ خصيصاً للمنامة. وقد غلّفتها بالخيش ووضعت فيها سريرين من ألواح الخشب. ولأنّه شاعر وربيب القرية اللبنانيّة فقد أحسّ أعمق الإحساس روعة اللّيل في جوار صنّين، حيث النجوم تبدو كما لو كانت في متناول اليد، وتبدو أكثر عدداً وأشدّ ألقاً منها في السواحل والمدن؛ وحيث السكينة، يزيد في رهبتها خرير

---

(١) ولقد تحققت. فتوفيق عواد نظم فيما بعد شعراً يجيش بالحرارة والحياة. ولكنه انصرف عن الشعر إلى القصة. فأجاد فيها. ثم انصرف، ويا للأسف، عن الأدب إلى العمل الدبلوماسي في وزارة الخارجية. ومن آثاره القصصية البارزة رواية «الرغيف» ومجموعتان من الأقاصيص بعنوان «الصبي الأعرج» و «قميص الصوف».

Twitter: @ketab_n

الماء، وحفيف الأوراق، ونشيد صرّار الليل، أو نداء بومة تحسبه صوتاً من الأبديّة.

ولكَم كنتُ، وأنا ملقى على سريري في تلك الخيمة، والنسيم اللطيف، الطاهر، البارد يتزحلق على وجهي، ويداعب الأهداب في أجفاني والشعر على رأسي، أعود بالذكرى إلى شتى الأوجار التي كانت مسكني ومرقدي في نيويورك. فأقابل بينها وهذه الخيمة. ويتولاّني الشعور بأنّ الذي يسّر لي هذه النعمة كان كريماً معي فوق ما أستحقّ. ففيض من الطهر ونور الشمس في النهار؛ وبحر من السكينة والسلام في الليل؛ ومدّ بغير نهاية من الأحاسيس التي لا أثر فيها لأيّ من شهوات البطن والظهر، ولا لأيّ شكّ، أو حقد، أو بغض، أو طمع في ثروات النّاس وأمجادهم. وكلّ ذلك دونما مقابل - بالمجّان، ولوجه اللّه الكريم، وعلى مدى ستّة شهور لا خوف فيها من المطر، ولا من الحرّ والقرّ!

في الصباح الباكر انحدرت بزائري إلى وادي الشخروب حيث استقبلنا بزوغ الشمس من فوق صنّين. وانقضى النهار في أحاديث تناول معظمها شؤون الفكر والأدب. أمّا نتيجة تلك الزيارة فكانت «ريبورتاجاً» طويلاً كتبه توفيق عوّاد ونشره في أكثر من عدد من جريدة كانت تدعى «البرق» وكان صاحبها الشاعر

Twitter: @ketab_n

بشاره الخوري. وقد توّج الكاتب مقاله بعنوان: «ناسك الشخروب».

ويبدو أنّ اللقب الذي خلعه عليَّ توفيق عوّاد قد لاقى رواجاً عند الكثير من الألسنة والأقلام حتى بات من النّادر أن يكتب عني كاتب أو يحدّث محدّث إلاّ قرنه باسمي. وبات الكثير من القرّاء يتخيّلني ناسكاً في صومعة، أو متوحّداً في كهف، يتهرّب من النّاس إلى حدّ أن يتعذّر وصولهم إليه. ولعلّ ذلك ما حدا بمجلّة «الهلال» بعد سنين أن تطلب إليّ الكتابة في موضوع «لماذا اعتزلت النّاس». وإليك بعض ما قلته في ذلك المقال:

«عدتُ (من أميركا) وفي أذنيّ ضجيج مدنيّات لا تحصى، وفي رأسي براكين من الأفكار، وفي قلبي حنين إلى عزلة أستطيع أن أطهّر فيها أذنيّ من الضجيج، وأفرّج عن رأسي ممّا فيه من براكين، وأبرّد بعض ما في قلبي من الشوق والحنين. وكان الشخروب كريماً معي إلى أقصى الحدود. فما ضنّ عليّ بالعزلة التي كنت أنشد. بل فتح لي قلبه وذراعيه. فرحت أمضي معظم نهاراتي في كهف من كهوفه. فساعات للتأمّل، وغربلة الماضي، وتعرية النفس، وفتح كوى الروح لنور اللّه. وساعات للتأليف. وهل التأليف غير مكالمة النّاس؟

Twitter: @ketab_n

«... لا هجرت النّاس ولا هجرني النّاس. بل إن بيتي مثل قلبي - مفتوح لهم صيف شتاء، وليل نهار... وأن أتحدّث إلى إنسان عيناً لعين ووجهاً لوجه لخير من أن أتحدّث إليه بالحبر والقرطاس. وأن أكسب معرفة إنسان لأفضل من أن أكسب إعجابه. فالوقت عندي ليس من ذهب. وأن أفرّج كربة مكروب، أو أن أفتح كوّة للنور والإيمان والأمل في نفس تكتنفها ظلمات الشكّ والقنوط لأثمن عندي من كلّ ما في أديم الأرض من ذهب وحجارة كريمة.

«إلاّ أنّني في علاقاتي مع النّاس، حريص كلّ الحرص على عزلتي. فالعزلة حاجة في نفسي مثلما الخبز والماء والهواء حاجة في جسدي. ولا بدّ لي من ساعات أعتزل فيها النّاس لأهضم الساعات التي صرفتها في مخالطة النّاس. أمّا أن أغرق مع النّاس إلى ما فوق أذنيّ في رغوة مشاكلهم الزمنيّة؛ وأمّا أن أشغل لساني بالهذر والثرثرة كما يشغلون ألسنتهم في مجتمعاتهم؛ وأن أتصنّع الفرح في أفراحهم وأتكلّف الحزن في أتراحهم؛ وأن أتحزّب لما يتحزّبون أو أتحمّس لما يتحمّسون من مذاهب سياسيّة واجتماعيّة وسواها؛ وأن أسكر بأمجادهم وأتورّم بأورامهم فأمر لا أطيقه ولا أستطيعه. ذلك لأنّ لي هدفاً من الحياة غير أهدافهم...»[١].

(١) «لماذا اعتزلت الناس» في «صوت العالم».

Twitter: @ketab_n

القرش والقلم

جيبي يوشك أن يفرغ من النقود. وأخي في المصحّ تتدهور حالته من يوم إلى يوم. فقد قال لي الطبيب المولج بمعالجته إن داءه من النوع الذي يعدو عدواً. أي أن جراثيمه تتكاثر بسرعة هائلة، وما من عقار معروف يجدي في مكافحتها. وقال: إن الرئة اليسرى تكاد تنقطع عن العمل. أمّا اليمنى فلا تزال سليمة. والطبّ، في مثل هذه الحالة، ينصح بتعطيل الرئة العليلة قبل أن تتسرّب العدوى منها إلى السليمة. قلت:

- وهل يستطيع الإنسان أن يعيش عيشة طبيعيّة برئة واحدة؟

- يستطيع أن يعيش، ولكن بالكثير من المداراة والوقاية. والمثل يقول: الكحل خير من العمى.

عندما أطلعت أخي على ما قاله لي الطبيب أجابني من غير أن يرفّ له جفن، ومن غير أن يبدو على وجهه وفي صوته أقلّ اضطراب أو وجل:

- وُلدت برئتين. وأوثر أن أموت برئتين على أن أعيش برئة واحدة.

هذا الجواب الهادئ، الحازم، الرصين أثار إعجابي برجولة

Twitter: @ketab_n

أخي. فانحنيت فوقه وقبّلت جبينه، وأنا أجاهد قلبي مخافة أن تصعد الدمعة التي فيه إلى عيني. ولم أجد ما أقوله غير كلمتين فاترتين:

- الحقّ معك.

إن هذا الرجل ليس في حاجة إلى التشجيع والتعزية. بل لعلّني أحوج إلى تشجيعه وتعزيته منه إلى تشجيعي وتعزيتي. فأنا، وإن آمنت أعمق الإيمان بحكمة الحياة ونظامها وعدلها في كلّ ما يبدر منها، لا أستطيع أن أنظر ببرودة ولا مبالاة إلى هذا الهيكل البديع الذي هو أخي تقوّض أركانه جرثومة تافهة لا تبصرها عيني، ولا حيلة لي في مكافحتها، وفي تعمير ما تخرّبه، وتجديد ما تتلفه. وبتقويضها ذلك الهيكل تقضي على كلّ ما عشّش فيه من آمال الشباب العِذاب، وتزعزع أركان هياكل أخرى ترتبط به أوثق الارتباط. ومنها الهيكل الذي هو أنا.

لو أنّني رأيت صِبية يبنون أبراجاً من الرمل أو الطين ثمّ يهدمونها ويبعثرونها، هذا بيده، وذاك برجله، والآخر بعصاً أو حجر، لقلت: إنّه لطيش الصِّبا وعبث الصغار لا يعرفون كيف ينفقون ما فاض من حيويتهم في أعمالٍ تعود عليهم وعلى غيرهم بالخير والبركة. ولكنني عندما أُبصر الحياة تبني كوكباً، أو جبلاً، أو أرزة، أو نسراً، أو حوتاً، أو أسداً أو أي شيء من الأشياء

Twitter: @ketab_n

المنظورة، ثمّ لا تلبث أن تهدم ما تبني أقف وفي رأسي ألف سؤال وسؤال. فكيف بي أُبصرها تبني إنساناً بناء في غاية الروعة من حيث هندسته، ومن حيث المحركات العجيبة التي تدفعه أبداً الى التفكير والسعي والشوق إلى السعادة والكمال، ثمّ لا تستنكف من أن تولم منه وليمة للجراثيم والديدان؟..

ويا ليت الحياة عندما تبني إنساناً ثمّ تهدمه تكتفي بالهدم دون الألم. أو تفسح للإنسان من الوقت ما يجعله يشعر بأن هدمه بات خيراً له من بقائه. كأن يبلغ الإنسان من العمر عِتيّاً. ولكنها تهدمه أحياناً وهو في المهد، وأحياناً وهو في ميعة الشباب. وهي تفتنّ منتهى الافتنان في توجيعه وتعذيبه إذ هي تهدمه. فقلّما مات إنسان دونما وجع. وقلّما تشابهت ميتتان كلّ التشابه. فما الحكمة في كلّ ذلك؟

أقول «الحكمة» ولا أعني غير الحكمة. لأن تأمّلاتي المستمرّة في ظواهر الحياة وبواطنها قادتني إلى اليقين بأنّ الحياة - في أساسها - نظام. وأن ما من شيء ضمن ذلك النظام يحدث اعتباطاً وارتجالاً. وأن وراء الولادة والموت، واللذّة والألم، والتنوّع الهائل في مظاهر النموّ والانحلال، حكمة تفوق حدّ إدراكي اليوم. ولكنّها لن تبقى فوق إدراكي إلى الأبد. إذ ان من حكمة تلك الحكمة أن توسّع مداركي بالتدريج، وذلك بما تهيّئه لي من

Twitter: @ketab_n

اختبارات لا نهاية لها. ومن ضمنها اللذة والألم، والولادة والموت، والنموّ والانحلال.

كفاك، كفاك يا ميخائيل! فأيّ جدوى لك من هذه التأمّلات وأخوك الحبيب يذوب أمام عينيك، وليست لك قدرة المسيح لتشفيه بكلمة وبلمسة يد. وجيك يطلب المدد. والفلس اللّعين الذي ظننتك نجوت من بطشه عاد يشدّد قبضته على خناقك. ومن أين يأتيك المدد؟

إنّ شهرة كسبتَها في دنياك باتت عبئاً عليك لا عوناً لك من هذا القبيل. فالنّاس يتوافدون عليك، ويقيمون لك الحفلات الصغيرة والكبيرة. والمدارس والأندية تتسابق إلى دعوتك للخطابة فيها، ولكنها تحسب أنّها قامت بواجبها نحوك على أكمل وجه إذا هي صفّقت لك، وإذا هي كفلت لك وسيلة النقل إليها ومنها. فكأنّها تظنّك من غير طينة البشر. فلا أنت في حاجة إلى ما تأكل وتشرب وتلبس، ولا إلى الحبر والورق، ولا إلى السهر وإجهاد الفكر والجسد في تحضير ما تلقيه من الخطب. بل إن الروح القدس هو الذي يوفّر لك كلّ ذلك.

ومن ثمّ فـ «بضاعتك» هي الكلام. ومتى كان للكلام ثمن في هذا الشرق؟ إنّه كالرمل على شاطئ البحر. ولو أنّك كنت حارساً أو كنّاساً أو طاهياً في أيّ من المدارس والأندية التي

Twitter: @ketab_n

تدعوك للخطابة؛ أو لو أنّك كنت مهرّجاً، أو مصارعاً، أو ملاكماً لكنت حقيقاً بأجر. أمّا وأنت لا تفعل أكثر من أن تتكلّم نصف ساعة أو ساعة فحسبك التصفيق أجراً.

«إذا افتقر الجندي عاد يفتّش دفاتر والده العتيقة». هكذا يقول المثل العامي. وقد عملت بالمثل. ولكنّ والدي لم يكن عنده دفاتر عتيقة أو جديدة. وكانت عندي دفاتر وأوراق جلبتها معي من المهجر. وبين هذه الأوراق قصص وقصائد ومقالات غير التي نشرتها في «الغربال»، ومن غير معدنها وليس منها ما إذا جمعته اليوم في كتاب بَان وكأنّه من مخلّفات العصور الخوالي، أو كأنّه هارب من متحف للعاديات. بل إنّها كُتبت لهذه الساعة وهذا اليوم، ولكلّ ساعة وكلّ يوم.

وهكذا تيسّرت لي مجموعة من المقالات رأيت أن أسميها «المراحل» وأن أشرح الاسم بأنّه «سياحات في ظواهر الحياة وبواطنها». أمّا القصائد والقصص فأرجأت النظر في أمرها إلى زمان آخر. ولكن كيف السبيل إلى نشر «المراحل»؟

في بيروت مطابع. وفيها مكتبات. وليس فيها ناشر واحد يُقدم على المغامرة بطبع كتاب حديث لكاتب حديث ويرضى أن يدفع للكاتب حقوقاً عن كتابه. وإذا وُجدت مكتبة تنشر كتاباً على نفقتها فالكتاب إمّا قصّة من نوع «تغريبة بني هلال» و«عنتر»

Twitter: @ketab_n

و «سيف بن ذي يزن». وإمّا كتاب دين، أو أثر من الآثار الأدبيّة للمشهورين من قدامى الشعراء والكتّاب. وما تبقّى من ترجمات وتآليف حديثة فقد كان أصحابها يتولون نشرها على نفقتهم الخاصة، أو يتنازلون عن حقوقهم فيها للذين «يجازفون» بنشرها من أصحاب المطابع والمكتبات.

لذلك لم يكن لي مناص من نشر «المراحل» على نفقتي. ولأنّني لم أكن أملك المبلغ الكامل لطبعه فقد اضطررت مرغماً أن أستدين قسماً من أحد الأصحاب. مثلما اضطررت أن أشرف بنفسي على طبع الكتاب، فأختار الورق والحبر والغلاف والحرف، وأحدّد الحجم والهوامش وعدد السطور في الصفحة الواحدة، وأصحّح التجارب مرّتين. فالطباعة في ذلك الزمان قلّما كانت تهتمّ بالمظاهر وبالإتقان. والكتاب الذي كان يخرج من المطبعة وفيه أقلّ من مئة هفوة مطبعيّة كان يُعدّ كتاباً ناجحاً و «أنيقاً».

بلغت تكاليف ألفي نسخة من الكتاب مئتي ليرة لبنانيّة بالتمام. وهو مبلغ يوازي في حساب هذه الأيّام عشرة أضعافه في تلك الأيّام. بقيت مهمّة التصريف. وهنا «الطامّة الكبرى». فمن أين أبدأ، وإلى مَن أتجه؟

جعلت ثمن النسخة من الكتاب ٧٥ قرشاً بالعملة السوريّة - اللبنانيّة وجعلت للمكتبات حسماً قدره ٢٥ بالمئة. ثمّ أرسلت

Twitter: @ketab_n

نسخاً إلى الصحف البارزة في لبنان وسوريا وفلسطين والعراق ومصر. فكان تقديرها للكتاب ممّا يبعث الأمل بالإقبال عليه. ثمّ حصلت من ذوي الخبرة على قائمة بالمكتبات المعروفة في بيروت وباقي المدن العربيّة، فكتبت إليها. أمّا مكتبات بيروت فرحت أفتّش عنها بنفسي وأتحدّث إلى أصحابها. فكان جوابهم واحداً: أرسل إلينا، إذا شئت، خمس نسخ بالأمانة. إلاّ اثنين منهم. أحدهما المرحوم سليم إبراهيم صادر صاحب «مكتبة صادر». والآخر صاحب «المكتبة الأهليّة». فهذان الرجلان كانا «مسرفَين» في إكرامي إذ طلب كلّ منهما عشر نسخ «بالأمانة». ولم يكتفِ المرحوم سليم صادر بالنسخ العشر يأخذها مني على سبيل الأمانة من غير أن يزوّدني بخلاصة خبرته في دنيا الكتب: «الكتب يا أستاذ تشقى وتسعد كما يشقى النّاس ويسعدون سواء بسواء. وليس من يدري أيّها يُكتَب له الشقاء. وأيّها السعادة».

من بعدها أخذت أتفقّد المكتبات مرّة في الشهر أو الشهرين لأعرف ماذا كان نصيب كتبي المتروكة فيها من الشقاء أو السعادة. وكان يغلبني الخجل في كلّ مرّة فأشعر كما لو كنت أستجدي حقّي من النّاس استجداء. وهذا الشعور ساقني في النهاية إلى الإقلاع عن حمل كتبي إلى المكتبات، وإلى التنازل عن الكثير من النسخ لمكتبات في بيروت وغيرها، أبت أن تقدّم

Twitter: @ketab_n

لي أيّ حساب عن النسخ المرسلة إليها. إلاّ أن تجاربي مع المكتبات لم تكن كلها من ذلك النوع. فقد جاءني ذات يوم طلب من مكتبة عربيّة في مدينة «دكار» من السنغال بمئة وخمسين نسخة، ومع الطلب تحويل بالثمن على تاجر معتبر في بيروت!

إي. تشقى الكتب وتسعد يا أبا أنطون[١]. ولكنّ الذين يشقون، في الواقع، ويسعدون هم مؤلّفوها - لا هي. ولعلّهم يشقون أكثر ممّا يسعدون بكثير، وعلى الأخصّ في بلاد لا يزال للقرش فيها أضعاف أضعاف ما للقلم من المجد والكرامة.

---

(١) أنطون هو ابن المرحوم سليم صادر، صاحب «دار صادر للطباعة والنشر» التي أخذت تنشر كتبي بانتظام منذ سنة ١٩٤٥ .

Twitter: @ketab_n

بذور

أتاحت لي الدعوات التي أخذت تنهال عليّ من مختلف المعاهد والأندية فرصة ممتازة لتصفية نفسي وغربلة ما جنيته من سياحاتي البعيدة في ظواهر الحياة وبواطنها. والذي جنيته من تلك السياحات هو اليقين بأن الحياة وحدة شاملة كلّ الشمول، ومنظمة أبدع التنظيم؛ وأنّ ما يصدر عنها لا يصدر ارتجالاً واعتباطاً بل عن قصد وتصميم؛ وأن الإنسان يسعد ويشقى على قدر ما ينسجم بتفكيره وسلوكه مع تلك الوحدة أو لا ينسجم، وعلى قدر ما يفهم النظام أو لا يفهمه، فيسايره أو يعانده. ولو لم يكن في مستطاعه أن يفهم وينسجم فيسعد لما كان له الفكر والخيال والوجدان والإرادة. فهذه القوى الهائلة في كيانه تدفعه دفعاً الى التفتيش عن نظام الحياة في وحدتها، وعن القصد من ذلك النظام.

إلاّ أنّ النّاس، من حيث الفكر والخيال والوجدان والإرادة، ليسوا على مستوى واحد لأنّهم لم يولدوا دفعة واحدة، فخبرتهم ليست واحدة. ففي حين أن الرجل البدائي من سكان أوستراليا الأصليّين لا يفقه شيئاً من علم الأعداد، يقوم في أقطار أخرى من الأرض رجال تبلغ مهارتهم في التلاعب بالأعداد درجة لا يرقى

Twitter: @ketab_n

إليها غير القليل جدّاً من الأدمغة البشريّة. وفي حين لا يعفّ متوحّش في إفريقيا عن قتل إنسان وأكله، يقوم في الهند معلّم اسمه بوذا فيضع في أساس تعليمه عقيدة «الأهِمْشا» - أي عدم الأذية لأيّ مخلوق وإن يكن حشرة لا شأن لها. ويقوم في فلسطين رجل اسمه يسوع الناصري فيوصي النّاس بأن يعاملوا الآخرين بمثل ما يريدون أن يعاملهم الآخرون، وأن لا يقاوموا الأذية بالأذية. بل يحسنوا إلى الذين يسيئون إليهم، ويصلّوا من أجل الذين يمتهنونهم. أمّا السواد الأعظم من النّاس - حتى الذين يعتبرون أنفسهم «متمدّنين» - فلا يزالون بين بين، وعلى درجات متفاوتة جدّاً من التفتّح على النظام الشامل وأهدافه.

لذلك ما وقفت مرّة على منبر إلاّ حاولت أن أثير اهتمام السامعين بجانب من جوانب الحياة البشريّة من حيث صلتها بالحياة الكونيّة الشاملة. لعلّهم يدركون أنّهم مطالبون بأكثر من الأكل والشرب والتناسل، وأن لا قيمة لكلّ ما يشيدونه من مدنيات، وكلّ ما يهتدون إليه من اختراعات واكتشافات إلاّ على قدر ما يسخّرونه للهدف الأبعد والأبقى، وهو فهم النظام الكوني وأهدافه - ذلك النظام الذي ينطوي بكلّ دقائقه في كيانهم المادي والروحي.

هكذا خاطبت طلاب مدرسة في لبنان فقلت لهم في جملة ما قلت: .

Twitter: @ketab_n

«... ها أنا أتنبأ لكم بأن بعض ما درستموه سيصبح يوماً ما عثرة لأرواحكم. فلا تستقيم لكم حياة إلاّ بنبذة. وأن بعض ما تحسبونه عبئاً ثقيلاً ستجدون فيه أجنحة لأفكاركم ومفاتيح لمكنونات نفوسكم. وأنّكم، كيفما صفقتكم رياح المعيشة، لن يقرّ لكم قرار حتى تدركوا أن في الحياة مدرسة واحدة، ومثالة واحدة، ومعلّماً واحداً. أمّا المدرسة فهي الإنسان. وأمّا المثالة فهي الإنسان. وأمّا المعلّم فهو الإنسان. لأنّه من الحياة قطباها ومحورها.

«إنّكم إن خبرتم من الكواكب سرّ تجاذبها وتدافعها لا تخبرون شيئاً ما لم تخبروا سرّ تجاذب النّاس وتدافعهم. وأنتم إذا ذللتم العناصر كلّها لا تذلّلون شيئاً ما لم تذلّلوا عتوّكم وكبرياءكم. وأنتم لو سدتم الأرض بأسرها لا تسودون شيئاً ما لم تسودوا شهواتكم وأهواءكم. وأنتم لو ساكنتم الأفاعي، وجاورتم السباع، وآكلتم وشاربتم مجنّحات الجوّ لا تأتون أمراً عجيباً. لكنّكم متى تعلّمتم كيف تساكنون النّاس وتجاورونهم وتؤاكلونهم وتشاربونهم دون أن تلحقوا بهم أذيّة ودون أن ينالكم منهم أذيّة حينئذٍ تكتشفون أوّل الطريق إلى المعرفة...»[١]

وخاطبت طلاّب الجامعة الأميركيّة في كلمة ألقيتها عليهم

---

(١) انظر فصل «المدرسة والمعرفة» في «زاد المعاد».

Twitter: @ketab_n

بالإنكليزيّة عن «الخيال» وقيمته بالنسبة إلى العقل. ففضلت الخيال الطلق على العقل المقيّد بالحواس. وقلت إن الخيال، وإن انطلق من المحسوسات، في استطاعته أن يتعدّاها إلى حيث الحواسّ تغدو وكأنّها مشلولة:

«... إن الذين خيالهم لا يزال في اللفائف لا بأس عليهم لَوْ هم أرضعوه من ثدي العقل. سيكبر الطفل ويشتدّ وينتهي بأن يحمل أمّه يوماً ما على ظهره إلى المقبرة. والذي لا عكاز له يتوكّأ عليه غير عقله دعوه يتوكأ على عقله. فخير له أن يكون أعرج من أن يكون كسيحاً. أمّا الذين نمت أجنحة خيالهم واشتدّت، واستطالت قوادمها وصلبت فلَهم أقول: «ألا أطلقوا خيالكم من أقفاص العقل وحلّقوا معه حيثما حلّق بكم. وعندئذ تجدون أن ليس في الكون أرجاء إلاّ ولكم فيها أثر. وعندئذ تلمسون أنفسكم في كلّ ما تلمسون، وتبصرون أنفسكم في كل ما تبصرون. وعندئذ تتذوّقون نشوة المعرفة بأنّكم والحياة بأسرها وحدة لا تتجزّأ.

«... لو كان لكم مثل ذلك الخيال لعرفتم أن لا فواصل بينكم وبين شيء في العالم إلاّ التي تقيمها أوهام الحسّ. فأنتم تخطئون كلّما حسبتم أن هناك أموراً مختصّة بكم دون غيركم ولا شأن فيها لسواكم. أمّا الخيال فيعلّمكم أن لكلّ إنسان، ولكلّ

Twitter: @ketab_n

خنفساء، ولكلّ ذرّة رمل، ولكلّ ما يؤلّف الكون الأكبر شأناً في كلّ ما تعملون وتشتهون وتفكّرون. فما انطلق في الكون صوت إلاّ كان نوطة في ترنيمة الحياة العامّة. ولا فكر إلاّ كان خيطاً في نسيج الفكر الكوني. ولا شهوة إلاّ كانت مويجة على سطح أوقيانوس الشهوات المشتركة. والخيال يعلّمكم أن الأموات لم يموتوا. فها هي أشواقهم وأحلامهم، أفراحهم وأتراحهم، لعناتهم وبركاتهم لا تزال منبثّة في الهواء الذي تتنفّسون، وفي محيط الرغائب والأفكار الذي منه تستمدّون رغائبكم وأفكاركم. والخيال يعلّمكم أنّ الذين لم يولدوا بعد هم الآن معكم وبينكم. فكلّ الأغداء إنّما هي الآن هاجعة في حضن هذا اليوم»[١].

وعندما أقام لي «النادي الأدبي» في دمشق حفلة تكريميّة لم أحدّث النّاس هناك في مشكلات الساعة من سياسيّة واقتصاديّة وغيرها. وما أكثرها في كلّ ساعة وكلّ مكان، وما أسرع ما تزول لتقوم مقامها مشكلات جديدة لا تلبث أن تزول! ولكنني رأيت أن أحدّثهم في مشكلة مقيمة ما أقام الإنسان على الأرض. وهي مشكلة الألم ومباعثه. وكان ممّا قلته في سياق الحديث:

«... لن يهتدي الإنسان إلى ينابيع آلامه فيعرض عنها، وإلى

(١) فصل «الخيال» في «زاد المعاد».

Twitter: @ketab_n

ينبوع خلاصه فيُقبل عليه حتى يدرك أن تلك وهذا تتفجّر منه، وتجري فيه، وتنتهي إليه. فجحيمه في نفسه. ونعيمه في نفسه. وهو أبداً يحصد ما يزرع. وإذ أنّه يزرع أوهاماً تراه لا يحصد إلاّ أوهاماً. فيتألّم لأن كلّ وهم ليس إلاّ ينبوع ألم.

«إن الوهم الذي تتفرّع منه كلّ أوهام الإنسان هو اعتقاده أنّ له ذاتاً منفصلة عن كلّ ذات، وحياة مستقلة عن كلّ حياة. ولو سأل الإنسان نفسه يوماً «مَن أنا؟» لما تمكّن من إقامة حدٍّ بينه وبين شيء. أوَلستم ترون أنّكم إذا شربتم قطرة من الماء فكأنّكم شربتم البحار كلّها؟ لأنّ لكلّ قطرة في كلّ بحر صلة بالقطرة التي تشربون. وإذا ما أكلتم ثمرة فكأنّكم أدخلتم إلى جوفكم الحياة بأسرها. لأنّ كلّ ما في الحياة قد تعاون في تكوين تلك الثمرة. وإذا ما أبصرتم مذنّباً هائماً في الفضاء فكأنّكم أبصرتم كلّ ما في الفضاء. لأن الفضاء هو كفّ اللّه القابضة على كلّ شيء. وأقصى ما فيها ملتصق بأدنى ما فيها. وإذا ما صافحتم إنساناً فكأنّكم صافحتم كلّ إنسان، من آدم حتى آخر آدمي أطلّ على هذه الأرض. لأن كلّ إنسان يحمل في نفسه كلّ النّاس. وهكذا فكيفما انقلبتم... وجدتم أنّكم في كلّ شيء، وأنّ كلّ شيء فيكم. وأنّكم لا يحصركم مكان ولا يحدّكم زمان. فإذا كنتم، وأنتم مقيّدون بحواسكم، يتعذّر عليكم أن تقيموا فاصلاً

Twitter: @ketab_n

بين محسوس ومحسوس، فكيف بكم لو انطلقتم من عالم الحسّ إلى عالم الروح»[١].

وعندما دعتني جمعيّة في بيروت لإلقاء كلمة في حفلة تذكاريّة لضحايا كارثة رهيبة وقعت في المدينة لم ألجأ إلى ما يلجأ إليه الخطباء في مثل هذه المناسبات من التفجّع والتوجع ورصف الكلام المزركش. بل رأيت أن أُحدّث النّاس حديثاً يدفعهم على التفكير العميق في شؤون «الموت والحياة». فكان في جملة ما أعددته لمسامعهم المقاطع التالية:

«ما بالنا، ونحن الذين حصرنا الزمان بين المهد واللحد، نُقبل على المهد ونهرب من اللحد، وما المهد إلاّ طريق اللحد وبابه؟

«ما بالنا نلثم اليد التي كتبت الفاتحة ونعضّ اليد التي خطّت الخاتمة، واليد التي خطّت الخاتمة هي عين اليد التي كتبت الفاتحة؟ إن تكن خاتمة العمر شرّاً، فالفاتحة التي تؤدّي إليها شرّ مثلها، وإذ ذاك كان أحرى بنا أن ننوح على مَن يولد قبل أن ننوح على مَن يموت. أو تكن الفاتحة خيراً فالخاتمة الناجمة عنها خير مثلها. وعندئذ علينا أن نغتبط بالموت اغتباطنا بالحياة.

(١) «ينابيع الألم» في «زاد المعاد».

Twitter: @ketab_n

«أترونني أكلّمكم بالأحاجي؟ وبماذا عساني أكلّمكم إن لم يكن بالأحاجي، وتقاليد النّاس قد جعلت من وجودهم سلسلةً كلّ حلقة فيها أحجية؟

«أجل. إنّها لأحجية أن تفصل بين الحياة والموت وهما متصلان اتصال النهار باللّيل، واليقظة بالمنام، والزهرة بالثمرة، وقطرة الطل بقطعة الجليد.

«إنها لأحجية أن تميت نبات الأرض وطيرها وحيوانها لتحولها لحمًا في جسدك ودمًا وعظما، وأن تدعو موتها حياة، وعندما تحول الأرض جسدك نباتا وطيرا وحيوانا أن تدعو ذلك موتا لا حياة.

«إنّها لأحجية أن تأكل الموت في كلّ ما تأكل، وتشربه في كلّ ما تشرب، وتلبسه في كلّ ما تلبس. وأن تنام وتقوم وإيّاه. وأن تشتهيه في كلّ شهوة من شهواتك. وأن تباركه في كلّ ذلك باسم الحياة. ومن ثمّ أن تلعنه عندما يأكلك ويشربك ويلبسك ويشتهيك.

«إنّها لأحجية أن تقول إذا ما وُلد لك ولد: لقد مَنّ اللّه عليّ بمولود. وأن تقول إذا ما مات ولدك: لقد ابتلاني اللّه بموت ولدي العزيز.

«ولو أنت أنصفت ذاتك لما رأيت في ولادة ابنك أو ابنتك

Twitter: @ketab_n

منّة، ولا في موته أو موتها بليّة. أوَلم تعطك الحياة كلّ ذاتها إذ هي أعطتك الحياة؟ أوَلم تودعك كلّ أسرارها، وكلّ هيبتها، وكلّ جمالها؟ فكيف لها أن تزيد ذرّة فوق ذاتها، أو أن تنقص ذرّة من ذاتها؟

«... ما كره الإنسان الموت إلاّ لأنّه لم يحسن محبّة الحياة.

وما كان الموت نكبة لو لم يجعل الإنسان من حياته نكبة.

«... أوَلا ترون النهر الذي يُفرغ ذاته في البحر كيف يعود البحر فيترعه من جديد؟ أم لا ترون البركة التي تحاول أن تستأثر بهبة البحر كيف تمسي آسنة، قذرة؟ ونحن لن نتغلّب على ما فينا من أسَن الموت وقذارته حتى نتعلّم كيف نحبّ الحياة. ونحن لن نتعلّم كيف نحبّ الحياة حتى نتعلّم كيف ننفقها بلا حساب، وبلا أمل بأيّما ثواب. ونحن لن ننفقها بلا حساب وبلا أمل بأيّما ثواب حتى نمزّق ما في أيدينا من صكوك زائفة تشهد لنا بالملك في هذا البعض منها أو ذاك. وندرك أن جسدها الكامل جسدنا - وهو لا ينقسم. وروحها الشامل روحنا - وهو لا يتجزّأ...»[1]

وفي المحاضرة التي دُعيت لإلقائها في الدار الفخمة لجمعية الشبان المسيحيّين بالقدس لم أشأ أن أتحدث إلى السامعين في

(١) «الموت والحياة» في «زاد المعاد».

Twitter: @ketab_n

شؤون الساعة - وما كان أكثرها! ورأيت أن أحدّثهم في السلام والأسباب التي من أجلها استحكم الجفاء بين الجماعات البشريّة وبين السلام. فمنذ أقدم العصور والنّاس يطلبون السلام فلا يحصلون إلاّ على الخصام. وها هي القدس، واسمها الأصلي «أورو - ساليم» - أي مدينة السلام - خير شاهد على ذلك.

«... أوَتعرفون لماذا؟ - لأن السلام الذي يطلبه (الإنسان) هو عدوّ السلام.

«هو سلام بين بطن طاوٍ ورغيف من الخبز. والرغيف لم يُخلق إلاّ لأجل البطن الطاوي. فما كان بينهما يوماً خصام ولن يكون. إنّما الخصام هو إمساكك الرغيف عن البطن الطاوي.

«هو سلام بين فتر من الأرض وفتر يحاذيه. وفتران من التراب ما تنازعا يوماً ولن يتنازعا. أمّا محاولة الإنسان أن يفصل بينهما ثمّ أن يوجد بينهما سلاماً فهي النزاع بعينه.

«... هو سلام بين عبد وحرّيته. والحرّية التي هي هبة اللّه لكلّ أبناء اللّه ما ميّزت يوماً ولن تميّز بين سيّد وعبد. أمّا ادّعاء الإنسان بأن في قدرته أن يزوّج الحريّة من العبوديّة لتعيشا في سلام فهو قاتل السلام.

«... كلّ ما تسمعونه أو تقرأونه عن مساعي الممالك وساستها في سبيل السلام ليس أكثر من زيادة بلّة في طين. لأنّهم

Twitter: @ketab_n

يحاولون اقتناصه بقانون يسنّونه في مجلس، أو ميثاق يبرمونه في مؤتمر، ويدّعون حمايته بمدفع أو مدرّعة. والسلام ما كان يوماً عنقاء تُقتنص بشراك، ولا كان شيخاً عاجزاً أو طفلاً قاصراً يحتاج إلى حماية.

«... ألا فتشوا عن السلام في قلوبكم. أمّا في غير القلب فعبثاً تفتّشون... في تلك الرمّانة المرصوفة بكلّ أصناف الشهوات والنزعات - هناك اعقدوا مؤتمراتكم للسلم. فإذا وفّقتم بين ما فيكم من نزعات تشدّكم إلى فوق وأخرى تجذبكم إلى أسفل؛ وشهوات تسير بكم غرباً وأخرى تقودكم شرقاً عرفتم السلام، وكنتم في سلام مع العالم حتى وإن كان العالم في اضطراب. وإلاّ بقيتم تجتاحكم عواصف النزاع، وتتقاذفكم أمواج الخصام حتى وإن لم يكن في جوّ العالم من حواليكم ولا غيمة واحدة...

«... هنا - على الأرض - وفي هذا الزمان الذي تمدّدت معدته وتقلّصت مخيّلته فراح يمجّد السلام بلسانه ويذبحه بأعماله، تعالوا نشيد مدينة للسلام. تعالوا نشيدها من قلوبنا في قلوبنا. ولنطوّقها بسور منيع من الإيمان بجمال الحياة وعدلها وكمالها.. ولنجعل الفكر النيّر حارساً لها، والخيال المبدع عَلَماً يخفق فوق أبراجها. ولنخطّ بأحرف من نور فوق كلّ باب من أبوابها هذه الكلمات الثلاث:

Twitter: @ketab_n

«سلامكم في قلوبكم»[١]

وممّا قلته مرة لزمرة من الشباب المثقف في إحدى المدن السوريّة:

«... مَن شاء أن يعطي فليكن أوّلاً على ثقة من أن في يده ما هو أهل للعطاء. أمّا اليد الفارغة فحذار أن تمتدّ للإعطاء. لأن ما تعطيه ليس إلاّ خيبة وفشلاً.

«مَن شاء أن يحرّر فعليه أوّلاً أن يتحرّر. أمّا مَن كان عبداً لنفسه فحذار من أن يدعو النّاس إلى الحريّة. لأنّه لا يقودهم إلاّ إلى عبوديّته.

«مَن شاء أن ينير فعليه أوّلاً أن يستنير. أمّا القلب المظلم فحذار من أن يدعو النّاس إلى النور. لأنّه لا يدلّهم إلاّ على ظلماته.

«وما داء الأدب اليوم وفي كلّ يوم - في هذه البلاد وفي كلّ البلاد - إلاّ أن الكثير من الأيدي الفارغة ينادي: تعالوا خذوا! والكثير من النفوس المستعبَدة يصيح: هوذا طريق الحرية! والكثير من القلوب المظلمة يهتف بالنّاس: اتبعوني إلى النور...»[٢]

---

(١) «سلام الله وسلام الناس» في «زاد المعاد».

(٢) «داء الأدب» في «زاد المعاد».

Twitter: @ketab_n

وفي مناسبة مماثلة حيث احتفى بي جمهور من الشباب في قرية لبنانيّة، كان في جملة ما قلته لهم:

«... لا تبغضوا أحداً من النّاس. وإذا كان لا بدّ لكم من البغض فابغضوا كلّ ما في النّاس من ضعف وإثم.

«لا تبغضوا الشرّير وأبغضوا الشرّ. لأنّكم إن أبغضتم الشرّير أصبحتم أشراراً مثله. أمّا إذا أبغضتم الشرّ فقد تقتلونه وتهتدون إلى الخير.

«لا تكرهوا الظالم واكرهوا الظلم. لأنّكم إن كرهتم الظالم كنتم ظالمين مثله. وإن أحببتموه عرفتم العدل ورددتم الظالم إليه.

«لا تهربوا من الجاهل واهبروا من الجهل. لأنّكم عندما تهربون من الجاهل لا تهربون إلاّ من أنفسكم. أمّا هربكم من الجهل فهو اقتراب من المعرفة.

«قبل أن تفتّشوا عن فيلسوف أو شاعر فتّشوا عن رجل صالح. وقبل أن تطلبوا واعظين بالحقّ فتّشوا عن رجل يحيا حياة الحقّ. وقبل أن تطلبوا مَن يرسم لكم الجمال بالكلام والألوان اطلبوا رجلاً يرسم الجمال بأعماله من يوم ليوم. نحن في حاجة إلى مِثال جميل أكثر منّا إلى رسوم جميلة»[1].

---

(١) «شركة الإنسانية» في «زاد المعاد».

Twitter: @ketab_n

وأخيراً، أودّ أن أثبت في هذا الفصل بعض المقتطفات من خطبة ألقيتها في الحفلة السنويّة لمدرسة «الفرندز» الأميركيّة برام اللّه، فلسطين. وقد تحدّثت فيها عن التقاليد التي تكتسب على مرّ السنين قدسيّة أين منها قدسيّة الشرائع «المنزلة» وغير المنزلة. فتستبدّ أبشع الاستبداد بعقول النّاس وقلوبهم، وتحدّ من أشواقهم إلى التفلّت من الحدود والقيود، وتسلبهم قدرة التطلّع إلى الآفاق الأرحب والأجمل من آفاق حياتهم التي بغير حدود. وذكرت، على سبيل المثال، التقاليد التي ترافق الولادة، والزواج، والوفاة، وتنصيب الحكّام، وتوزيع الشهادات المدرسيّة؛ وتقاليد الشرف والمجد والحرّيّة والعدل والفضيلة والعلم وسواها. فقلت في هذه التقاليد كلّها إنّها «أكفان للجوهر الذي تحاول تثبيته وتعزيزه والدفاع عنه». فلا بدّ من تمزيق الأكفان لمن شاء أن يدرك الجوهر.

«... فالشرف الرفيع الذي «لا يسلم من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم» ليس شرفاً، وليس رفيعاً. إن هو إلاّ ناب وحش ينشب في جِلد وحش آخر. أمّا الشرف الذي هو شرف فلا يناله أذى، ولا يغتسل بدم الغير. بل يستحمّ بدم القلب.

«والمجد ليس أن تمشي إلى غاياتك الأرضيّة على أكتاف النّاس. إنّما المجد أن تحملهم على كتفيك إلى غاياتهم السماويّة.

«والحرّيّة ليست أن ترى شيئاً أو أحداً عقبة في سبيلك

Twitter: @ketab_n

فتزيل العقبة بالقوّة أو بالدهاء. إنّما الحريّة أن توسّع نطاق خيالك إلى حدّ أن تراك في كلّ شيء وكلّ إنسان. فتصبح العقبات درجات ترقى بها إلى الفضاء الذي لا درجات فيه ولا عقبات.

«والعدل ليس أن تأخذ ما لك وتعطي ما عليك. فكلّ ما لك عليك. وكلّ ما عليك لك. إنّما العدل أن تعرف أنّك أفقر من أن تعطي، وأغنى من أن تأخذ...

«ما معنى قولكم: هذا رجل متعلّم؟

«أهو العلم أن تتلاعب بالأرقام صعوداً ونزولاً من الواحد إلى ما لا نهاية له، وتجهل أن الربوة في الواحد، وأنّ الواحد لا وجود له إلاّ في خيالك، وأنّك أنت ذلك الواحد؟

«أم هو العلم أن تميّز بين المبتدإ والخبر، والفاعل والمفعول، وتجهل أنّك مبتدأ خبره مستترٌ فيه، وأنّك الفاعل والمفعول في آن واحد؟

«أم هو العلم أن تلجم البخار وتمتطيه، وأن يلجمك غضبك ويمتطيك؟

«أم هو العلم أن تعرف أن الأرض تدور حول الشمس، والشمس تدور حول محورها، ولا تعرف حول مَن أو ماذا أنت دائر، ولا المحور الذي تدور عليه أيّامك ولياليك؟

«... ليت لكم أن تستأصلوا التقاليد من حياتكم فلا تأتمروا

Twitter: @ketab_n

إلاّ بوحيِ الروح ومشيئة القدَر. ولكنّ التقاليد أكثر من أن تُحصى، وجذور بعضها اعمق من أن تُستأصل.

«قاوموها قدر استطاعتكم. وإمّا عجزتم عن مقاومتها فتقبّلوها كما تتقبّل الشمس الغمامة، والدُّرّة الصدفة، والمرأة المحجَّبة حجابها. غير ناسين أن وراء الغمامة شمساً ساطعة، وفي الصدفة دُرّة ثمينة، وخلف الحجاب وجهاً عجيباً.

«ويا حُسن يوم نمثُل فيه عزّلاً من كلّ تقليد. سافرين من كلّ حجاب أمام حياة لا سلاح لها إلاّ الحقّ، ولا حجاب إلاّ الجمال»[١].

ليس قصدي من هذه المقتطفات أعرضها على القارئ إلاّ أن أسهّل له دخول العالم الذي أخذت أعيش فيه بفكري وقلبي وروحي بعد عودتي من المهجر. ولأنّه عالم راح يزداد اتّساعاً ورونقاً وانسجاماً، وتزداد أبوابه مناعة ضدّ الكثير من صخب العيش ورغوته وغباره، فقد بات يغريني أن أحدّث النّاس عنه. وبات يلازمني شعور عميق بالمسؤوليّة عن كلّ كلمة تنزلق عن لساني وقلمي، وعن كلّ عمل أقوم به في السرّ والعلانية، أو أتقاعس عن القيام به حيث التقاعس يبدو لي تهرّباً من واجب.

---

(١) «ضباب التقاليد» في «زاد المعاد».

Twitter: @ketab_n

فالكلمة باتت عندي أكثر بكثير من حروف ومقاطع أتفوّه بها أو أرسمها بالحبر على الورق. وأكثر من أداة لخلق شيء يدعونه «الأدب» تصرفك مطالعته، إلى حين، عن مشكلات وجودك الأساسيّة، ثمّ تتركك نهباً لشتى الهواجس والوساوس، والشكوك والأوهام. فلا أنت في الظلمة، ولا أنت في النور. ولا أنت مستقيم، ولا أنت أعوج. ولا أنت ميت، ولا أنت حي.

لقد باتت الكلمة عندي وكأنّها القدرة المبدعة التي في استطاعتها أن تخلق عوالم وأن تمحو عوالم. فما كان لي أن أرسلها كيفما اتّفق. بل كان عليّ أن أتفقّد منابتها لأعرف ما إذا كانت طاهرة أو غير طاهرة، وصادقة أو غير صادقة. وكان عليّ أن أتبصّر، قدر المستطاع، السبل التي يمكن أن تسلكها من بعد أن تفلت من لساني ومن قلمي مخافة أن تغدو سمّاً حيث أردتها أن تكون بلسماً، وحجر عثرة حيث هندمتها لتكون سلّماً. إنّها البذار أبذره في نفسي وفي النفوس التي تشتاق ما تشتاقه نفسي. وإنّها الطريق أخطّها لنفسي وللنفوس التي تتجه حيث تتجه نفسي.

ولأنّني ما زلت من لحم ودم فللقارئ أن يتخيّل الساعات والأيّام التي كنت فيها - وما برحت - أؤنّب نفسي أعنف التأنيب وأجلدها أقسى الجَلْد كلّما بان لي تفاوت، أو تناقض،

Twitter: @ketab_n

بين ما تقوله وتفعله، وبين ما تضمره وتعلنه. فقد لا يهمّني إذا لم تجد بذوري تربة لها غير تربة نفسي، ولكنّه يهمّني جدّاً، إذا هي وقعت في تربة غير نفسي، أن تكون بذوراً صالحة كيما تأتي بغلّة صالحة.

Twitter: @ketab_n

على قمة الدنيا

في صيف تلك السنة - ١٩٣٢ - زرت ضريح جبران في بشرّي برفقة أمين مشرق. وهو شاعر مهجري كان في نيويورك قبل مجيئي إليها، ثمّ غادرها إلى عاصمة الأكوادور في أميركا الجنوبيّة. فما كنت أعرفه ولا كان يعرفني حتى التقينا في بيروت. وقد رأينا أن نزور غابة الأرز أوّلاً ومن بعدها مار سركيس.

عندما وقفت أمام الأرزة الكبيرة في تلك الغابة الصغيرة لم تدهشني صخامتها وصلابتها، ولم يسحرني بديع تكوينها على قدر ما أرهقني التفكير في القرون العشرين - أو أكثر - التي طوتها، وفي الأحداث البشريّة والطبيعيّة التي تخلّلت تلك القرون. فتمنّيت لو كانت كلّ مسلّة من مسلاّتها لساناً، وكان لها أن تروي ما شهدته وما سمعته في غضون عمرها الطويل إذن لكان للبنان وغير لبنان تاريخ يُعتمد عليه. وإذن لضحكت وضحك معي ملايين النّاس من هموم أحملها ويحملونها ونحسب أنّها مقيمة حتى قيام الساعة!

وعلى قدر ما أرهقني التفكير في ما شهدَتْه وسمعته تلك الأرزة «البطريرك»، أحزنني أن لا يكون لنا اليوم المئات - بل الآلاف - بل الملايين من أمثال تلك الأرزة. فهناك أكثر من دليل

Twitter: @ketab_n

على أن الأرز كان يجلّل جبال لبنان حتى علوّ ألفي متر. ترى أيّ الروعة كانت روعة لبنان اليوم لو أنّ الأيدي الهمجيّة لم تعبث بأرزه ولزّابه، وشوحه وشربينه؟!

وإنّه لِمن الخزي والعار أن لا يكون أحفاد الذين قضوا على أرز لبنان أكثر إحساساً بالجمال من أسلافهم. لئن قضى أسلافهم على الأرزة واللزّابة فهم جادّون في القضاء على الحجل والحسون والشحرور والبلبل وأبي الأبلق وأبي الحنّاء وجميع المجنّحات الصغيرة والكبيرة التي تضفي على جبالهم ألواناً من الأنس والرقّة والعذوبة والبهجة والطمأنينة والسلام، ليست لأيّ بقعة من بقاع الأرض. فهناك اليوم مناطق واسعة في لبنان بات من الأسهل أن تبصر فيها عنقاء أو فينكساً من أن تبصر أو تسمع عصفوراً. ولماذا؟ لكثرة الذين لا يجدون لهم متعة في الصيف ألذّ من صيد العصفور. وهناك، مع ذلك، مَن لا يخجل من أن يدعو لبنان بلد الذوق والجمال والإشعاع!..

إلاّ أن الطبيعة أغدقت من الحسن والخير على لبنان ما ليس يستطيع تشويهه وإتلافه عبث العابثين وهمجيّة «المتمدّنين» من أبنائه. من ذلك سماؤه بنجومها الساحرة في اللّيل، وبشمسها الفيّاضة بالدفء والنور في النهار. ومن ذلك هواؤه العليل وماؤه السلسبيل؛ وبخاصة قممه وآكامه وأغواره بما فيها من بديع

Twitter: @ketab_n

التكوين، ومن عجيب الألوان التي تتبرقع بها ما بين لحظة ولحظة، والتي لم يُخلق بعدُ الشاعر، أو الفنّان، أو النبيّ الذي يستطيع أن يصوّر ما فيها من فتنة وروعة ووحي.

إنّ إطلالة من سفح جبل الأرز على وادي قاديشا، أو من سفح صنّين على وادي الشخروب ووادي الجماجم لتجعلك تشهق ثمّ تحبس أنفاسك، ثمّ تخرّ على ركبتيك، من فرط ما يملأ عينيك وقلبك وفكرك وخيالك من روعة ورهبة. فلا عجب أن وادي قاديشا كان يعمر في سالف الزمان بالمناسك يلجأ إليها الزاهدون في الدنيا والقانتون إلى ربّهم. إنّه يوحي بالتأمّل والتعبّد.

حرصتُ، ونحن ننحدر من غابة الأرز إلى مار سركيس، أن أجمع عن جوانب الطريق طاقة من زهر الوزّال وغيره من الأزهار البرّيّة لأقدّمها إلى جبران في لحده. ولكن مفاجأة طريفة عند مدخل الضريح كادت تنسيني جبران والأزهار التي جئته بها. فمن بعد أن تركنا الطريق العام مشينا مسافة في شِعب ضيّق، كثير التعرّج، كنّا نغرق حتى الكاحل في ترابه الأبيض، الناعم. وعندما بلغنا البوابة الحديديّة الكبيرة وشددنا سلك الجرس من الخارج سمعنا الجرس يرنّ في الداخل ولم نسمع جواباً. وطال انتظارنا فعدنا إلى الجرس كرّة ثانية ولكن بدون جدوى. وفي المرّة الثالثة انهال علينا بغتة وابل من الشتائم: يا أبناء الكيت والكيت!

Twitter: @ketab_n

أما لي معكم من راحة؟ انصرفوا عني، لا وقت عندي لهذيانكم. انصرفوا!

وقفت ورفيقي مشدوهَين. وكنت قد سمعت أنّ حارس المدفن هو ابن خالة جبران. والتفتَ إليَّ رفيقي التفاتة كلّها حيرة. ثمّ قال: ما قولك لو أعلنتُ له اسمك؟ لعلّه يفتح لنا.

وأعلن رفيقي اسمي للحارس. وإذا البوّابة الكبيرة تنفتح في الحال. وإذا الرجل الذي كان يشتمنا أقذع الشتيمة منذ لحظة لا يدري كيف يقدّم لنا اعتذاراته ولياقاته:

«مِلّ باردون! يا عيب الشوم. عدم المؤاخذة. تفضّلوا. تفضّلوا. ألف أهلا وسهلا!»

وكان يقضم خسّة في يده، ورائحة العرق تفوح منه. فراح يعرض علينا الخسّ والعرق: «تفضّلوا. كلوا واشربوا. عرقنا طيّب...»

قلت: ألست ابن خالة جبران؟

قال: بلى. إذا صدقت الوالدة.

اللّه اللّه! كيف افترقنا يا جبران في مستشفى مار منصور (القديس فنسنت) في نيويورك، وكيف التقينا هنا؟! وهل خطر في بالك وبالي يوماً من الأيّام أنّنا سنفترق كما افترقنا منذ عام وبعض العام، وأنّنا سنلتقي كما نلتقي الآن؟ لكَم حدّثتني عن مار

Twitter: @ketab_n

سركيس. لكَم منّيت نفسك ومنّيتني هذه الخلوة البديعة. وها أنت تحتلّها وحدك.

لا. لا. إن ما أقوله لَسخف وعين السخف يا جبران. فلا نحن افترقنا في مستشفى مار منصور ولا نحن نلتقي في مار سركيس. ولا أنت في هذه الخلوة ولا أنا. إنّنا ما التقينا لنفترق. ولا نحن طلبنا الخلوات لنحتجب عن النّاس في الخلوات. بل لنجمع النّاس في خلواتنا، عسانا نتعاون وإيّاهم في الصعود بالإنسان إلى حيث الحياة نعمة تزول الأرض والسماء ولا تزول؛ لا معضلة يفتشون لها أبداً عن حلّ معقول فلا يهتدون...

في ذلك الصيف قمت بعدّة رحلات بعيدة وقريبة. وعلى الأخصّ في جوار صنّين. فما كنت أشبع من المناظر الخلاّبة التي هيأتها هذه الجبال وبحرها لكلّ مَن في نفسه تعطُّش إلى الهدوء والطُّهر والجمال. وجاءني صديقي أميل ضومط لتمضية بضعة أيّام معي في الشخروب. وهو ولوع مثلي بالمشي في الجبال. فاهتبلناها فرصة لنتسلّق معاً جبل صنين حتى القمّة. وشاءت زوجة أخي نسيب أن تكون رفيقتنا في تلك الرحلة.

كان قد سبق لي أن تسلّقت صنّين مرّة وأنا في الثامنة عشرة من عمري. إلاّ أنّني وإن جاورته منذ الصغر، كنت أجهل مسالكه. فهو يرتفع عن الشخروب فوق الكيلومتر. وارتفاعه يكاد

Twitter: @ketab_n

يكون عموديّاً مع القليل من الانحناء إلى الخلف، حتى ليشبه سلطاناً جالساً على عرشه. وهو من الشخروب فما فوق جبل أجر، تكثر فيه الأخاديد والرفاريف. أمّا صخره فمن الكلسيّ القاسي، وهو أكثر من ترابه. وأمّا نباته فمن البربريس وغيره من الأشواك التي تقاوم العطش في الصيف والثلج والجليد في الشتاء. ولأنّني كنت أجهل مسالكه فقد وجدتني غير مرّة في مآزق ظننت أن لا مخرج لي منها إلاّ الموت. ولكنّني بلغت القمّة. وما ان بلغتها حتى أدركني الضباب فأفسد عليّ غايتي وأكرهني على العودة من حيث جئت.

لذلك حرصت في الرحلة التي أحدّثك عنها أن أختار نهاراً لا خوف فيه من الضباب، وأن أستعين بخبرة أخي نجيب في الاهتداء إلى أقرب المسالك وآمنها إلى القمّة. وأخي نجيب صيّاد له شهرته في المنطقة. وهو يعرف الجبل معرفة تكاد تكون كمعرفته لكفّه.

انطلقنا مع الفجر، وقبل أن تستفيق العصافير والنحل والنّمل. ولم نأخذ معنا سوى العصيّ وما يكفينا من الزاد لفطورنا. فقد كانت خطتنا أن نعود فنتناول طعام الغداء في الشخروب. ويا ليته كان في إمكاني أن أصف للقارئ شعوري وأنا أتوقّل ذلك الجبل. فما أدري أيّ جاذب لا يُعانَد هو الجاذب

Twitter: @ketab_n

الذي يشدّني إلى الجبال إجمالاً، وإلى صنّين بالأخصّ. ولا أنا أستطيع أن أتذكّر جميع الأحلام التي أبصرتني فيها منذ صباي أصعّد في الجبال. فأنتهي أحياناً إلى القمّة، وأحياناً لا أنتهي. كما حدث لي في الحلم الذي حلمته في روسيّا وأتيت على ذكره في المرحلة الأولى من هذا الكتاب. وهو الحلم الذي، من بعض مشاهده، أنّني كنت أتوقّل جبلاً أجرد، عالياً. وعن يميني ويساري أناس يزحفون إلى فوق وآخرون يتدحرجون إلى أسفل. ثمّ اختفى النّاس وبقيت أصعّد في الجبل وحدي إلى أن بلغت منبسطاً من الأرض يكسوه زغب من الخضرة الفتيّة، الحييّة، كتلك التي تعرفها المروج أوّل ما تدبّ فيها أنفاس الربيع. وكان التعب قد أخذ منّي كلّ مأخذ. فارتميت على العشب وما لبثت أن غفوت. وإذا بيدٍ تهزّني من كتفي وصوت يهيب بي:

«ألا انهض! فالقمّة باتت قريبة. والربيع في انتظارك على القمّة».

وإذا بصاحبة الصوت واليد فتاة مجلببة بجلباب فائق البياض، وفي وجهها من الحسن ما يبهر البصر. فما شككت أنّها من كائنات الفردوس[1].

---

(١) انظر الفصل الثلاثين من كتاب «مرداد».

Twitter: @ketab_n

ولكنّ الجبل الذي تردّدت صورته في منامي غير مرّة، وعلى الأخصّ في صباي وشبابي، كان في الغالب ينتهي بقمّة عليها كومة من الصخور الضخمة، العالية. وفي وسط الصخور منفرج كأنّه درج المئذنة، ولكنّ تسلّقه من المشقّة بمكان. وفي أعلى الدرج منفذ ضيّق يفضي إلى زرقة السماء وطلاقة الهواء. وكنت في كلّ مرّة أبلغ ذلك المنفذ الضيّق شاعراً كما لو كان اجتيازه أمراً لا مفرّ لي منه مهما كلّفني من العناء. وكنت أقول في نفسي: «لقد اجتزته من قبل. فلن يستعصي عليّ اليوم». وهكذا لا أنفكّ أحتال وأحاول حتى أنفذ منه إلى حيث أراني كما لو كنت واقفاً على قمّة الدنيا.

أدركتنا الشمس قبل أن أدركنا القمّة. وأدركنا القمّة بعد ساعتين وأزود من السير المضني. إذ كان علينا، كلّما خطونا خطوة، أن نستوثق من مواطئ أقدامنا مخافة أن يغرّر بها حجر أو تخونها حصاة فنهوي إلى حيث يعزّ النهوض. لقد كنّا، معظم الوقت، نمشي فلا نجرؤ أن نلتفت إلى الوراء، أو إلى اليمين واليسار. وقبل أن نبلغ القمّة بقليل مررنا بمنخفض مستطيل من الأرض فيه بقيّة كبيرة جدّاً، وكثيفة جدّاً، من الثلج. وكان العطش قد أخذ يعذّب أكبادنا. فحاولنا أن ننزع شيئاً من الثلج بأيدينا أو بعصيّنا، ولكن دون جدوى. لقد كان أقسى من الحجر.

Twitter: @ketab_n

إلاّ أنّه، عند أطرافه، كانت تسيل منه قطرات بفضل أشعّة الشمس المحرقة. فحفرنا التراب من تحتها وانتظرنا ريثما تجمّع في الحفرة ما يطفئ العطش. وعندها انبطحنا على الأرض ورحنا نعبّ في الماء عبّاً.

نحن على القمّة!

ويا لها من نشوة أن تراك وليس على امتداد بصرك ما هو أعلى منك – إلاّ القبّة الزرقاء! ولا عبرة بما درسته في الكتب عن جبال علوّها أضعاف علوّ الجبل الذي أنت واقف على قمّته. بل العبرة كلّ العبرة في ما تقوله لك عينك وتنقله إليك أذنك حيث أنت. والذي تقوله عينك هو أنّ ما من شيء على الإطلاق يقف بينها وبين الأفق الأزرق البعيد. والذي تنقله إليك أذنك هو أنّ ما من أصوات على الإطلاق غير هفهفة النسيم وغير هدير السكينة الرهيب.

وتتّجه غرباً وتنظر إلى ما تحتك، فماذا تبصر؟ تبصر سفوحاً ناتئة هنا، ومخدّدة هناك، وجميعها يهرول نزولاً لينتهي عند صفيحة زرقاء تعرف أنّها البحر. وتبصر على ظهور النواتئ وفي بطون الأخاديد بقعاً تضيع عليك مساحاتها وأشكالها وألوانها. ولكنّك تعرف أن بعضها قرًى، وبعضها بساتين، وبعضها غابات بريّة. ولكنّك لا تميّز قرية من قرية، ولا شجرة من شجرة؛ ولا

Twitter: @ketab_n

أنت تبصر أنواع الكائنات التي تجيء وتروح فيها، والدوافع التي تدفعها على الرواح والمجيء.

من هذا العلوّ تختفي التفاصيل، وتمحى الصور، وتخرس الأصوات، وتتلاشى الروائح. ولولا ذكريات تحملها معك لما صدّقت أنّ في الأرض بشراً يولدون ويموتون، وحيوانات تتزاوج وتتناسل لتغدو طعاماً بعضها لبعض، ونباتات تصعد من التراب لتنعم فترة من الزمن بنور الشمس والهواء ثمّ تعود إلى التراب إمّا رماداً وإمّا سماداً، وإمّا جيفاً لا حياة فيها. ولما صدّقت أن البشر، ما بين ولادتهم وموتهم، يتعبّدون لأغرب الأصنام والأوهام، ويتمسّكون بأعجب العادات والغايات، ويمشون إلى غاياتهم في سراديب ولا سراديب المناجذ في ظلمات التراب.

ولولا خبرة اكتسبتها في شؤون النّاس من طول معاشرتك للنّاس لما صدّقت أنّهم في هذه اللّحظة التي تراك فيها على قمّة الدنيا، منهمكون في أعمال لا حصر لأصنافها وألوانها. فهناك الذين يعالجون التراب لينتزعوا منه قوت يومهم، والذين يحتالون على هؤلاء لينتزعوا منهم بشتى الأحابيل وبأبخس الأثمان ما انتزعوه من التراب. وهناك الذين يحرقون أدمغتهم في الليل والنهار ليستنبطوا للنّاس ألوهة تلهيهم عن أنفسهم. وهناك الذين يفحشون ويفجرون ويسكرون ويعربدون، والّذين على أسرّة

Twitter: @ketab_n

الأوجاع يتلوّون ويستغيثون. وهناك الذين باسم الإله الواحد، أو باسم كثرة من الآلهة، يتاجرون؛ والذين لا تأخذهم سِنة من نوم مخافة أن يدخلوا النّار يوم الحساب. وهناك الذين يهيئون الحروب أو يتهيّأون لها فرسالتهم في الأرض هي رسالة الموت والدمار والبوار، وهم بتأديتها فخورون. وهناك الذين يتبخترون ويتجبرون ويتكبّرون لأن في جيوبهم مالاً وفي أيديهم سلطاناً. والكلّ في خدمة الفلس يتنافسون ويستميتون.

لا. لا تصدّق، حيث أنت، أن دنياك ودنيا النّاس الذين في القرى والمدن من تحتك وفي كلّ مكان هي دنيا واحدة. وتسأل نفسك عن «حقيقة» الأشياء ما هي؟ وعن «واقع» الأمور ما هو؟ فلا تجد مناصاً من الجواب بأنّ «حقيقة» الواقف على قمّة صنّين و«واقعه» هما غير حقيقة الماشين في السفوح والساحل وواقعهم. مثلما حقيقة النسر في أعالي الجوّ هي غير حقيقة الخلد في غياهب الأرض. ومثلما واقع الإسفنجة في البحر هو غير واقع الحوت. ليس الذي مداه شبر أو ذراع من البر أو البحر كالذي مداه الأرض كلّها، والبحار كلّها. فكيف بمن مدى فكره وخياله الكون كلّه – منظوره وغير منظوره؟

وهكذا ترى أنّك إذا سموت ببصرك إلى حيث تغيب عنك دقائق الأشكال والألوان والقياسات والمسافات وجدتك في عالم

Twitter: @ketab_n

الكليات. فكيف بك إذا سموت ببصيرتك عن الجزئيات إلى الكليّات؟ إنّك اذ ذاك، في عالم موحّد، متجانس، متآلف إلى أقصى حدود الوحدة والتجانس والتآلف. ولأن ذلك العالم لا وجود له إلاّ فيك. ولأنّك لا وجود لك إلاّ في ذلك العالم، فأنت وإيّاه وحدة لا تنفصم.

عندئذ تتمنّى، مثلما تمنّيت وأنا واقف على قمّة صنّين، لو كان لك بإشارة من يدك، أو بكلمة من فمك، أو بغمزة من عينك، أو بنبضة من قلبك أن تجعل قلوب النّاس أينما كانوا قلباً واحداً، وأن تملأ ذلك القلب محبّة وسلاماً وطمأنينة وغبطة، ثمّ أن يذوب ذلك القلب في العالم ويذوب العالم فيه فيصبح الكلّ ذوباً من الجمال الذي يُفني الزمان ولا يَفنى. ولعلّه كذلك. ولكنّ عيوننا الرمداء وعقولنا القاصرة، المغلقة لا تزال عنه في ذهول...

وها هي عيني الرمداء تردّني إلى «الحقيقة» التي حسبتني تركتها ورائي في السفح. وها هو عقلي المغلق يعود بي إلى «الواقع» الذي أذهلتني عنه وقفتي على القمّة. فبجانبي سوزان - زوجة أخي نسيب. وقد بدا على وجهها الهادئ شيء غير الدهشة وغير التعب. وذلك الشيء تلمحه عيني ويفهمه قلبي في الحال. إنّه طيف من الحزن والكآبة. لقد تذكّرت المسكينة زوجها.

Twitter: @ketab_n

وتذكّرت كيف هجرت والديها وبلادها في سبيله. وتذكّرت ما هو فيه. وهالها أن تفكّر في النهاية المؤلمة، والغد الأسود. ولكنّها، من فرط ما تملك من حسن الذوق والشجاعة، تحاول أن تطرد طيف الكآبة عن وجهها لتبدو وكأنّها في منتهى الغبطة.

وتنتقل الكآبة من وجهها إلى وجهي. فتمضي السكرة وتعود الفكرة. وننحدر من قمّة الدنيا إلى جوفها المستعر بنيران المطامع والمخازي، والملذات والأوجاع، والهموم والغموم.

Twitter: @ketab_n

امتحان

عاد أخي نسيب إلى البيت فجأة ذات مساء من خريف تلك السنة - ١٩٣٢ . لقد هزل كثيراً وغاضت نضرة الشباب في وجهه. ولكن شجاعته لم تهزل، ولا غاض صفاء ذهنه وفيض عاطفته. وعندما سألته عن السبب في عودته الفجائيّه ولماذا لم يطلعني عليه عندما كنت عنده قبل ذلك بيومين أجابني بمنتهى البساطة:

«ما يقدّمونه لي من خدمة في المصحّ أستطيع الحصول على أفضل منه في البيت. وجوّ البيت غير جوّ المصحّ. لقد جفّ جسمي في المصحّ. فلا أريد أن يجفّ قلبي كذلك».

إلاّ أن الذي تبادر إلى ذهني كان غير الذي باح لي به أخي. فقد خُيّل إليّ أنّه ترك المصحّ لا شفقةً على نفسه بل عليّ أحمل اليوم همّ تطبيبه من بعد أن حملت همّ تعليمه. وأحمل فوق ذلك همّ عائلة فيها الذين أدركتهم الشيخوخة، والذين ما يزالون براعم. وجيبي على ما هو فيه من قحط وسوء حال.

مضى الشتاء غير مأسوف عليه. وكان أوّل شتاء أمضيه في بسكنتا من بعد أن غادرتها لأوّل مرّة سنة ١٩٠٢، أي منذ ثلاثين سنة. وكنت، وأنا في المهجر، أمنّي النفس بالسهرات الطوال تنعقد

Twitter: @ketab_n

حول «الحارون»، وبالأسماء الحلوة يشترك فيها الكبار والصغار، بينا الرياح في الخارج تصفر وتزمجر، وتبذر الأرض جواهر لا أنصع ولا أنقى ولا أبهَى. ولكن ما حصلت عليه كان أبعد ما يكون عن الذي تمنّيته. ولو لم تكن في حياتي حاجة إليه لما حصلت عليه.

والذي حصلت عليه كان، في الغالب، سهراً أفصح سمّاره السعال المتقطّع ينطلق من غرفة أخي حيناً بعد حين. وعلام لا يكون السعال سميراً مؤنساً ويكون عنترة العبسي، أو أبو زيد الهلالي، ذلك السمير، وفي سعال أخي من البطولة ما يهزأ ببطولات فارس بني عبس وفارس بني هلال؟ فما سمعت أخي مرّة أنَّ أو شكا أو عاتب ربّه وغير ربّه. وسمعته يقول:

«لقد انتهَى أمر الرئة اليسرى. وجاء دور اليمنى. وما أظن دورها يطول.»

سمعته يقول ذلك وكأنّه يقول: «نحن اليوم في الشتاء. وغداً يأتي الربيع.»

وانقضى الشتاء. وجاء الربيع. وكان الخامس عشر من أيار - مايو - سنة ١٩٣٣ .

دخلت على أخي في صباح ذلك اليوم جرياً على عادتي في كلّ صباح. فحيّيته وقبّلت جبينه وسألته عن حاله، ثمّ أردفت قبل أن أسمع جوابه:

Twitter: @ketab_n

- لقد خفّ سعالك كثيراً عن ذي قبل.
- أجل. خفّ.
- الحمد للّه.

ولكنّ أخي لم يعلّق بكلمة على هذا الحمد ترفعه شفتاي إلى اللّه. وآثر الصمت. فقلت لعلّ الكلام يزعجه. فصوته كان خافتاً جدّاً. أمّا وجهه الشاحب فبدا لي كوجه ملاك. فكأنّ الألم الذي كان قابضاً على عضلات ذلك الوجه قد ارتخت قبضته.

بعد ساعة جاءتني سوزان تقول:

- نسيب يريد قليلاً من الثلج.
- من الثلج؟!
- نعم. ومن ثلج صنّين.

وفي مثل رفّة الجفن كنت في طريقي إلى صنّين، وعلى ذراعي معطف لا يخترقه الماء كنت قد جلبته معي من نيويورك. فرأيت أن أحمل الثلج فيه.

النهار من نهارات الربيع الفاتنة التي تمتاز بها المناطق العالية في لبنان سماء كعين الطفل صفاء. وشمس تشلّ النور الذي يهدي ولا يبهر، والحرارة التي تدفئ ولا تشوي. ونسيم يهمس ولا يضجّ، ويلثم ولا يصفع. وأمواه ترنّم ولا تعربد. وخضرة تضحك للشمس والنسيم. وعصافير تغرّد جاثمة، وتغرّد طائرة،

Twitter: @ketab_n

الكلّ في وليمة، إلاّ هذا الذي يسير وفي يده عصا من السنديان، وعلى ذراعه معطف أسود. فلا قلبه في وليمة. ولا فكره في مهرجان.

بيني وبين أقرب بقعة من الثلج مسيرة ساعتين. إنّها البقعة التي يحتضنها من الشمس والرياح أخدود عميق في جبهة صنّين المطلّة على البحر. وهي تواجه الشخروب وتطول حياتها في أغلب السنين حتى منتصف شهر آب. والطريق إليها يمرّ بالشخروب.

توقّفت لحظة في الشخروب لآخذ معي منجلاً أحفر به الثلج، ولألقي السلام على أخي نجيب الذي كان يحرث قطعة من الأرض بجانب الطريق. وعندما أطلعته على مهمّتي ارتبك، ورفع يده عن المحراث، وجمد مكانه. وكنت أعرف المحبّة الخارقة التي تشدّ قلبه إلى قلب أخيه نسيب حتى ليبدو القلبان وكأنهما قلب واحد. فما شئت أن أطيل الحديث والوقوف وتابعت سيري.

كنت أمشي غير شاعر بالطريق تحت قدميّ، وغير شاعر أنّني أمشي. وكنت آناً أحدّث نفسي حديثاً لا رابطة فيه ولا وزن له. وآونة أصلّي - أو أحاول أن أصلّي. ولكنّني لا أعي كيف أصلي، ولمن أصلّي ومن أجل مَن أو ماذا أصلّي. إنّي أريد لأخي أن يحيا. ولكنّ أخي سيموت حتماً إن لم يكن اليوم وفي هذا

Twitter: @ketab_n

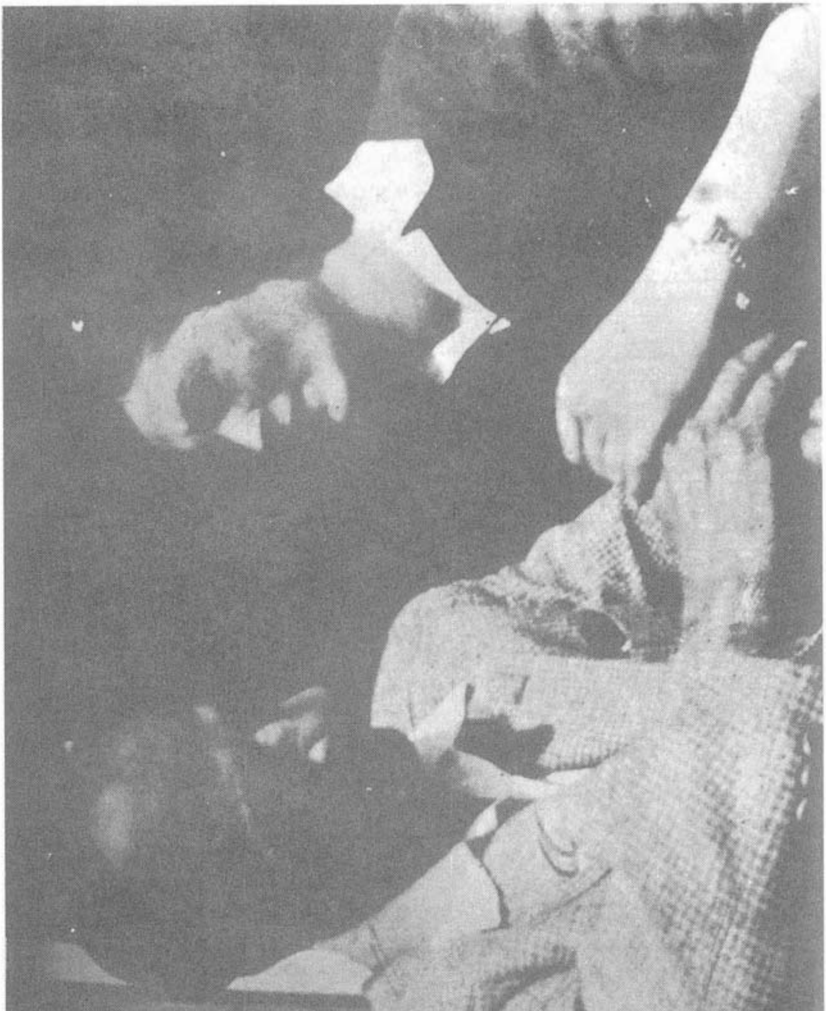

مي وعمها

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

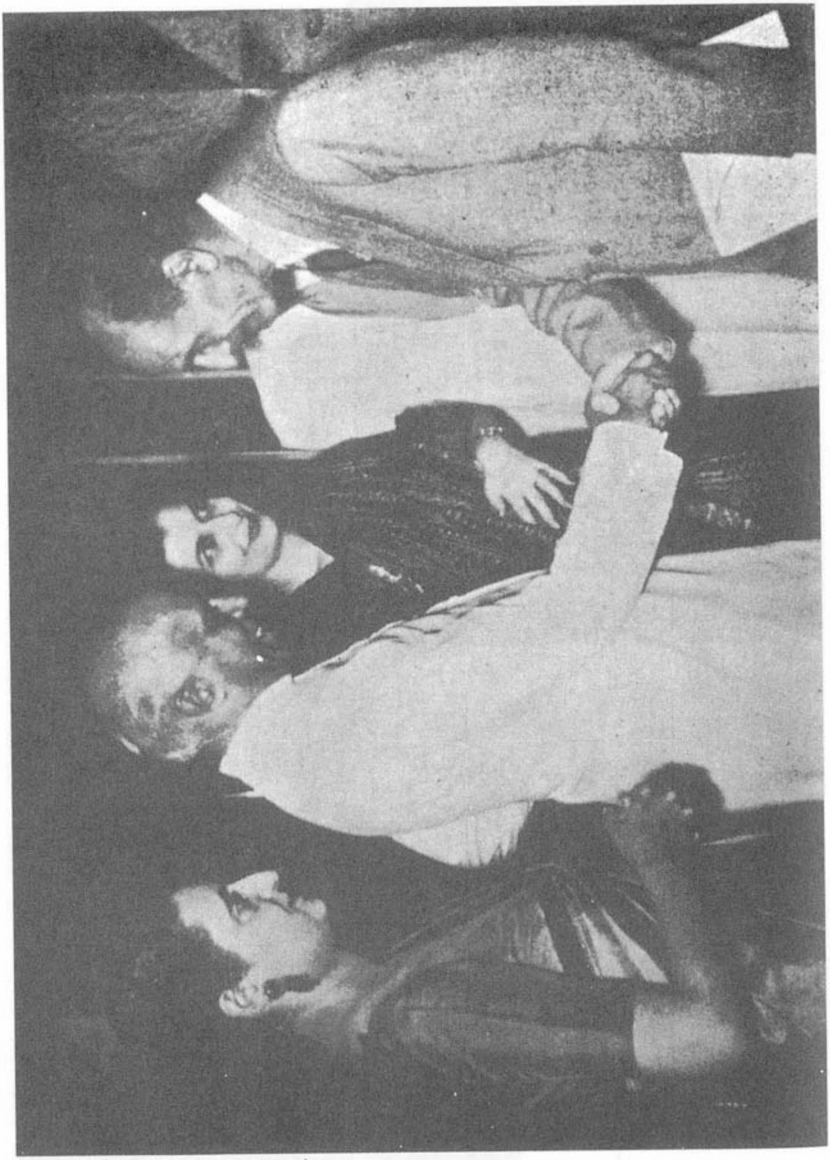

المؤلّف مع نهرو وكريمته آنديرا

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ندیم

جریر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المؤلف مع جوليان هكسلي ١٩٤٩

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

العام فبعد أيّام أو أعوام. وأنا سأموت وكلّ حيّ على وجه البسيطة سيموت. والأرض ستموت. والنجوم ستموت. ما من شيء على الإطلاق إلاّ سيأتيه يوم يتحوّل فيه شيئاً آخر. وتبقى البوتقة العجيبة التي فيها تنصهر الأشياء القديمة ومنها تولد الأشياء الجديدة. إنّها الرحم وإنّها اللّحد في آن معاً. وإنّها وحدها التي لا تموت.

ألعلّني إكراماً لنفسي ولأخي، أريد أن ينتفي الموت من الأرض؟

وماذا يحلّ بالأرض إذا انتفى منها الموت، فعاشت كلّ نبتة فيها، وكلّ حشرة، وكلّ طائر، وكلّ حيوان، وكلّ إنسان إلى الأبد؟ إنّها، بالتأكيد، لتضيق بعشبة واحدة، أو ببرغشة واحدة، أو بسمكة واحدة تنمو وتنمو بغير نهاية. وإذا لم يكن هناك نموّ كان جمود. والجمود إن لم يكن موتاً فليس حياة. وما قيمة حياة جامدة؟

وإذا انتفى الموت من الأرض كان معنى ذلك أن رحم الأرض وأرحام الكائنات الحيّة فيها باتت معقّمة ولا خير فيها، لأن الأرض لا يمكن أن تتّسع لجميع مواليدها إذا هي استمرّت في التوليد دون الموت. وإذا تعقمت رحم الأرض وأرحام الكائنات الحيّة التي فيها فكيف تعيش هذه الكائنات، وبماذا تقتات؟ وإذا هي باتت في غنًى عن القوت فالأرض إذ ذاك غير الأرض،

Twitter: @ketab_n

والحياة غير الحياة. إنّهما غير الأرض التي نكره الرحيل عنها وغير الحياة التي ننكر على الموت أن يفطمنا عن ثديها.

لا. لا. الحياة حقّ. والموت حقّ كذلك في دنيا تعجّ بالأشكال والألوان، وتزخر بالزخم والحركة، وتغتذي بعضها ببعض، ويتمّم بعضها بعضاً. فالحياة زاد الموت. والموت زاد الحياة. فلا الحياة تفنى في الموت، ولا الموت يموت في الحياة. إنّهما، في الواقع، وحدة لا تنفصم. أمّا حيث لا أشكال ولا ألوان، ولا زخم ولا حركة، ولا كائنات تتناسل، وتغذي بعضها ببعض، ويتمّم بعضها بعضاً فلا مجال للحديث عن الموت والحياة، بل عن قدرة فوق الاثنين وأبعد من الاثنين. وهي قدرة لا يطالها اليوم فكر أو خيال، ويعجز عن وصفها أي قلم أو لسان.

واحد هو نظام الحياة والموت. وواحدة هي حكمته. وواحد هو عدله وإن غابت عنّا، ونحن من التفتّح حيث نحن، ملامح تلك الحكمة وذلك العدل. وعلى الأخصّ في ما يتعلّق بمسالك الموت ومواقيته. فما تشابهت ميتتان. ولا قيل عن أيّ إنسان إنّه، قبل أن يموت بسنين، كان على علم بالساعة واليوم والشهر والسنة التي فيها سيموت. لئن غابت عنّا اليوم حكمة النظام وعدله فلن يغيبا إلى الأبد...

ولكن، لماذا تساورني خيالات الموت في هذا الصباح الزاخر

Twitter: @ketab_n

بالحياة؟ ولماذا لا أجد في نفسي القدرة على طردها؟ لقد بدا لي أخي اليوم وكأنّه أقلّ انزعاجاً من قبل. وقد طلب بعض الثلج من صنّين. وها أنا في طريقي لآتيه بما طلب. فما بال الموت يتعقّبني، ويمشي أمامي، وعن يميني وعن يساري؟

أين أنت يا يسوع؟ إنّي أناديك. أفلا تسمع؟ وأين أبوك وأبي «الذي في السموات»؟ إنّي أناديه. أفلا يسمع؟ هذا أوان العجائب يا يسوع. فاجترح عجيبة. ردّ العافية لأخي، أو اجعل ثلج صنّين أن يردّها إليه. بلى. بلى. سيجترح صنّين العجيبة!

عدت إلى البيت بُعيد الظهر وعلى ظهري، في المعطف، كميّة لا بأس بها من الثلج. إلاّ أن أخي لم يتناول غير بضعة، غْرامات» منها وضعها في فمه وراح يمتصّها على مهل. وقد شعرت بأنّه وجد لذّة في امتصاصها. وشعرت بشيء من التعزية لأنّني هيّأت له ذلك القدر اليسير من اللذّة.

قبل الغروب بقليل جاءتني سوزان تقول إنّ أخي طلب شيئاً من القهوة مع الحليب. وكانت القهوة من الأشياء المحظورة عليه. فأرسلت في طلب الطبيب الذي ما لبث أن حضر. ومن بعد أن فحص المريض التفت إليّ وقال بالإنكليزيّة.

«حرام أن تمنعوا عنه الآن أيّ شيء. مهما طلب فأعطوه. دعوه يمضي غير محروم من أيّ شيء يشتهيه.»

Twitter: @ketab_n

ساعدتُ أخي ليجلس في سريره ويشرب القهوة التي اشتهاها. ولكنّه لم يبلغ من الفنجان أكثر من نصفه. ومن بعد أن عاد فألقى برأسه على الوسادة مدّ إليّ طالباً يدي. ومدّ يده الأخرى إلى زوجته الواقفة إلى الجهة الثانية من السرير. ورفع بصره إليّ ثمّ حوّله إلى زوجته كأنّه يوصيني بها. وأحسست يده في يدي ترتخي وتهرب منها الحرارة. ثمّ أبصرت صدره يرتفع قليلاً. وأبصرته ينخفض فلا يعود ويرتفع. وأبصرت الشفتين تنفرجان لتنطلق من بينهما النسمة الأخيرة، والعينين تنفتحان نصف انفتاحة وتجمدان بين أجفانهما.

فأطبقتُ العينين الحبيبتين، ومن يدري على أيّ الرؤى أطبقتهما؟ وقبّلت اليد التي في يدي. وجثوت بجانب السرير والدمع في قلبي صامت صمت اللسان في فمي.

Twitter: @ketab_n

الفُلك

لم يربح الموت جولته معي. فقد خرجت منها ودرعي لم يخرقها أيّ سهم من الشكّ في حكمة النظام السرمديّ وعدله. وكانت لي قبل ذلك بعامين جولة أخرى مع الموت عندما أطبقت بيدي أجفان أخ آخر لي وكان أخاً لم تلده أمّي. أمّا اسمه فجبران خليل جبران.

ولكنّ ما لم يربحه الموت في جولته معي ربحه، إلى حدّ بعيد، مع أمّي وأبي وأخي وأختي وزوجة أخي. وربحته التقاليد السمجة، القاسية، الكافرة التي ترافق الموت عندنا. فقد بات أهلي وكأنّ الأرض هربت من تحتهم، والسماء هوت عليهم من فوق. فلا هم تجفّ لهم مقلة. ولا «المعزّون» يسمحون لمقلهم أن تجفّ. ولا هم يأبهون بما علّمهم دينهم من أن الأجساد للفناء أمّا الأرواح فللبقاء. ولا أنا أهتدي إلى الكلمة التي تستطيع أن تبرّد أكبادهم وتبلسم قلوبهم. وكلّ ما أمكنني فعله هو أن أحرّم عليهم لبس الحداد. إلاّ أمّي. فقد أبت أن تلبس غير الأسود القاتم حتى آخر حياتها.

قد يكون في موت إنسان من النّاس ما يبرّر حزن ذويه عليه. ولكنّني لا أعرف أيّ مبرّر للحزن يقرع الصدور، ويلطم

Twitter: @ketab_n

الخدود، ويمزّق الثياب، وينتف الشعور، ويتمرّغ على الأرض، وينتحب ويُعول، ويعاتب ويستغيث. حتى كأنّ الذي مات كان أوّل مَن مات وسيكون آخر مَن يموت منذ بدء الخليقة. وإذا كان في الأرض ظاهرة تتكرّر بغير انقطاع فتلك الظاهرة هي الموت. أفما آن للنّاس أن يألفوها وأن يستعدّوا لها؟ ذلك هو العجب العجاب.

ولا أنا أعرف أيّ مبرّر للنادبات يتحلّقن حول جثّة الميت ويمضين يتشدّقن بأتفه الأقوال ينغّمنها تنغيماً يصمّ الآذان:

«حارتك سيدي عاليّه عاليه ما هي وطيّه»

وأقصى ما يتوخّينه هو استدرار الدمع من مآقي أهل الميت ومآقي النسوة الحاضرات يذكّرنهن بأمواتهن.

كذلك لا أعرف مبرّراً لتعازي المعزّين يتوافدون على دار الميت ليقولوا لذويه: «العوض بسلامتكم»، أو «اللّه يرحمه ويبقيكم»، أو «انشا اللّه بيكون خاتمة أحزانكم». وكيف «يبقيهم» اللّه؟ ألعلّه أبقى غيرهم ليبقيهم؟ أم لعلّهم المختارون الذين لن يعرفوا الموت؟ وكيف يختتم اللّه أحزانهم؟ ألعلّه صوّن حتى اليوم إنساناً من الحزن؟

والأسخف من ذلك أن يتخذ الحزن لنفسه شارة مميزة. وتلك الشارة هي السواد. فكأنّه يريد أن يقول للنّاس: «أنا الحزن

Twitter: @ketab_n

أيّها النّاس. فحذار أن يبسم أحدكم في حضرتي أو يضحك. وحذار أن ينقر وتراً أو يرفع صوتاً بالغناء. ففي ذلك حطّ من كرامتي، وتجديف عليّ، وعبث بشعوري، وقلّة احترام لي.»

والذي يبدو لي هو أن الحزن سوس ينخر القلب فيشلّ العزيمة ويضيّق آفاق النفس. فحريّ بالحزانى أن لا يناموا عليه مثلما هم لا ينامون على السوس في أضراسهم. ألعلّ الضرس أكبر شأناً في حياتهم من القلب؟ وإذ ذاك فعلاج الحزن هو الفرح لا لبس الحداد.

أمّا السخافة السخافة - أو السخافة الكبرى - فهي أن يغدو الموت، في الشرق وغير الشرق، مناسبة يستغلّها أهل الميت لإظهار ما لهم من مكانة سياسيّة أو اجتماعيّة أو ماليّة. فإذا هم وزّعوا الكثير من النعوات ذات الإطار الفاحم، العريض؛ وإذا كثرت البرقيات والأكاليل التي تردهم؛ وإذا كثر المشيّعون وكان بينهم عدد من ذوي الجاه والنفوذ والمكانة؛ وإذا كان التابوت من «الفخامة» بمكان فقيل في المأتم إنّه كان مأتماً «حافلاً ومهيباً»، اعتزّ أهل الميت أيّما اعتزاز، ولم يبقَ من الحزن عندهم غير الحداد على أبدانهم. حتى على الموت يدجّل المدجّلون، وبالموت يتاجر المتاجرون، ويتخذون الموت حيلة لكسب المجد الرخيص!

مات أخي، فدفنّاه في تابوت بسيط جدّاً صنعه نجّار من

Twitter: @ketab_n

القرية. وكان موته حلقة في سلسلة حياته. وسلسلة حياته، في اعتقادي، لم تبتدئ ساعة وُلد ولم تنقطع ساعة مات. وبقي مَن بقي من أهله حيًّا. وفي جملتهم أنا. والأحياء مطالَبون بمسؤوليات نحو الأحياء. وعليّ أن أقوم بمسؤولياتي. ومن الأكيد أن الحزن لن يكون لي عوناً في القيام بمسؤولياتي. ومن الأكيد كذلك أن أخي الذي مات لا يرضى لي أن أنام عن مسؤولياتي، وأن أستسلم للحزن، لقد انطوت صفحة من كتاب عمري. فلنبدأ التي بعدها.

انتقلت العائلة في ذلك الصيف، جرياً على عادتها في كلّ صيف، إلى الشخروب. وفي الشخروب أخذتُ أفتّش لي عن خلوة غير الخيمة التي ذكرتها في فصل سابق. فقد كانت تطلّ على الطريق العام. وكانت الأصوات الصاعدة إليّ من الطريق تعكّر عليّ الهدوء التام الذي كنت أبتغيه. فما عتّمت أن اهتديت إلى خلوة لو شئت أن أتخيّل أبدع منها لما استطعت.

إلى الغرب من الشخروب، وعلى بعد كيلومتر منه، تقوم بقعة من الأرض سكّانها الصخر والشجر والشوك والحشرات والزحّافات والعصافير. ولا تخلو من الثعالب وبنات آوى، ومن النسور تزور صخورها العالية من حين إلى حين. وقد يمرّ الأسبوع والشهر ولا يُسمع فيها وقع رجل بشريّة أو صدى صوت بشري.

Twitter: @ketab_n

والداخل إليها، إذا كان يملك شيئاً من رهافة الذوق والحسّ والخيال، لا بدّ من أن يشعر برهبة الأجيال السحيقة تواكب كلّ خطوة من خطواته، وكلّ خاطرة من خواطره، فيبدو له أنّه في أرض ساحرة ومسحورة وكأنّها أسطورة من الأساطير.

لقد تناثرت الصخور في تلك البقعة بغير انتظام. وكلّها من الكلسي الرمادي اللون. وتناثرت في أشكال تثير الدهشة وتزدري بخيال أيّ شاعر أو فنّان. ففي حين يعلو بعضها عن الأرض بضع قامات، يلتصق الآخر بالتراب فلا يرتفع عنه فوق الشبر. وهذه الصخور، العملاق منها والقزم، لا يتشابه اثنان منها. بل لكلّ منها شكله الخاصّ. فهذا يذكّرك بالفيل، أو بالدبّ، أو بالأسد الرابض. وذاك يعود بك إلى حيوانات كانت قبل الطوفان وقبل التاريخ. وهذاك يبدو لك وكأنّه خابية هائلة للنبيذ. هنا مئذنة، وهناك دبّابة، وهنالك رأس بشريّ كذلك الرأس الذي اتخذته فيما بعد مثالاً لِ «شمادم» المتحجّر في «كتاب مرداد»، والذي وضعت رسمه على غلاف الكتاب.

إنّها، في الواقع، صخور صلبة، قاسية، باردة. ولا شيء أكثر من صخور. ولكنّك، إذا فتحت لها قلبك ونظرت إليها بعين غير عينك المألوفة، تكشّفت لك عمّا هو أعمق بكثير من مفهومك العادي للصخر. فكأنّ في وجه كلّ منها، وفي قلبه،

Twitter: @ketab_n

حكايات وحكايات لو كانت لك الأذن لالتقاطها لأذهلتك وشغلتك حتى عن نفسك. وعلى الأخصّ عندما تبصر الأشجار التي تلتصق بتلك الصخور التصاق الأطفال بصدور أمهاتهم. فتكاد تسمع ما تقوله الصخرة للشجرة والشجرة للصخرة. وتكاد تحسّ ما في ذلك القول من تعاطف وتفاهم.

وإذا أنت سلكت في المنفرجات الضيّقة هنا، والواسعة هناك، التي تفصل بين صخر وصخر، أو بين جماعة وجماعة من الصخور، شعرت كما لو كنت تسلك دروباً في مدينة نبتت في غياهب الماضي وباتت اليوم خراباً. وشعرت برهبة السكينة المخيمة فيها. وعلىالأخصّ إذا خُيّل إليك أنّك عرفت تلك المدينة في زمان زهوها وعتوّها، وأنّك عدت اليوم لتستحمّ وتستجمّ في ظلال أنقاضها.

في قلب تلك البقعة الساحرة بجمالها وجلالها وهدوئها وعذوبة شمسها وهوائها قامت صخرة عاتية، شامخة تشبه، من إحدى جهاتها، سفينة في بحر. واللّه أعلم كم أفنت الطبيعة من السنين في تكوين تلك الصخرة، ثمّ في تفتيت قلبها الصلد بحيث بات فيه فراغ بطول أربعة أذرع، وعرض ثلاثة، وعلوّ عشرة؛ وبحيث بات له مدخل واسع وعالٍ من الجنوب. وآخر ضيّق وواطئ من الشمال وإلى جانبه نافذة غريبة الهندسة،

Twitter: @ketab_n

جميلتها. ذلك بالإضافة إلى الكثير من الرفاريف والتجاويف عن جوانب ذلك الفراغ؛ وبالإضافة إلى طبقة رقيقة من التراب تغطي أرضه وقد نبتت فيها شتى الأعشاب البرّيّة.

تلك الصخرة اتخذتها صومعة لي في النهار. واتخذت من الحجارة مقاعد، ومن ركبتي منضدة للكتابة. وفي قلب تلك الصحرة رحت أنفق، في كلّ يوم من أيّام الصيف، ساعات في التأمّل، وساعات في التأليف. وهناك رحت أستقبل الكثير من الزوّار الذين أخذوا يفدون إليّ من جميع الأقطار العربيّة وغير العربيّة. وبينهم رجل الأدب، ورجل السياسة، ورجل الدين، ورجل الصناعة والتجارة، والرجل الذي لم يكن له من دافع سوى الفضول. ولأنّ صومعتي كانت خالية من كلّ أثاث إلاّ الذي أعدّته لها الطبيعة فقد كنت أدعو زوّاري إلى الجلوس على الحجارة مثلي.

والغريب في أمر تلك الصومعة أنّني عندما سئلت أن أعطيها اسماً كان أوّل ما تبادر إلى ذهني «الفُلْك» - فلك نوح. فقد رحت أشعر، وأنا في قلب تلك الصخرة، أنّ أمواج العالم الصاخبة تتكسّر على عتبتها وجوانبها وترتدّ خائبة كما كانت تتكسّر وترتدّ أمواج الطوفان عن فُلك نوح. وأمواج العالم هي شهواته. وأعنفها، في اعتقادي، تلك التي، بعد سنين، جئت على ذكرها في كتابي«كرْم على درب» حيث قلت:

Twitter: @ketab_n

«من زمان دفنت خمساً من شهواتي الخمس والخمسين: شهوة السلطان. وشهوة الغِنى. وشهوة النساء. وشهوة الشهرة. وشهوة الخلود.

«وصباح أمس تذكّرت دفائني فعنّ لي أن أزور المقبرة. فوجدت فوق القبر الأوّل تاجاً عليه مداس. وفوق الثاني كومة من التبر اتخذتها جماعة من النمل قرية لها. وفوق الثالث زنبقة بيضاء، هيفاء تتسابق أسراب من الفراش إلى شمّها ولثمها. وفوق الرابع جيفة عجوز شمطاء تنهشها الديدان والغربان والأفاعي. أمّا الخامس فوجدته مفتوحاً ولا دفينة فيه».

ومعنى ذلك أن الشهوة الوحيدة التي لم أستطع التغلّب عليها هي شهوة الخلود. فهي في طبيعة الحياة التي منها حياتنا وما يلازمها من أحاسيس وأفكار وتخيّلات وأشواق لا تنفك تدفعنا على الحركة والتفتيش وكأنّ الأبد مداها. إنّها تأبَى الانكفاء والانحدار والاستسلام، ولا ترضى من الغنيمة بأقلّ من الخلود. ولست أعني بالخلود أن يخلد الإنسان في أعماله. بل في روحه.

وأمّا الشهوات الأربع الباقية فثلاث منها فضحها الموت شرَّ فضيحة إذ كشف كلّ ما فيها من زيف. وهذه هي شهوة السلطان، وشهوة الغنى، وشهوة الشهرة. فالسلطان الذي رمزت إليه بالتاج بات والمداس خير منه وأشرف. والثروة التي مثّلتها

Twitter: @ketab_n

بالتبر باتت وقيمتها قيمة التراب. والشهرة تكشّفت عن جيفة نتنة. أمّا الشهوة الجنسيّة فقد تحوَّلت بالموت إلى شيء جميل جدّاً - إلى زنبقة بيضاء، هيفاء، رمزتُ بها إلى العفّة.

لقد أصبحت، في الواقع، أتألّم لتهافت النّاس على السلطة، وأتقزّز من الوسائل الشيطانيّة التي يعتمدونها في الوصول إليها، ومن الوجوه المستعارة التي يلبسونها وهم في دسوت الحكم، كيما يستدرّوا تبخير النّاس وتبجيلهم، وكيما يظهروا في عيون النّاس كما لو كانوا من طينة أشرف من طينة النّاس. فما أبعدهم عن سموّ الناصري في قوله لتلاميذه: مَن أراد أن يكون فيكم سيّداً فليكن للكل خادماً!

وإنّي لأذكر مرّة جاءني فيها وفد من وجهاء بسكنتا وجوارها قائلين إنّهم يعتزمون النزول إلى بيروت لتقدمة تهانيهم إلى «فخامة رئيس الجمهورية» المنتخب حديثاً، وإنّهم يرغبون إليّ أن أرئس وفدهم، وأن ألقي كلمة التهنئة نيابة عنهم وعن بسكنتا وجوارها. فضحكت وقلت لهم: «لو أنصفتم الرجل لقدّمتم إليه التعازي لا التهانئ. ولو أنصفتم أنفسكم لترفّعتم عن التهانئ والتعازي. لينصرف «فخامته» إلى عمله دون ضجّة كما تنصرفون أنتم إلى أعمالكم دون طبل وزمر. فلولا أعمالكم لما كان عمله. أنتم تخلقون حكّامكم. فلا تدعوا المخلوق يتعالى على الخالق.»

Twitter: @ketab_n

وأذكر مرّة كان فيها لبنان يخوض ما يدعونه «معركة» انتخابات نيابيّة. فجاءني رسول من قِبَل «سياسي كبير» يتوسّل إليّ أن أرشّح نفسي للنيابة في قائمة ذلك السياسي. وأكّد لي الرسول أنّه لن يُطلب إليّ إلاّ إعلان ترشيحي. وأن النيابة ستأتيني إلى بيتي من غير أن أحرّك ساكناً أو أنفق فلساً. ومع النيابة الوزارة. وأنّ من وراء السياسي الكبير دولة أجنبيّة ذات حول وطَول. وأنّها هي التي ارتأت ترشيحي. فكان جوابي للرسول:

«بيني وبين السياسة يا صاحبي مثل ما بين الزيت والماء. وإذا أنا ربحت النيابة والوزارة خسرت نفسي، وهدمت في لحظة ما بنيته في سنين. ونفسي أعزُّ لديّ من أيّ منصب سياسي. والذي بنيته أحبّ إلى قلبي وأجمل في عيني من أن أضحّيه في سبيل نيابة أو وزارة. هكذا قل للذي أرسلك وللدولة التي من ورائه.»

ولكن «السياسي الكبير» لم يقنط. فالتجأ إلى رسول ثانٍ ظنّه أكثر دالّة عليّ، وأقوى حجّة من الأوّل. فلم يكن نصيبه خيراً من نصيب الذي سبقه.

هذا من حيث شهوة السلطان. أمّا شهوة الغنى فقد أصبحتُ، كلّما فكّرت في المال، تعروني قشعريرة من هول الشرور التي بذرها الفلس في العالم. فهو ربّ الحروب، وخالق النزاع، ومفسد الضمائر، وقاتل الخُلُق الكريم، والمعبود الذي لا يقبل شريكاً له في

Twitter: @ketab_n

عبادته. والويل ثمّ الويل لمن سوّلت له نفسه أن يجحده ويكفر به. إذ انّ منه الرغيف، ومنه القميص، ومنه العلاج والدواء، ومنه حتى الماء والنور والهواء، وألف حاجة وحاجة من حاجات الإنسان في هذا الزمان. فكيف تجافيه، أو تتهرّب منه، أو تكبر عليه؟

إلاّ أنّني ما تعبّدت يوماً للفلس، ولا مكّنته من قلبي وفكري، ومن زمام حياتي. بل كنت، وما برحت، أقنع بما يأتيني منه «جزاء» عمل أعمله ولا أخجل به أمام نفسي وأمام النّاس، ولا هو يحرفني عن الطريق الذي اخترته لنفسي وعن الهدف الذي أقمته لها في نهاية ذلك الطريق. أمّا أن تكون لي ثروة طائلة فأمرٌ ما تمنيته في أيّ طور من أطوار حياتي. لأنّني أرى في الثروة بليّة لا عطيّة، وأرى المال مشحوناً بالأدران والرزايا، إلاّ إذا طهّرته نية صالحة وعمل صالح. وما زلت أذكر يوماً كنت فيه فارغ الجيب تقريباً فجاءني من يعرض عليّ عشرين ألف ليرة نقداً وعدّاً إذا أنا رضيت أن أقوم ببعض الدعاية لدولة من الدول. ولم تكن دعاية تسيء بشيء إلى سمعتي. ولكنّها كانت تسيء إلى وجداني، وإلى النهج الذي انتهجته لحياتي. وهو يؤثر الفقر مع صفاء القلب والروح على الغنى يكدّر القلب ويشلّ الروح في سعيه إلى التخلّص من أثقاله والانفلات من قيوده. فلا حاجة إلى القول إنّي رفضت العرض بازدراء.

Twitter: @ketab_n

وأمّا شهوة الشهرة فقد كانَ لها في أوّل عهدي بالكتابة مركز الموجّه الأوّل والقائد الأعلى في حياتي. ولا عجب، فمنذ أن وعيت نفسي والطموح إلى التفوّق على أقراني يلازمني بشكل عنيف، فلا أجرؤ على البوح به لأحد مخافة الفشل والخذلان. وهذا الطموح اتخذ له لوناً ووجهة حتى إبّان دراستي في الناصرة. وتبلور وتركّز في السنوات التي أمضيتها طالباً في روسيّا. ولم يبقَ أقلّ شكّ عندي أن الميدان الذي كان يغريني أن أكسب فيه شهرتي هو ميدان الأدب وحده.

عندما بدأت أكتب كنت أتلقّف بشوق ولهفة كلّ كلمة تقدير وإطراء تسمعها أذني، أو تقع عليها عيني في الصحف، وفي الرسائل التي أخذت تردني من القرّاء. وكان يُدخل السرور إلى قلبي مجرّد التفكير في أنّ ميخائيل الذي وُلد نكرة من ملايين النكرات، وفي بلد مغمور بين بلدان الأرض، قد راح يتدرّج أعلى فأعلى حتى أصبح من الذين «يشار إليهم بالبنان ويتحدّث بذكرهم الرّكبان». إلاّ أنّني لم أكتب يوماً من الأيّام، وفي أي موضوع، بدافع الشهرة وحدها، بل بدافع من حاجة في نفسي لذلك. فالمهمّ أن أصدق في التعبير عن تلك الحاجة. فإذا هي زادت في شهرتي كان خيراً. وإلاّ فما أنا بالنادم على ما كتبته وكنت فيه صادقاً مع نفسي ومع القارئ.

Twitter: @ketab_n

هكذا كان حالي مع الشهرة قبل عودتي إلى لبنان، وقبل أن احتوتني «الفُلك» في سفح صنّين. ومن بعدها أخذت أحسّ الشهرة عبئاً ثقيلاً ومسؤوليّة كبيرة. فليس يغريني اليوم أن يتردّد اسمي في الصحف وعلى ألسنة النّاس، وبشيء من التجلة والإكبار. ولا يوجعني أن يأتي مقروناً في بعض الأحيان بشيء من النقد والتجريح. ويسعدني أن أرى البذور التي أبذرها على صفحات الكتب ومن على المنابر تنبت في قلوب الكثير من النّاس وتأتي بثمار طيّبة. لذلك أستطيع القول صادقاً إن شهوة الشهرة باتت من الشهوات الخمس العنيدة التي تحطّم عنادها وانكسرت شوكتها في نفسي.

بقيت الشهوة الجنسيّة التي هي، دون شكّ، من أعند الشهوات البشريّة وأعنفها. وهذه كذلك أسلست لي قيادها من بعد أن صرفت عنها فكري وقلبي إلى ما هو أسمى منها بكثير. فما بقيت أنظر إلى المرأة نظرة الذكر إلى الأنثى. بل نظرة الرجل المؤمن بأن ناسوته وناسوت المرأة يتمّم واحدهما الآخر لا بتزاوج جسديهما بل بتزاوج روحيهما، وأنّ التزاوج الجسدي يحول دون التزاوج الروحي. ولذلك انتفت من حياتي فكرة الزواج وباءت بالفشل مساعي فتيات كثيرات تودّدن إليّ بقصد الزواج. وهذه النظرة هي، بالطبع، غير قابلة «للتصدير». فهي إذا أرضتني

Twitter: @ketab_n

وصلحت نهجاً لحياتي لن ترضي الأغلبيّة الساحقة من قرائي، ولن تصلح نهجاً لحياتهم. وأنا ما جئت على ذكرها إلاّ لأنّني أحدّث عن نفسي وليس عن جميع الناس.

في «الفُلك» - وقد غلب عليها فيما بعد اسم «الكهف» - وضعت الكثير من مقالاتي ومؤلّفاتي. ومن بينها «البيادر» و«كتاب مرداد» و «جبران خليل جبران». وهذا الأخير كان أوّلها. فحريّ بي أن أحدّثك عنه وعن الضجّة التي أثارها - ولا يزال.

Twitter: @ketab_n

«جبران خليل جبران»

عندما قرّ رأيي على وضع كتاب عن جبران لم أشأ أن أنهج فيه النهج المبتذل في كتابة السيرة. فما أنا بالمؤرّخ أو البحّاثة يجمع شتيت الأخبار والصور ثمّ يعرضها عليك مسلسلة في الزمان ويردّك في آخر الكتاب، أو على هوامشه، إلى مصادرها. ولكنّني رجل عاشر جبران خمسة عشر عاماً، فخبزه وعجنه، وعرف اتجاهاته الفكريّة والفنيّة، وخبر طباعه ونزواته، وتغلغل حتى في صميم روحه. وما كان ذلك بالمستطاع لولا تقارب عجيب بين تفكيره وتفكيري في شؤون الحياة والموت، وبين ذوقه وذوقي في ما يتعلّق بالأدب ورسالته. ولولا ذلك التقارب في الفكر والذوق والروح لما أقدمت على وضع كتاب عنه لأصوّره فيه كما عرفته تماماً. فكتابي صورة حيّة له لا سرد جافّ لبعض الأحداث في حياته.

ومن ثمّ فأنا ما اخترت الكتابة عن جبران إلاّ لأن في حياته من المشكلات الروحيّة والماديّة ما يشبه إلى حدّ بعيد المشكلات التي واجهتها في حياتي. فكلانا يؤمن بأن وراء المحسوسات قوّة لا يطالها الحسّ، فهي الجوهر والمحسوسات أعراض لا غير. وهي المصدر والمآب، والموجّه والمنظّم والمدبّر، ولن يدركها الإنسان إلاّ

Twitter: @ketab_n

إذا صفا من أدران المادة. وهو لا يصفو إلاّ بالخبرة تتنوّع وتكرّر عمراً بعد عمر. وكلانا يتخذ من الكلمة أداة للتعبير عن ذلك الإيمان، فيأبى عليه إيمانه وذوقه أن يجعل منها أداة للحذلقة والتدجيل والتبرّج؛ ويأبى أن تتجمّد الكلمة في قوالب تسلبها مرونة الحركة وزخم الحياة. وذلك لا يمنع أن تكون لكلّ منّا طريقته الخاصّة في استعمال تلك الأداة. أي أن يكون لجبران أسلوبه ولي أسلوبي.

ليس في الأرض كلّها ما يغريني على وضع كتاب عن جنكيزخان – مثلاً – أو عن نابوليون. إذ ان حياتي أبعد ما تكون عن حياتهما. ولكنّني لست في حاجة إلى أيّ إغراء غير الدافع الباطنيّ لأكتب – مثلاً – عن بوذا ولاوتسو وأفلاطون والمسيح وأغسطينوس وغيرهم من رجال الفكر والروح لأنّ في حياتهم ما يتوافق ونظراتي إلى الحياة. ولولا أنّني وجدت في حياة جبران ما يمكّنني من تطبيق نظراتي في الحياة إجمالاً، والحياة البشريّة بالأخصّ، لما أقدمت على وضع كتابي عنه.

في حياة كلّ منّا ما يمكن أن يسمّى «الهيكل العظمي»، وعظام هذا الهيكل هي النواتئ البارزة في حياته والتي في استطاعة المؤرّخ أن يُلمّ بها. أمّا اللّحم الذي يكسو الهيكل، والدم الذي يجري في ذلك اللّحم فلا يستطيع خلقهما المؤرّخ.

Twitter: @ketab_n

ويستطيعه الفنّان. وأنا في كتابي عن جبران، وبخاصّة في ما دعوته «خيالات بشرّي» و «خيالات بوسطن» لم أكن «مؤرّخاً» بقدر ما كنت فنّاناً. فاليوم والشهر والسنة والبلدة التي وُلد فيها جبران ثمّ اسم أبيه وأمّه وأخيه وشيء من صفاتهم - ذلك «تاريخ». أمّا ما قالته القابلة ساعة الولادة، وما قالته الأم، وما قاله وفعله الوالد والجيران فذلك كلّه لحم ودم من عندي. وكذلك هجرة أمّ جبران وأولادها الأربعة إلى أميركا، واستيطانهم الحيّ الصيني في بوسطن، والتقاء جبران بماري هاسكل، وعلاقته الغراميّة مع ميشلين، ووفاة أخيه وأخته ووالدته بداء السل، وعرضه الزواج على ماري هاسكل إلخ - ذلك أيضاً «تاريخ». أمّا وصف الحيّ الصينيّ، وما دار من أحاديث بين جبران وأمّه وأخيه وأختيه، وبينه وبين ميشلين وماري هاسكل، وبينه وبين نفسه فذلك لحم ودم من عندي.

ولحم ودم من عندي هو الحلم الذي جعلت ماري هاسكل تحلمه ليلة ولادة جبران. وهي في أميركا وليس لها من العمر أكثر من عشر سنوات، ولا رابطة، في الظاهر، تربطها بالمولود الجديد، البعيد، الغريب. أمّا قصدي من خلق ذلك الحلم وإقحامه في الكتاب ليلة مولد جبران فهو إثارة اهتمام القارئ، والتمهيد للساعة التي يلتقي فيها جبران وماري هاسكل، ثمّ التلميح إلى أنّنا

Twitter: @ketab_n

لا نولد، كما يتوهّم البعض، ونحن كالورقة البيضاء لم يُخطّ عليها شيء. بل نولد وبيننا وبين الكثير من النّاس والأمكنة والمخلوقات روابط خفيّة لا نحسّها حتى الدقيقة التي تطفو فيها من اللاوعي إلى الوعي. وهذه الروابط تلازمنا من اعمار سابقة. فهي ليست «مصادفات» بل تكملة لعلاقات غابت عن وعينا ردحاً من الزمن.

في ذلك القسم من الكتاب الذي أصوّر فيه حياة جبران قبل أن عرفته جعلته ينطق بأشياء وردت في بعض كتاباته وأشياء لم ترد على لسانه أو قلمه. ولكن بطريقة تنسجم كلّ الانسجام مع ذاتيّة جبران وميوله وطباعه وتفكيره وانفعالاته. أمّا في القسم الذي أصوّر فيه حياته من بعد أن تلاقينا في نيويورك سنة ١٩١٦ فكلّ ما أرويه من أحداث وأحاديث يكاد يكون «نسخة طبق الأصل».

والغريب في الضجّة التي ثارت حول الكتاب أنّ معظم الذين أثاروها لم يعرفوا جبران، ولا هم قرأوا إلاّ القليل من مؤلّفاته. ولكنّهم كانت لهم القحة أن يجادلوني في أن جبران الذي صوّرته هو غير جبران «الحقيقي». فمنهم مَن رسخ في ذهنهم أن جبران منزّه عن كلّ عيب، وأنّه نبيّ لمجرّد أنّه ألّف كتاباً دعاه «النبيّ». ومنهم مَن عاب عليّ «فضح» أسرار جبران

Twitter: @ketab_n

في علاقاته الجنسيّة مدّعياً أن في ذلك خرقاً لحرمة الصداقة التي كانت تشدّني إلى جبران. ومنهم - وذلك منتهى السخافة - مَن رأى في صراحتي حطّاً متعمّداً من منزلة جبران الأدبيّة لترجح كفّتي على كفّته. وهناك واحد بلغ به اللّؤم حدّاً لم يتورّع معه عن القول بأنّني «انقلبت» على جبران لأنّه لم ينلني شيء من المال الموزّع في وصيّته! وما حيلتك مع أمثال هؤلاء النّاس إذا كنت أنت في واد وهم في واد، وكانوا يأبون إلاّ أن يقيسوك بذراعهم، ويكيلوك بصاعهم؟

لذلك سكتُّ عنهم جميعاً. ولكنّني لم أستطع السكوت عن «كتاب مفتوح» وجّهه إليّ أمين الريحاني على صفحات جريدة كانت تصدر يومئذٍ في بيروت باسم «البلاد». وإليك ما جاء في ذلك الكتاب:

«الفريكه، ٦ كانون الثاني سنة ١٩٣٤

أخي ميخائيل حفظه اللّه،

تفضّلت فأهديتني نسخة من كتابك «جبران خليل جبران» فأشكرك، وأدعو لك بالمزيد من الإثمار الأدبي. ولكني رأيت في جذع شجرتك أثراً للسوس، أخشى عليها منه، وجئت أعلمك بذلك لأنّي معجب بها وبثمارها.

Twitter: @ketab_n

وبكلمة لا استعارة فيها، لقد بان لي، وأنا أطالع الكتاب، أنّك ما أشفقت على أدبك من أنانيّتك وممّا أمسى عندك، على ما يظهر، شبه مهنة. فأنت الداعي لمبدإ الحلول والتوحيد الكليّ، ممّا لا تستقيم الأنانيّة معه أو تدوم. وأنت المشفق على النّاس من ألسنة الأدباء وأقلامهم.

فكيف أوفّق بين هذا النُّبل فيك وما كتبته في صديقك وحبيبك جبران؟ إن في كتابك يا أخي ما يؤلم حتى الذين ينظرون إلى آثار جبران نظرتك الأدبيّة السديدة، الجامعة بين الجميلين: الإعجاب والإنصاف. فهلاّ خشيت أن تقع في ما تعيب به جبران، وأنت تحاسبه في الصغيرة والكبيرة، الظاهرة والخفيّة من أعماله الشخصيّة والأدبيّة والفنيّة؟

أرجوك أن تعود في كتابك إلى صفحتي ١٣١ و ٢١٥ مثلاً. ثمّ إلى صفحة ١٤٤ واقرأها كلّها ناقداً كأنّها لسواك. فترى إذ ذاك وأنت العادل في أحكامك الأدبيّة، أن التعميم ذميم. وأن محاسبة المرء نفسه لأوجب عليه من محاسبة سواه[١].

وما كان أغناك عمّا كتبت في صفحات ٦٣ و ٦٤ و١٠٤ ١٠٥ و ١١٦ وفيها تلاوص على قلب أخيك في محنه، فتجرح

(١) الصفحات المذكورة هي من طبعة الكتاب الأولى.

Twitter: @ketab_n

قلوب محبّيه، ثمّ تكشف الستار بيد التعسّف عن أمور هي تافهة، أو محض شخصيّة لا حقّ للنّاس بالاطّلاع عليها.

ومَن قال لك ما «قال جبران في قلبه»؟ أجبران نفسه الذي تصفه أنت، ونعرفه نحن، حريصاً على ما بقلبه، شديد التكتّم والتستر؟ فإذا كان «في أعماق أعماقه أمنية لا يجرؤ أن يبوح بها حتى إلى نفسه» كما تقول، فكيف يبوح بها إليك أو إلى سواك؟ وإذا لم يكن قد باح بها إلى أحد من النّاس، فمن أين جاءك العلم إن لم تكن قد أصبحت صنواً للعالم بذات الصدور، سبحانه وتعالى؟

إنّ هذه الناحية من كتابك لا تفيد أحداً، وهي لا تزيد بأدب جبران أو تنقص منه. ولا تزيد بقيمة كتابك، بل تنقص كثيراً منها. هل يجوز لي أن أتجسّس قلب من أخلص لي الحبّ وأن أذيع ما يبيحه لي في ساعة «يأسه» أو ساعة تمتزج نفسه بنفسي امتزاج الراح بالماء؟

لقد وثق جبران كلّ الثقة بك، فكان يحيّي فيك «القلب الكبير والروح الطيّبة». أفما كان أجدر بهذا القلب أن يتّسع للضعف البشري في أخيك وحبيبك؟

إن في صفحة ١٠١ من كتابك ثلاثة أسطر لجبران تفصح عن أسمى العواطف الروحيّة وأشرفها. فيا ليتك جعلتها ميزاناً لأحكامك في اعماله الشخصيّة.

Twitter: @ketab_n

أنت تعلم أنّني لم أكن قريباً من جبران قربكم في السنوات العشر الأخيرة من حياته. ولكنّني عرفته قبل أن عرفتموه، وأحببته قبل أن أحببتموه، وسبرت بعض اعماق قلبه قبل أن جعلتم سبر القلوب مهنة لكم. وما كنت، وما كان من السيكولوجيّين في الأمور الشخصيّة - القلبيّة. لا، أنا لا أطمئن، ولا أظن جبران كان يطمئن، إلى هذه «العمليات» السيكولوجيّة التي يكثر فيها التعسّف، والسخافة، وهي لا تزال حتى في أجلّ وأجلى أحوالها من النعم العلميّة المريبة.

إنّي أحفظ، وسأحفظ ما دمت حيّاً أطيب الذكريات لحبّ نشأ في باريس ولندن، ونما ونوَّر في شارعين متقاربين بنيويورك، وعرف شيئاً من مكنونات قلبين غريبين في بلاد الغربة، ومن آمال روحين ساميتين تنشدان الحقيقة والجمال، ومن أباطيل نفسين ساذجتين في مدينة قلنا فيها قبلك ما قلته أنت اليوم.

ولست أذكر من تلك الأيّام الجميلة، أيّام كنّا أنا وجبران نأكل في نزل صغير حقير في «الآفنيو» السادس، ذلك الجحيم في قتامه وازدحامه وضجيجه، ثمّ نعود إلى كوخي، أو إلى صومعته، فنجلس على ديوان المجد المفقود، ونلعن ما في الوجود، ثمّ نسكر بمقال كتبناه أو قصيدة نظمناها، فنرتّل الآيات في مديح ربّ الكائنات، ونبيع نيويورك ثانية بخمسة وعشرين دولاراً. لست

Twitter: @ketab_n

أذكر من تلك الأ«يّام غير قلب جبران اللعوب الطروب في ساعة الإبداع، وقلبه المعذّب المكروب في ساعة الشوق والأمل. وكلانا يودّ في الحال الأوّل لو كان الكون كلّه طاقة من الأزهار يحملها إلى العرش الأعلى - عرش الحبّ الخالد - عرش اللّه. وكلانا يودّ في الحال الثانية لو كان الكون إبريقاً من الفخّار يحطّمه عند قدمي اللّه. عندما أذكر ذلك لا أذكر غير حبّ صافٍ كصفاء الفجر، وشوقٍ سامٍ كسموّ نظرات الأطفال والأنبياء، وجهاد أدبي حملنا في سبيله أنواراً من هياكل قديمة، وسلاحاً شحذته اللّيالي والأيّام.

هي ذكرى ذلك الحبّ، وذلك الشوق، وذلك الجهاد تحفزني للكتابة إليك بما كتبت لا دفاعاً عن جبران، وقد أضحى فوق نزعاتنا البشريّة وشهواتنا الأرضيّة كلّها. بل دفاعاً عن الحبّ والصداقة. فباسمهما أقول: لقد أخطأت. لقد أخطأت. سامحك اللّه.

وباسم الحبّ والصداقة، قبل أن أختتم هذه الرسالة، أقول كلمة أخرى. إنّي معجب بأدبك، فأودّه منزّهاً عن كلّ ما يشوبه من الأنانيّة الجارحة، ومن الاسترسال في التحقير والتزييف، ومن التنكيت إلى حدّ التعنّت، ومن التعميم في مواقف الجدّ، ومن سخافات سيكولوجيّة هي زبد النفس العاقلة لا جوهرها.

Twitter: @ketab_n

ولولا هذه الآفات لما كان في كتابك أغوار وأدغال وكهوف. أمّا القنن فيه - القنن العالية - مثل فصل «المصطفى» (إلاّ الصفحة الأخيرة منه) وفصل «سكرة ثمّ صحوة ثمّ سكرة» وفصلك في مدينة نيويورك، فإنّي أقف أمامها إعجاباً وإجلالاً. هي قنن في الأدب العربي نيّرة منيرة. فأسأل اللّه لك التوفيق في كلّ ما تكتب».

* * *

لقد فات الريحاني، كما فات جميع الذين نظروا إلى الكتاب نظرته التقليديّة السطحيّة، أنّني لم آتِ على ذكر القليل من علاقات جبران الجنسيّة إلاّ لأزنه في الميزان الذي نصبه هو لنفسه وللساعين مثله وراء الكمال. فهو، لا أنا، صاحب البيتين التاليين:

«والحبّ إن قادتِ الأجسامُ موكبهُ إلى فراشٍ منَ اللّذّاتِ ينتحرُ
والحبُّ في الرّوح، لا في الجسمِ، نعرفُه كالخمرِ للوَحي، لا للسُّكر، تنعصرُ»

ومعنى ذلك أنّ العفّة هي سياج الحبّ ودرعه. وأن الاستسلام للشهوة الجنسيّة هو قاتل الحبّ. وأنْ أزن جبران بميزانه لواجب يمليه عليّ جبران، وتمليه عليّ الحقيقة. والحقيقة أكبر بكثير من أيّ اعتبارات تقليديّة لا تقيم لها الحياة وزناً. وأنا في كتابي عن جبران لا أقوّم أدباً وفنّاً فقط، بل أقوّم حياةً اتخذت لها هدفاً

Twitter: @ketab_n

جميلاً، ولكنّه بعيد المنال. فمن واجبي أن أبيّن العقبات التي اعترضتها في طريقها إلى الهدف، ثمّ أن أبيّن ما كابدته من مشقّة في تذليل تلك العقبات، وأين أفلحت، وأين أخفقت. وحسبي تقديراً لكفاح جبران مع نفسه أن جعلته، في آخر الكتاب، يعقد صلحاً معها.

لا. ما كنت يوماً من المتاجرين بالقيل والقال. والواجدين لذّة في كشف سوءة أعدائهم. فكيف بمحبّيهم؟ ولا عرف أحد عني أنّي أفشيت له سرّاً ائتمنني عليه، أو خنت له عهداً. ولذلك لم أعبأ بالذين عابوا عليّ أنّي «أفشيت أسرار» جبران. ولا بالذين اتهموني بأنّي أحطّ من قدر جبران لأرفع من قدري. ولو أن الريحاني لم يفعل في كتابه «المفتوح» أكثر من ذلك لما أبهت به. ولكنّني اشتممت في الكتاب أكثر من ذلك بكثير.

والذي اشتممته هو أن الريحاني وجد في صدور كتابي فرصة مؤاتية ليقتل عصفورين بحجر واحد: ليبيّض صحيفته مع جبران في لحده ومع آلاف المعجبين بجبران في لبنان وباقي الديار العربيّة وغير العربيّة. ثمّ ليقضي على أديب بات يخشى منافسته.

لقد كان الريحاني أكبر أدباء المهجر سنًّا وأبعدهم شهرة في بدء نشأة الحركة الأدبيّة في نيويورك. وكان جبران يتمنّى لو تصبح له شهرة الريحاني. ولكن من بعد أن اشتدّت قوادم جبران وأخذ

Twitter: @ketab_n

صيته في الامتداد تنكّر له الريحاني، فكان بين الاثنين جفاء دام اثني عشر عاماً فلم يبصر الواحد في خلالها وجه الآخر ولا سمع صوته. ومات جبران والجفاء بين الاثنين مقيم. وها هو الريحاني في كتابه «المفتوح» يسكت عن ذلك الجفاء أو يموّهه، ويمضي يصف ما كان بينه وبين جبران من المودّة وصفاً يقصر دونه الشاعر الولهان. وهو يرمي من وراء هذا الوصف إلى إيهام القارئ بأنّ علاقته مع جبران كانت، حتى النهاية، في مثل ذلك الصفاء والجمال؛ ويرمي إلى التعريض بي وبالمودّة التي كانت بيني وبين جبران فما أحسنت صيانتها مثله. فهل أسكت أم لا أسكت؟

ولو أن الريحاني لم يقصد تبييض صحيفته بتسويده صحيفتي؛ ولو أنّه لم يكن يرمي إلى سدّ الطريق عليّ لما خاطبني «من فوق»، وبلهجة المعلّم والمؤدّب، ولما اتخذ جريدة يوميّة وسيلة لمخاطبتي بدلاً من البريد. فهل أسكت أم لا أسكت؟

ولأنّني حسبت السكوت ضرباً من الجبن، وتهرّباً من المسؤوليّة تجاه نفسي، وتجاه قرائي، وتجاه الذين سيهتمّون بعدنا بتاريخ الحركة الأدبيّة، رأيت من واجبي أن أردّ على الريحاني في عين الجريدة التي حملت إليّ كتابه «المفتوح». وجاء ردّي سريعاً، وقاسياً، وعنيفاً. ولكنّه جاء كذلك صادقاً ومنصفاً. وها أنا أثبته في نصّه الحرفي:

Twitter: @ketab_n

«قرأت، يا أمين، في صدر عدد من أعداد هذه الصحيفة الكريمة رسالة موجّهة منك إليّ بشأن كتابي «جبران خليل جبران - حياته. موته. أدبه. فنّه». وما كنت لأكلّف نفسي عناء الردّ عليها لو أنّها كانت نقداً للكتاب من حيث هو سفر أدبي. فأنا الذي نقد آثاراً أدبيّة كثيرة في حياته أعرف كيف أحترم آراء الناقدين المخلصين مهما يكن نصيبهم من فنّ النقد. فلا أناقش أحداً رأيه في شيء كتبه عني.

لكنّ رسالتك بعيدة كلّ البعد عن النقد الذي أعتبره وأجلّه. فأنت «تعلّمني» فيها كيف تكون الصداقة، وكيف يتوجّب على الصديق أن يكتب في صديقه. وتقيم لي من نفسك مثالاً على ذلك. فتذكّرني بـ «صداقة» قديمة كانت بينك وبين جبران، وكيف أنّك كلّما خطرت ببالك أيّامها لا تذكر منها «غير حبّ صافٍ كصفاء الفجر، وشوقٍ سامٍ كسموّ نظرات الأطفال والأنبياء، وجهاد أدبيّ (حملتما) في سبيله أنواراً من هياكل قديمة، وسلاحاً شحذته اللّيالي والأيّام».

ألا اعذرني يا أمين. اعذرني إذا ما قلت لك بصراحة ما بعدها صراحة إنّي لو كنت أجهل من الصداقة حتى الألف والباء، ولم يكن في الأرض معلّم سواك، لما رضيت أن أدرسها عليك. واعذرني بعد ذلك إذا ما أخبرت النّاس عن تلك «الصداقة» التي كانت بينك وبين جبران.

Twitter: @ketab_n

تقول في رسالتك: «أنت تعلم أنّي لم أكن قريباً من جبران قربكم في السنوات العشر الأخيرة من حياته». - هكذا تقول ولا يُغمى على قلمك في يدك، ولا تحمرّ الورقة التي تكتب عليها خجلاً من مثل هذه «الحقيقة» التي تصفع الحقيقة ثمّ تخنقها. ولو صدقت لقلت: «أنت تعلم أنّي كنت منبوذاً وممقوتاً ومحتقراً من جبران في السنوات العشر الأخيرة من حياته».

بلى، يا أمين. لقد كانت بينك وبين جبران صلة في بدء نشأته الأدبيّة - صلة ما أظنّها بلغت حدّ الصداقة، وإن شئت أن تزيّنها اليوم بهذا اللقب. لكنّ جبران، من بعد أن بلغ أشدّه في أدبه، ومن بعد أن خبر حبّك «الصافي كصفاء الفجر» نبذك من حياته ونبذ ذلك الحبّ كما تنبذ أنت نواة زيتونة تأكلها. وأصبح إذا ما تراءى له خيالك في كأس من الماء، وكان عطِشاً حتى التلف، أحجم عن شربها وحطّمها. وإنّي مذكّرك - وما أنتَ بالناسي - بليلةٍ رفع فيها عصاه فوق رأسك، ولو لم يتداركه بعض الحاضرين لما كنت اليوم في عداد الأحياء. منذ تلك الليلة - وقد غمرتها أمواج أربع عشرة سنة - لم يرَ جبران لك وجهاً ولا وقع بصرك على وجهه.

ثمّ إنّك ما كنت تحفل، يا أمين، بأدب جبران ولا تعتبره بشيء. وإنّي مذكّرك - إذا كنت ناسياً - بليلة صرفتها عندي

Twitter: @ketab_n

قبل وفاة جبران بسنة أو أقلّ. وبساعة خرجنا سويّة في تلك الليلة نتمشى في «برودواي». فجئنا على ذكر جبران وأدبه. وبكلمتين إنكليزيتين أفرغت فيهما رأيك في أدب جبران. وهما Mawkish Sentimentalism . ومعنى الأولى - وهي نعت للثانية: «مليخ. مقزّز. كريه المذاق». ومعنى الثانية: «عاطفة مائعة تتصنّع الرقّة».

مات جبران وهو يمقتك. مات جبران وأنت لا ترى في أدبه أكثر من «عاطفة مائعة كريهة المذاق». ولكن - وهذا هو العجب - ما جيء بجثمانه إلى هذه البلاد، وكان له ما كان من الاستقبال المفعم بالإعجاب والمحبّة، حتى وقفت ترثيه وتسبغ عليه نِعَمَ حكمتك وعطفك وتدعوه «أخاك الحبيب». وأراك حتى اليوم لا تترك ظرفاً مناسباً أو غير مناسب إلاّ شهدت فيه بحبّك له «الصافي كصفاء الفجر». ألا إن هذه القحة لخلاصة القحة يا أمين. هذه قحة خالعة العذار.

أعود إلى كتابك المفتوح. أم أقول المفضوح؟ أنت تلومني يا أمين، لأنّي «كشفت الستار» عن بعض ما تحسبه معايب في جبران. فتقول لي: «أفما كان الأجدر بهذا القلب قلبك أن يتّسع للضعف البشري في أخيك وحبيبك؟ أوَما كان أخلق بتلك الروح الطيّبة روحك أن تسدل ستاراً على معايب أخيك الشخصيّة؟» ثمّ تخاطبني «باسم الحبّ والصداقة» فتقول إنّي أخطأت فيما

Twitter: @ketab_n

فعلت. وبحرارة إيمان ما عهدته فيك قطُّ تطلب لي السماح من الله!

لو كنت تفهم الحبّ يا أمين لكنت تجلّ حبّاً ينزوي في القلب عندما يحدّث عن المحبوب. وقلباً يحجب ذلك الحبّ عن النّاس كيلا يمسّه قلم كقلمك ويدنو منه لسان كلسانك. ولو كنت تعرف لبّ الصداقة لكنت تقدّس صداقة ترسب في أعماق الروح عندما تكتب عن الصديق، وروحاً يحضن تلك الصداقة ويحميها من عيون المتفرّجين وشقشقة المتطفّلين. وإذ ذاك لعلّك كنت تقف «إعجاباً وإجلالاً» أمام صديق يكتب في صديقه بقلمٍ مجرّد عن الصداقة الشخصيّة، مثلما وقفت أمام «القنن العالية» في كتابي التي رأيتها قنناً «في الأدب العربي نيّرة ومنيرة». ولو أنّك قرأت كتابي كما يجب أن يقرأه العاقل المفكّر، لا كما يرعى الجمل الأعور الأشواك، لكنت، وقفت أمام قننه العالية إعجاباً وإجلالاً، تقول لذاتك: إنّ من يكتب فصلاً كفصل «تمخّضت الفأرة فولدت جبلاً» يودّ في كل ما يكتبه أن ينفذ من خلال أكسية الحياة وزخرفها إلى قلبها العاري. فإمّا انحدر إلى واد، أو تغلغل في كهف، أو توغّل في أدغال فلكي يخرج منها بخلاصة الحياة العارية.

لا. أنت لم تحسن قراءة كتابي يا أمين. وأنا قد وضعت في

Twitter: @ketab_n

أوّله «مفتاحاً» يسهّل على القارئ الوصول إلى مراميه ومقاصده، ويفتح ما أُغلق من رموزه. فقد قلت في المقدّمة إنّ في حياة كلّ إنسان «أسراراً» يكتمها عن النّاس. وإنّي «قد وقفت على البعض من أسرار جبران، وفاتني منها الكثير. فهل يليق بي أن أبوح ولو ببعض البعض الذي أعرفه؟ وإن أنا كتمته فما معنى الذي أكتبه؟ أأخون نفسي والقارئ وجبران بكتمان ما ليس مكتوماً في سجلّ الحياة الكبرى - وإن يكن مستوراً عن عيون النّاس - فأصوّره صورة لا وزن بين ظلالها وأنوارها لأرضي بعض مَن لا ذوق لهم في الفنّ ولا رأي لهم في الحياة، وأجور على ذوقي وأدفن رأيي في التراب؟ وإن أنا لم أكتمه فكيف لي أن أبوح به من غير أن أظهر في عين القارئ كما لو كنت أدين أخي بهفوات قد لا أكون بريئاً منها؟»

إذن، أنا لست أعتقد أن في الحياة الكبرى أسراراً. وعندما «أبوح» بسرّ لا أكشف أمراً مستوراً بل أخبر عن أمر مكشوف. وإذن يأبَى عليّ ذوقي الفني أن أصوّر حياة جبران من نورٍ صاف أو من ظل كثيف. لأنّها لم تكن ذاك وحده ولا هذا وحده. ولو كانت كذلك لما أبصرها أو شعر بها إنسان. وإذن أنا لا أدين أخي بهفواته إذا ما جعلت من هفواته ظلالاً تبرز معها أنوار حسناته فتبدو ساطعة، وهّاجة.

Twitter: @ketab_n

ومن ثمّ فأنت لو أحسنت قراءة تلك المقدّمة عينها - وقراءتها لا تستغرق أكثر من دقيقتين - لسمعتني أقول في مكان آخر إنّ «أجمل ما في حياة جبران هو صراعه المستتبّ مع نفسه لينقّيها من كلّ شائبة، ويجعلها جميلة كالجمال الذي لمحه بخياله وبثّه بسخاء في رسومه وسطوره». فكيف لي أن أبيّن صراعه مع نفسه إن أنا لم أبيّن ذاك الذي كان يصارعه؟ وماذا عساه كان يصارع في نفسه ليجعلها جميلة إلاّ كلّ ما لم يكن فيها جميلاً من ضعف بشريّ ومطامع أرضيّة؟ وآخر ما أقوله في المقدّمة هو هذا:

«فالفن مهما تسامى في نظر صاحبه ونظر النّاس ليس من الأهميّة على شيء ما لم يترجمه صاحبه والنّاس إلى قوّة تنشط بهم من عقالات المعيشة المحدودة إلى حريّة الحياة التي لا تُحدّ - من الإنسان في اللّه إلى اللّه في الإنسان. والأدب، مهما جمل، لا معنى له إلاّ على قدر ما يكشف معنى الحياة الذي هو أثبت من الأرض وأبقى من السماء».

وإذن، فغايتي من الكتاب هي أن أبيّن الشوط الذي قطعه جبران في عمره القصير «من عقالات المعيشة المحدودة إلى حريّة الحياة التي لا تُحدّ» - من ناسوته إلى لاهوته. وإلى أيّ حدّ كشف في أدبه معنى الحياة الذي ينحصر في إدراك تلك الحرّيّة الروحيّة.

Twitter: @ketab_n

وأنا ما وقفت عند القليل من عثراته إلاّ لأظهر الكثير من عنيف جهّاده وجميل إيمانه. وأنا ما نوّهت عن بعض ميوله الأرضيّة وتعطّشه إلى مجد العالم وعظمته إلاّ لأبرز بهاء نزعاته الروحيّة وعمق أشواقه إلى مجد غير مجد النّاس وعظمة غير عظمتهم. وأظنني قد درجت به منذ أوّل الكتاب حتى آخره بيد العطف والمحبّة، لا بيد «التعسّف» كما شئت أن تقول. وبقلم عفيف وقلب أعفّ. وبروح تعرف أن المحجّة التي أبصرها جبران بخياله وأحبّ أن يوجّه إليها حياته محجّة لا يطمع في الوصول إليها إلاّ جبابرة الروح. ولا يدرك المشقات في سبيلها إلاّ الذي سلك ذلك السبيل. وهؤلاء حرام أن تقيس حياتهم بذراع «اللياقة» الذي تقيس به حياة الزعانف. أمّا أنّ جبران لم يبلغ تلك المحجّة في هذه الدورة من دورات حياته فأمر لا يُعاب عليه ولا يُصلب. وكفاه - كما قال نسيب عريضه في ختام قصيدة يصف فيها سبيل الروح وعقباته - كفاه أنّه بدأ يشاهد:

«فَلْنَسِر، فلنسِر، وإمّا هَلكْنا قَبلَ إدراكِنا المُنى والمواعدْ
فكَفانا أنّا ابتَدأنا، وأنّا، إن عَجزْنا، فقَد بدأنا نُشاهِدْ»

أقول، يا أمين، إنّك لو تصفّحت كتابي على ضوء هذا المصباح؛ أو لو أنّك ولجته وفي يدك هذا المفتاح، لما اجتاحك «غضب» ولما انتابك «ألم». لكنّ في غضبك وألمك تعزية لي. فأنا

Twitter: @ketab_n

يلذّ لي أن أعصر قلب الجهل فأغضبه. وأن أطعن كبد الكبرياء والادّعاء فأوجعهما.

لئن فاتك من كتابي جوهره، فقد فاتك كذلك قالبه، فأنا قد بدأته وختمته بفصل «الاحتضار» لأبيّن أن حياة الإنسان على الأرض - كائناً من كان - ليست سوى غفلة يكتنفها ضباب الموت. وأنّ أجمل ما فيها حلم يخترق ضباب الموت إلى يقظة الحياة المثلى، ويرفع الإنسان إلى ما فوق الخير والشرّ - إلى اللّه. وأن الذين يظفرون بمثل هذا الحلم طيلة غفلتهم الأرضيّة يستيقظون على غبطة المعرفة الكاملة والحرّيّة التي لا تُحدّ. أمّا الذين يتذوّقون حلاوة ذلك الحلم ثمّ يعودون فيفسدونها بمرارة أحلام أخرى، فأولئك يظلّون معذّبين ريثما يتخلّصون من المرارة، والمرارة هذه تتولّد من كلّ شهوة، وكلّ مطمع، وكلّ رغبة لها بداية ونهاية. وقد اتخذت من حياة جبران مثالاً لذلك. فجبران من الذين حلموا الحلم وأفسدوه بمرارة أهوائهم الأرضية. وجبران لا يخفي ذلك بل يعلنه في كتاباته لمن يعرف كيف يقرأها، ويقول إنّه «سيعود» إلى العالم لينقي حلمه من كلّ مرارة.

وإذ انّي أجهل حياة جبران قبل أن عرفته تراني قد أطلقت على ذلك القسم منها اسم «خيالات» - خيالات بشرّي وخيالات بوسطن. ومن هيكل المعلومات التي عندي عنها كوّنت

Twitter: @ketab_n

جسماً من لحم ودم - هو جسم جبران. وقد ساعدني في ذلك معرفتي لجبران في خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة من حياته، والقرابة الوثيقة بين ذوقه وذوقي في الأدب، وبين نزعاته الروحيّة ونزعاتي. فكان من السهل عليّ أن أعرف كيف تدرّجت روح جبران وأن أصوّرها في شتى الحالات.

وها أنت، يا أمين، من حيث لا تدري، ومن حيث تقصد العكس بالتمام، تشهد لي أنّني أجدت التصوير كلّ الإجادة، فتقف «إعجاباً وإجلالاً» أمام فصل كفصل «سكرة ثمّ صحوة ثمّ سكرة». وهو فصل أصوّر فيه حالة من حالات جبران النفسيّة عند عودته من باريس. وما كنت آنئذ أعرف حتى اسمه. وها أنت تردّني إلى ثلاثة أسطر في رأس الصفحة ١٠١ من كتابي وقد حسبتَها لجبران فاستعذبتَها وأكبرت شأنها. وهذه هي:

«عليّ أن أكون كما يتمثّلني النّاس: نقيّاً، طاهراً، شفّافاً، شفيقاً، محبّاً للإصلاح، صبورًا على الألم، مترفّعاً عن الدنايا. نجّني يا ربّ من نفسي. اغسلني يا رب من أقذاري. اصهرني يا رب في مصهر حبّك».

وأنت لو بحثت ما بقي من حياتك هذه، وكلّ حياتك «الآتية» لما عثرت لهذه الكلمات على أثر في كلّ ما قاله وكتبه جبران. لأنّها لي وليست لجبران. وأنا وضعتها في فمه لأصوّر

Twitter: @ketab_n

حالة من حالاته النفسيّة. إذن ما هي السخافة يا أمين؟ أهي أن تجيد التصوير إلى حدّ أن لا يميّز قارئ عرف جبران كما عرفتَه أنت بين الصورة والأصل الذي أُخذت عنه؟ أم هي السخافة أن تسأل سؤالاً كالذي تسأله في رسالتك: «ومَن قال لك ما قاله جبران في قلبه... إن لم تكن قد أصبحت صنواً للعالم بذات الصدور سبحانه وتعالى؟»؟!

بقي عليّ أن أشكر لك يا أمين جميل اهتمامك «بشجرة» أدبي. فأنت قد رأيت في «جذعها أثراً للسوس». ومن فرط إعجابك بها وعطفك عليها جئت تنبهي إلى ذلك قبل فوات الوقت. وما ذلك السوس إلاّ «أنانيّتي». وأنا ما كنت لأفقه لتلك الأنانية معنى لولا حديث حدّثتنيه منذ أسابيع في بيروت عرفت منه أنّك تريدني شريكاً لك في «جهادك» السياسي، وأنّك لا تفهم كيف يمكن لأديب مثلي أن يحبّ بلاده ويخدمها من غير أن يعمل على تحريرها من الفرنسيس.

فكيف لي أن أبيّن لك أنّ الحرّيّة التي أنشدها لبلادي ولكلّ بلاد، ولنفسي ولكلّ إنسان، ليست في دساتير الممالك، ولا في معاهدات الدول. وأنّ القيود التي يرسف فيها العالم هي قيود لا تفكّها المناورات والمماحكات والطلاسم السياسيّة؟ إنّها شياطين في النفس لا خارجها. وفرنسا ولبنان، من هذا القبيل، سيّان.

Twitter: @ketab_n

و «أنانيّتي» هي في أنّي أسلك إلى حرّيّتي سبيلاً مقفراً من الرفاق. وحيثما عثرت فيه على آثار أقدام تكاد لا تُبصَر خضبتها بدم قلبي ومشيت.

ألا سِرْ في طريقك يا أمين. وأنا سائر في طريقي. وطريقك وطريقي لن يلتقيا حتى في فضاء أينشتين».

بسكنتا، في ١١ ك٢ سنة ١٩٣٥ .

* * *

كان ذلك منذ ربع قرن. أمّا اليوم فقد أصبحت وعندي مناعة ضدّ أي نقد مهما بالغ في التحقير والتجريح، وضدّ أي مديح مهما أغرق في الإطناب والتعظيم. فأنا أدرى النّاس بسيّئاتي وحسناتي. وسيّئاتي لن يصلحها غيري. وحسناتي لن يهتمّ بتنميتها غيري. ومن ثمّ فالزمان لكلّ أعمالنا وأقوالنا بالمرصاد. ولن يبقى في غرباله غير الصالح والصحيح.

ولعلّه يهمّ القارئ أن يعرف عن «المباراة» الكلاميّة التي كانت بيني وبين المرحوم أمين إلى أين انتهت بنا. إنّها بالتأكيد لم تنتهِ إلى الحقد والجفاء. فليس في طبعي ما يطيق الحقد. وإن أنا ابتعدت عن بعض النّاس فما ذلك من كرهي لهم أو حقدي عليهم، بل تجنّباً لأشواك تؤذيني في أذواقهم أو سلوكهم أو أخلاقهم. ولم يمضِ على نشر كتاب أمين وردّي عليه بعض

Twitter: @ketab_n

الوقت حتى تلاقينا في حافلة تراموای في بيروت. فسلّمت عليه وسلّم عليّ. وكانت بعد ذلك مناسبة دعاني فيها إلى بيته. فلبّيت الدعوة. وتناولنا الغداء معاً. وكانت أمّ أمين على رأس المائدة. وكنت أجلّها إجلالي لأمّي. رحمات اللّه عليها وعلى أمين.

ثمّ لعلّه من الإنصاف لكتابي عن جبران أن يعرف القارئ أنّ الذين استقبلوه بالتقدير والإعجاب كانوا أضعاف أضعاف الذين امتعضوا - أو تظاهروا بالامتعاض - منه. فقد قال لي أحد الأدباء الناشئين على أثر صدور الكتاب إنّه قرأه ثلاثين مرّة ولمّا يشبع. وقال فيه رشيد أيّوب: «هكذا فليكتب الكتّاب!» وكتب عنه عبد المسيح حدّاد سلسلة من المقالات. وبيعت النسخة منه في بيروت بخمس عشرة ليرة لبنانيّة من بعد أن نفدت طبعته الأولى. وقد طُبع حتى اليومْ أربع مرّات في بيروت، وطبعته مرّة دار الهلال في سلسلة «كتاب الهلال».

وعندما ترجمته إلى الإنكليزيّة ونشرت الترجمة «المكتبة الفلسفيّة» في نيويورك عقدت حوله الصحف الأميركيّة المقالات الطوال. وفي جملتها مقال بقلم ماري هاسكل - أو ماري مَيْنِس بعد الزواج - وقد نشرته صحيفة «سافانا مورنينغ نيوز» في ١٩ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٩٥٠ . ولأن لماري هاسكل مقاماً في حياة جبران ليس لغيرها من النساء والرجال، فقد رأيت

Twitter: @ketab_n

أن أختتم هذا الفصل بما قالته تلك المرأة الفاضلة، فهي التي رعت جبران ورافقته منذ نشأته الأدبيّة والفنيّة؛ وهي التي يسّرت له سبل الدرس والعيش والعمل؛ وهي التي قدّم إليها «الأجنحة المتكسّرة» وبعض مقالاته والتي أوصى لها بجميع ما احتواه محترفه من آثار فنيّة وكتب وغيرها بعد وفاته. فإذا كان لأحد أن يأخذ على الكتاب مآخذ فلهذه السيّدة. ولكنّها في ما كتبته كانت بعيدة كلّ البعد عن أولئك الذين لم يعرفوا جبران وتنطّحوا، مع ذلك، «للدفاع» عنه؛ أو الذين عرفوه ولكنّهم كانوا يفتقرون إلى الذوق والإنصاف في تقديرهم للكتاب كعمل فني وكصورة حيّة لجبران كما كان لا كما توهّموه.

قالت ماري هاسكل:

«نعيمه شاعر وكاتب ومفكّر وصديق جبران الحميم. وهو يكشف النقاب عن حياة جبران الخاصّة المحجوبة عن الأميركيّين بداعي الفوارق بينهم وبينه كرجل شرقيّ؛ وعن السوريّين بسبب تكتّم جبران وتحفّظه. يحدّثك نعيمه عن «أحلام جبران وآلامه، وعن قوّته وضعفه... وعن صراعه العنيد مع نفسه لينقيها من كلّ شائبة ويجعلها جميلة كالجمال الذي لمحه بخياله وبثّه بسخاء في مؤلّفاته ولوحاته»...

من الولادة حتى الوفاة يروي لك المؤلّف باقتضاب حياة

Twitter: @ketab_n

جبران. فتمرّ مشاهدها أمامك مرور الصور المحرّكة. وهي صور كلاميّة لكلّ منها جوّه الخاص: ولادته المتواضعة في لبنان عام ١٨٨٣ . هجرته إلى بوسطن في سنّ الثانية عشرة. ذهابه إلى محترف أحد الفنّانين هناك. وقوعه في غواية إحدى السيّدات. الدراسة في لبنان. العودة إلى بوسطن. موت أمّه وأخيه وأخته. العرض الأوّل لرسومه. ماري هاسكل. عرض رسومه في مدرستها. ميشلين. ثلاث سنوات في باريس. اثنتان في بوسطن. ومن بعدها نيويورك عام ١٩١٢ للبقاء هناك حتى النهاية.

وفي نيويورك رحّبت بقدومه جماعة من الشبّان السوريّين واللبنانيّين العاملين على بثّ روح جديدة في جسم الأدب العربي المتداعي والفكر المتجمّد. وكانت شهرة جبران قد امتدّت في العالم العربيّ حيث راح النّاس يبصرون فيه شاعراً ومفكّراً منفتح البصيرة. وبعد سنوات أربع انضمّ إلى تلك الجماعة ميخائيل نعيمه... وكان جبران إذ ذاك قد أخذ يتحرّر من انشغاف لازمه طويلاً بكتاب نيتشه «هكذا تكلّم زاردشت». فقد كان البعض من قصائده كأنّه من قلم نيتشه. إلاّ أنّه كان يكتب بالعربيّة، فلم يعرفه الأميركيون شاعراً وعرفوه فنّاناً، إذ كانوا يبتاعون بعض رسومه. في حين أن السوريّين عرفوه شاعراً وجهلوه فنّاناً. لذلك قرّر الكتابة بالإنكليزيّة علاوة على العربيّة. وكان أوّل ما نشره في

Twitter: @ketab_n

مجلّة «الفنون السبعة». فأدّى ذلك إلى اتّساع دائرة معارفه. وانكبّ على التصوير. فخفّت عنه وطأة الفاقة، واطمأنّ قلبه بعض الاطمئنان. وكان أوّل كتاب أصدره بالإنكليزيّة «المجنون». وتبعه «السابق» ثمّ «النبيّ» عام ١٩٢٣ .

يقول نعيمه في «النبي» إنّه - «ويا للأسف!» - جاء من حيث قالبه شبيهاً بكتاب زاردشت لنيتشه. وأيّ بأس في ذلك؟ إن الذين قرأوا زاردشت ليدركون في الحال وجه الشبه. ولكنّ القوالب الكتابيّة أمر مباح للجميع. أمّا في جوهر الكتاب فيقول نعيمه:

«ما دام النّاس يولدون ويموتون، ويأكلون ويشربون، ويحبّون ويبغضون، ويتزوّجون ويتناسلون، ويفرحون ويحزنون، فسيبقى بينهم مَن يفتّش عن معاني الحبّ والزواج وسواهما من علائق الحياة، ومَن يرتاح إلى تفسيرها كما فسّرها جبران».

وهو يبدي إعجابه بالرسوم الاثني عشر في الكتاب. وعلى الأخصّ برسم «النبيّ» الذي يراه «من أجمل ما رسمه جبران».

أمّا الفصل عن كتاب «يسوع ابن الإنسان» فقد جعل المؤلّف عنوانه «السيدة الملتحية». ذلك لأن جبران قال مرّة في حديثه معه: «لقد سئمت الذين يتحدّثون ويكتبون عنه ويصوّرونه كما لو كان سيّدة لطيفة بلحية». وقد رأى جبران أن يجعل

Twitter: @ketab_n

معاصري يسوع يحدثون عنه «كلٌّ حسب منازعه ومداركه. ومن أحاديثهم تتكوّن صورة يسوع «كما يراه جبران». ونعيمه يقرّ بمحبّة جبران ليسوع وإجلاله لعظمة روحه، ثمّ بحقّه أن يخلق من خياله ما يشاء من الحواشي على هامش حياة يسوع كما ترويها الأناجيل. ولكنّه يعيب عليه التصرّف بنصوص الأناجيل لتأتي مطابقة لصورة يسوع كما شاء أن يتخيّله. ويرى نعيمه الرسوم التي في الكتاب على جانب كبير من الروعة...

وقبل وفاته بثلاثة شهور قرأ جبران لنعيمه كتابه «آلهة الأرض». فيقول نعيمه إنّه عندما عرض عليه جبران بعد ذلك رسوم الكتاب كاد ينسى نفسه وجبران والقصيدة التي ما برحت أنغامها ترنّ في أذنه.

في الكتاب ما هو بمثابة الشذور الذهبيّة الملتقطة من معادنها. مثال ذلك: الأحلام التي تنطوي على شبه خريطة لحياة الحالم. المحترف رقم ١٠ من الشارع العاشر غرباً والقهوة التي كانت تقدّم فيه. جبران ساعة كان يرسم نعيمه والماحي الذي كان يستعمله ولم يكن أكبر من حبّة الحمص. تلخيص المؤلّف لكتاب «هكذا تكلّم زاردشت». مقتطفات بعينها من أحاديث جبران ونعيمه. بعض الخفايا التي ظهرت للنور.

ثمينة كذلك هي الرسوم التي في الكتاب. أربعة لجبران.

Twitter: @ketab_n

المؤلف (يمين) وتوفيق عواد ١٩٣٢

المؤلف وغزالة كانت عنده في الشخروب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

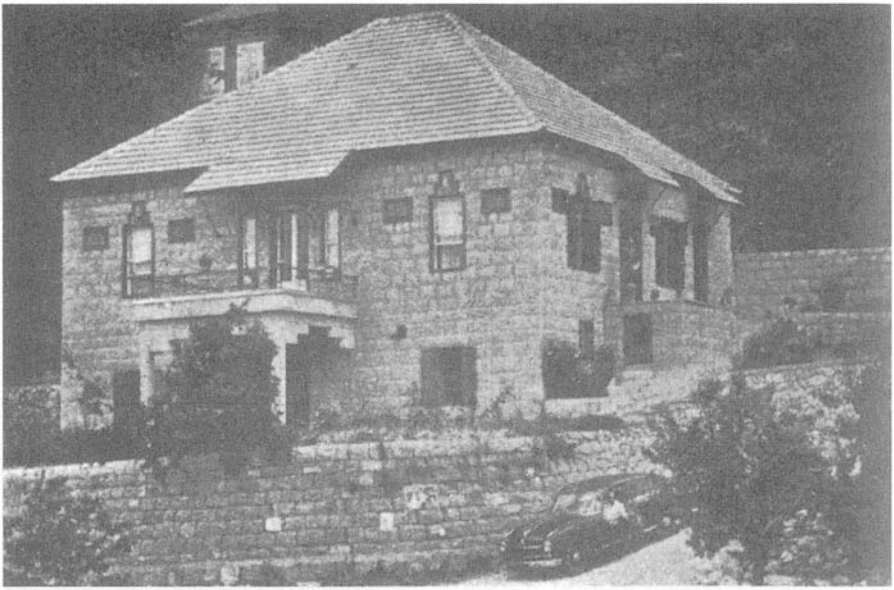

البيت الجديد في الضيعة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

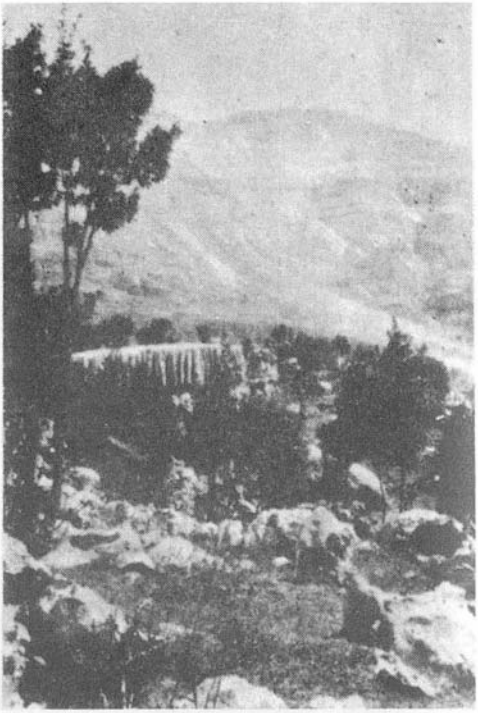

صخرة الكهف والبقعة المحيطة بها

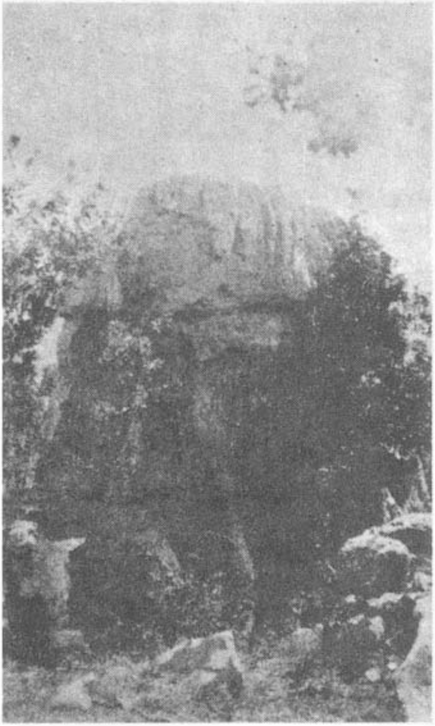

منظر خارجي لصخرة الكهف

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

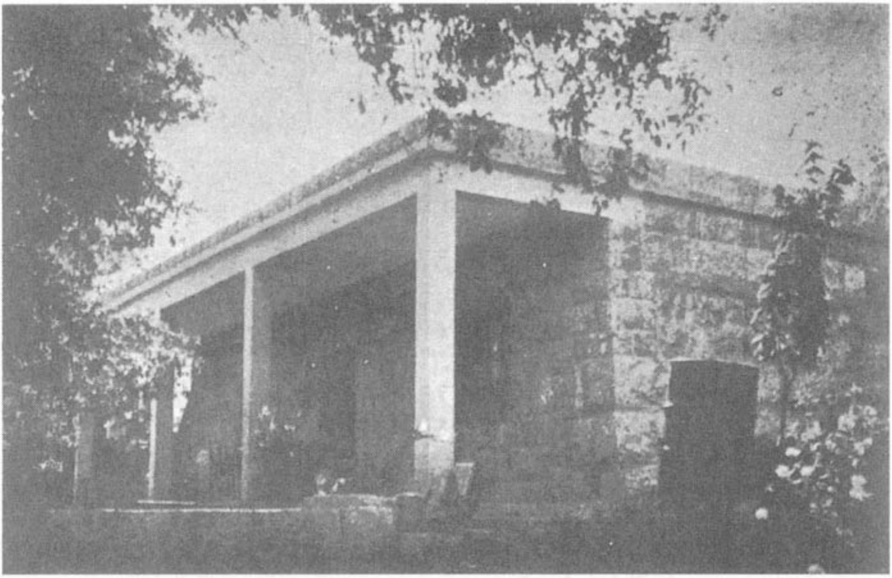

الكوخ في الشخروب بعد التجديد

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

واثنان لنعيمه. وضريح جبران. ثمّ مار سركيس - ذلك الدير القديم في لبنان حيث يرقد جبران، وحيث هذه الكتابة فوق بوّابته:

Oh Beata Solitudo
Oh Sola Beatitudo.

هنالك ملحق للكتاب وفيه وصيّة جبران، ومأتمه، ودفنه، و٢٧ رسالة من جبران إلى نعيمه، ثمّ قصيدة رائعة نظمها وألقاها نعيمه في حفلة تذكاريّة لجبران، ثمّ خطبته في حفلة الأربعين التي أقامتها الجالية السوريّة. كذلك تقع في الكتاب على أسماء جميع مؤلّفات جبران الإنكليزيّة مع تاريخ صدور كلّ منها. وُلد جبران في بشرّي سنة ١٨٨٣ وتوفّي في نيويورك سنة ١٩٣١ .

إن الأحاديث التي تدور ما بين الصديقين لوثائق إنسانيّة من النوع الذي قلّما خبرناه في غربنا. حتى ليخيّل إلى القارئ أنّه في حضرة رجلين يتسلّقان جبال حملايا. إنّهما يسعيان إلى القمم. إنّهما يفتّشان تفتيش المؤمن عن الحياة الشاملة ويعتقدان أن إدراكها مستطاع. فهي النور الذي به يُهتدى، والكلمة الحَرِيَّة بأن تقال، والمحجّة التي يجمل بالنّاس سلوكها. وههنا يلتقي الشرق والغرب...»

Twitter: @ketab_n

ألّفت الكتاب في صيف ١٩٣٤ . ولم يكفني ما عانيته في تأليفه حتى وجدتني مكرهاً على الاهتمام بنشره وتوزيعه. ولقد أشرفت بنفسي على طبعه واختيار الحرف والورق والغلاف؛ واضطررت إلى الاستعانة بأحد الأصدقاء لتسديد تكاليفه. ولكنّ الطبعة الأولى منه لم تلبث أن ردّت تكاليفها وأكثر منها بقليل.

Twitter: @ketab_n

مهنة جديدة

حرصت، في السنوات الأولى بعد عودتي إلى بسكنتا، أن أساير النّاس في حياتهم الاجتماعيّة والدينيّة والعمليّة. فأقوم بتقديم التهانئ والتعازي حيث تقضي التقاليد بذلك. وأزور الكنيسة في الأعياد الكبيرة فلا أُحجم، إذا طُلب إليّ، المشاركة في ترتيل بعض الصلوات. بل كان يستهويني في بعض السبوت أن أقوم والكاهن وحدنا بصلاة المساء في الكنيسة التي نحن من رعيّتها. وهي أوّل كنيسة دخلتها في حياتي ولها في ذكرياتي نكهة معطّرة. ولكَم جالست الفلاّحين في حقولهم وعلى بيادرهم، والرعاة في مراعيهم، والعمّال في أماكن اعمالهم. فكنت أحدّثهم كما لو كنت واحداً منهم. وكنت أشعر أنّهم يستأنسون بي على قدر استئناسي بهم. وما كان ذلك بالممكن لو لم أكن أعرف الأعمال التي يقومون بها في أدقّ تفاصيلها، وأعرف قيمتها، والمتاعب التي ترافقها.

إنّهم لقوم طيّبون هؤلاء الفلاّحون والرعاة والعمّال. وإنّهم لقوم أذكياء ونشيطون. وفي ذكائهم ونشاطهم طموح وإباء. وهم، إلى ذلك، قوم مسالمون. ولا أعني أنّهم لا يتخاصمون ويتشاتمون. أعني أن خصوماتهم وشتائمهم وأحقادهم لا تبلغ يوماً حدّ القتل وإراقة الدّماء. ولكنّهم بالطبع، ليسوا منزّهين عن

Twitter: @ketab_n

الآفات. فمن آفاتهم التحاسد وفقدان التعاون فيما بينهم، ثمّ استهتار مروّع بالمصالح العموميّة والمنافع المشتركة. فواحدهم لا يتردّد في حفر الطريق العام لينتفع بقرش وإن هو أضرّ المجموع بمئات الليرات. وحيثما كان نبع ماء ينتفع به جمهور من النّاس تعذّر عليهم أن يخلقوا لحقّ الانتفاع نظاماً لا يترك مجالاً للخلافات والمشاحنات. وراح كلٌّ يفكّر كيف يضمن حقّه دون أن يبالي بحقّ جاره. وفلسفته في ذلك: من بعدي الطوفان. أو: من بعد كديشي لا ينبت حشيش.

أمّا آفتهم الكبرى - ولعلّها الأمّ لكثير من آفاتهم - فهي خوفهم الدائم من الحكومة، لذلك يسهل على بعض الذين لهم شيء من النفوذ في الدوائر الحكوميّة أن يفرضوا أنفسهم زعماء على أولئك القرويّين الطيّبين. إنّهم يهوّلون عليهم بأنّ في مستطاعهم أن ينجّوهم من الهلاك وأن يوردوهم التهلكة. أي أنّهم يملكون القدرة على نفعهم وضرّهم ساعة يشاؤون.

وهكذا يكثر الزعماء والمتزعّمون، وينقسم سكّان البلدة الواحدة جماعات جماعات. فهذه «تخصّ» فلاناً. وتلك تنتمي إلى فليتان. وهكذا تبذر الحكومة، من حيث تدري ولا تدري، بذور الشقاق بين أبناء القرية الواحدة وتُدخل الذلّ إلى النفوس التي، لولا ذلك، لكانت عامرة بالعزّة والإباء.

Twitter: @ketab_n

لذلك بقيت - ولا زلت - بعيداً عن «سياسات» الضيعة وزعاماتها الرخيصة، ولذلك اختصرت بالتدريج مجاملاتي الاجتماعيّة والدينيّة. فما بقيت أهنئ أو أعزّي إلاّ في النادر من المناسبات. وانقطعت بتاتاً عن زيارة الكنائس. إلاّ أنّني ما تهرَّبت يوماً من خدمة فرديّة أو جماعيّة كان في وسعي القيام بها. من ذلك أن القائمين على المدرسة الشرقيّة - وهي المدرسة الروسيّة سابقاً - كلّفوني الإشراف على إدارتها وتنظيمها. فقبلت المهمّة وقمت بها ثلاث سنوات بإخلاص واندفاع ودونما أيّ مكافأة إلاّ لذّة العمل الصالح في سبيل الغير.

ومن ذلك أنّني حتى اليوم أقوم بوظيفة السكرتير للكثير من أبناء بسكنتا وبناتها. أولئك، في الغالب، هم الذين لهم أقارب أو مصالح في المهاجر. فهم يأتونني في شتى المناسبات ولشتى الأغراض. فهذا يريد منّي أن أسهّل له، أو لأولاده، السفر إلى الولايات المتحدة. فلا أبخل عليه بالوقت لزيارة القنصليّة الأميركيّة في بيروت، ولتنظيم ما يحتاجه من استدعاءات ومعلومات باللغة الإنكليزيّة. وهذا يشكو لي أنّ أقاربه في أميركا قد انقطعوا عن مراسلته منذ سنين. أفلا تلطفت وكتبت إليهم بالإنكليزيّة و «حنّنت» قلوبهم عليه. فأكتب لأقارب الرجل بلغة إنكليزيّة لا غبار عليها، وبأسلوب يبعث ما مات من عواطفهم.

Twitter: @ketab_n

وإذا بهم يفتحون لقريبهم في بسكنتا قلوبهم وجيوبهم، ويستفسرونه عن كاتب رسالته إليهم ومن أين له هذه اللغة الإنكليزيّة المشرقة.

ويأتيني كاهن يرغب إليّ في ترجمة طائفة من شهادات العماد والوفاة المطلوبة من بعض أبناء بسكنتا في أوستراليا. وآخر يكلّفني تحصيل إرث له تركته زوجته المتوفاة في مونتانا. وغيره يحمل إليّ كدسة من الأوراق التي وصلته من وزارة الحربيّة في «واشنطن» والمتعلّقة بوفاة أخ له في الجيش الأميركي والمعاملات التي عليه أن يتمّمها ليحصل على ما يترتّب له من إرث أخيه حسب نظام الجيش. فأمضي الساعات لأجيب له عن جميع الأسئلة الواردة في تلك الأوراق. وهي من الكثرة والتعقيد بمكان. ولولا خبرة لي في الشرع الأميركي وفي شؤون الجنديّة لما استطعت أن أقوم بالمهمّة. ولكم كُلّفت، وأُكَلَّف، تدبيج برقيات تهنئة أو تعزية. وتصنيف برقية من هذا النوع يرهقني أكثر من تأليف مقال لأنّها ترهق ذوقي الذي يكره الدجل والمجاملات.

ومن أطرف ما حدث لي من هذا القبيل أن جاءني ذات ليلة من ليالي الشتاء العاصفة شاب كنت أعرف أباه العجوز. فناولني ورقة وقال إنّها رسالة بالعربيّة من والده إلى عمّه الذي في أميركا، وإن والده يطلب إليّ ترجمتها إلى الإنكليزيّة «حرفيّاً» -

Twitter: @ketab_n

دون زيادة أو نقصان. وكنت أعرف أن والده رجل أمّي. فسألته عن الذي كتب له الرسالة. ولكنّه، لسبب من الأسباب، لم يشأ أن يبوح لي باسمه. وهذه هي الرسالة «بنصّها وفصّها»:

«حضرة أخونا العزيز حفظه اللّه وجعل الجنة مثواه.

من بعد بعيد وشوق ما عليه من مزيد نقبّل وجناتكم وندعو إلى المولى عزّ وجلّ بطول بقاكم. عساكم ولفيف العيلة في تمام الصحّة التي نرغب دوامها لكم. وبعدو يا أخونا إذا جاز سؤالكم عن الداعي فإنّنا من كرم الباري بألف خير وليس خايس علينا سوى قلّة مشاهدتكم. ثمّ بعدو يا أخونا أخذنا العجب من قلّة تحاريركم حيس مضى ثلاث أعوام ولم استلمنا من طرفكم تحرير واحد. جعل المانع خيراً. ونحن هنا دايماً نهدس فيكم وبالنا دايماً عندكم. فقط عدم المواخذة يا أخونا إذا نحن صدّعنا خاطركم. فحرمة أخوكم عملنا لها عمليّة ولولا تحنّن الباري سبحانه وتعالى كنّا خسرناها. وابن أخوكم الكبير وقع كسر إجره. ولا يزال طريح الفراش. والفدّان سخن بالطابق وتعطّلت مواسمنا. وانجبرنا نرهن حقلة الزعرورة حتى ندفع المصاريف. ولم قدرنا نتموّن أكثر من نصف مونة. وحالتنا بالويل. منركض منركض والعشا خبّيزي. وكما قال الشاعر تجري الرياح بما ليس تشتهيه المراكب.

Twitter: @ketab_n

والأخ يا أخونا مين إلو إلاّ أخوه. انت عزوتنا. وانت رجوتنا. وفهمكم كفاية». ويلي ذلك سلامات من كلّ فرد من أفراد العائلة والأقارب والجيران.

كتبت إلى الأخ المهاجر من عندي رسالة لا استجداء فيها ولا شكوى. ولكن فيها ما يثير العاطفة والنخوة. وكتبتها على الآلة الإنكليزيّة الكاتبة. فجاء الجواب وفيه حوالة بمئة دولار. ولم يشكّ الرجل العجوز في بسكنتا أن بلاغة الذي دبّج له الرسالة العربيّة هي التي فتحت له قلب أخيه وكيسه.

وأطرف من ذلك ما حصل لي مع سيّدة جاءتني ذات يوم تكلّفني كتابة رسالة بالإنكليزيّة لابنة حميها في أميركا. وقد كان في كلامها شيء من التردّد والخجل مخافة أن يثقل عليّ طلبها وأن تأخذ ولو بعض الدقائق من وقتي الثمين. وعندما لبّيت رغبتها بمنتهى اللطف انصرفت شاكرة لتعود بعد أيّام وتطلب إليّ كتابة رسالة ثانية على العنوان ذاته. وتكرّرت زياراتها وطلباتها لأنّها طمعت بالمزيد من النتائج الطيبة التي جاءتها بها رسائلي. وكانت آخرها رسالة طلبت فيها بعض الملابس لها ولزوجها ولأولادها البالغ عددهم ستّة ما بين صبيان وبنات. فجاءها من نسيبتها أن تبعث إليها بقياساتها وقياس زوجها وأولادها. وهنا ابتدأت متاعبي وضاق صدري. فهي تريد لذاتها كبّوتاً أخضر، ولزوجها

Twitter: @ketab_n

بذلة رماديّة، وللصبي الكبير والابنة الصغيرة كيت وكيت. وقد جاءتني بلائحة طويلة فيها قياسات كلّ فرد من أفراد العائلة: الطول. الكمّ. الصدر. الخصر. الورك. عرض الكتفين، إلخ. مع التشديد على اللّون وجنس القماش. وعندما رجوتها، لوفرة الأشغال لديّ في ذلك النهار، أن تعود في الغد لتأخذ الرسالة أجابتني بنبرة حادّة وبشيء من الامتعاض: «لا تنسَ يا أستاذ أنّني لا أستطيع التفريط بوقتي. فأنا امرأة في رقبتها عائلة من ثمانية أنفس!»

وهناك عجوز مترهّلة، متهدّمة، متوحّدة، معدمة، كان من رسالة إنكليزيّة بعثتها باسمها إلى أخيها الضرير، المقعد في إحدى ولايات أميركا، أن تطوّع ابن أخيها وابنة أختها لنجدتها. وكلاهما مولود في تلك البلاد ولا يعرف من العربيّة حرفاً. فراحا يتعاونان بالتساوي فيرسلان لها في كلّ شهر عشرة دولارات. وما لبثا أن رفعا المبلغ إلى العشرين. وقد ظلّت سنين تأتيني بحوالتها الشهريّة لأقبضها لها عملة لبنانيّة ولأترجم لها الرسالة التي احتوتها.

هذا قليل من كثير من الأعمال «السكرتيريّة» التي قمت وأقوم بها تجاه أهل بلدتي فلا أقبل عنها أجوراً أو شكوراً. وأنا ما جئت على ذكرها إلاّ لأعرض على القارئ جانباً من حياتي في قريتي. أليس أنّني أحكي له «حكاية عمر»؟

Twitter: @ketab_n

بو ديب يودّع الشخروب

مات جدّي، ومات أجداده من قبله، وفي قلوبهم عطش إلى نبعة ما في الشخروب يستقون منها. لقد كانوا يروّون أرضهم من مياه نبع صنّين. ولكنها كانت تأتيهم من مسافة كيلومترين، وفي قناة ترابيّة مكشوفة. فلا تصلح للشرب. وكنّا، مع ذلك، نسبق الفجر في كلّ يوم لنملأ من تلك القناة جرارنا. وكنّا نعزّي أنفسنا بالقول المألوف: «الميّه الجاريه باريه». أي أنّ المياه التي تجري تتطهّر بجريانها من الجراثيم. ثمّ كنّا، إذا انقطعت مياه نبع صنّين، نلاقي الكثير من الصعاب في جلب المياه من بعيد للشرب ولأغراض البيت.

ولكَم سمعت أبي وأمّي يشكوان فقر الشخروب بالماء. ولكَم رأيت أبي يأخذ رفشاً ومعولاً ويمضي يحفر في بعض الأماكن القريبة من الكوخ لأنّه كان يبصر فيها نزيز ماء وأعشاباً كان يعرف أنّها لا تنبت إلاّ حيث يكون الماء. ولكن والدي لم تكن له الخبرة في حفر الآبار، ولا المال لاستئجار ذوي الخبرة في شؤون الماء والآبار. لذلك كان يتوقّف عن الحفر كلّما بلغ عمق الحفرة المتر أو المترين. وعلى الأخصّ إذا تجمّع فيها من الماء ما يجعل متابعة الحفر من المشقّة بمكان، وكان الماء، على قلّته، كافياً لسدّ حاجات البيت الضروريّة.

Twitter: @ketab_n

لذلك وجّهت همّي بعد عودتي من أميركا إلى التنقيب عن الماء. وجاءني رجل من بسكنتا يدّعي أن في استطاعته الاهتداء إلى الماء في جوف الأرض باهتزازات عصبيّة يثيرها الماء في جسمه، وأنّه يستطيع تحديد عمقه وكميّته من عنف تلك الاهتزازات أو ضعفها. وأكّد لي الرجل أنّنا إذا حفرنا نفقاً إلى الشرق من الكوخ، وعلى بعد بضعة أمتار منه، تمكّنّا من الوصول إلى ماء يكفي لريّ الأرض. فكيف بريّ النّاس والبهائم. ولقد أثارني قول الرجل وأثار أخي. فصمّمنا على الحفر. وما كان لنا أن نصمّم لو لم تكن أجرة العامل في ذاك الزمان نصف ليرة لبنانيّة في النهار.

استطعنا في خلال صيفين متعاقبين - ١٩٣٥ و ١٩٣٦ - وبوسائل بدائيّة جدّاً، أن نحفر نفقاً طوله، مع متفرّعاته، نحو خمسين متراً. وكابدنا في حفره الأهوال. فحيناً ينهار قسم منه فنضطرّ إلى دعم جدرانه وسقفه بالحجارة ينقلها العمّال من الخارج ويبنونها على ضوء شمعة، وقد غاصت أرجلهم وأيديهم في الوحل. وحيناً يتصلّب التراب المتوجّب حفره فيغدو بقساوة الحديد. ولكنّ المياه الراشحة من سقف النفق وجوانبه ظلّت تغذي آمالنا إلى أن نفد المال ونفدت الحيلة، فتوقّفنا عن العمل.

ولا تسل عن الأحلام العذاب التي تبخّرت. ففي كلّ يوم

Twitter: @ketab_n

كنت أدخل النفق مرّات عديدة لأتفقّد سير العمل فيه. وفي كلّ ساعة كنت أتوقّع أن يخرج من النفق عامل يحمل إليّ البشارة بأنّ المياه قد تفجّرت صافية، غزيرة. إنّ في التنقيب عن الماء مغامرة تستحوذ على جميع أفكار المنقّب ومشاعره. وهي، وإن فشلت، تعوّض عن فشلها بما تثيره في نفس المنقّب من أسئلة عن أسباب فشله، وهل هو لويله أو لخيره؟ أمّا أنا فقد تعوّدت أن ألوم نفسي في كلّ فشل تمنى به؛ لأن أسبابه تعود إليها وحدها. فإذا هي اهتدت إلى تلك الأسباب انقلب فشلها نصراً لها.

ولكي لا تذهب جهودنا هباء حصرنا الجانب الأعلى من النفق على مسافة سبعة أمتار بحائط من الخرسان. فالماء الذي كان يرشح هناك بغزارة وباستمرار كان كافياً، إذا هو انحصر، أن يكوّن خزّاناً من بضعة أمتار مكعّبة من الماء. وهي كميّة تفيض كثيراً عن حاجة البيت. وذلك الجانب من النفق كان على عمق أحد عشر متراً تحت سطح الأرض. فالمياه فيه تبقى وكأنّها مثلوجة على مدار السنة. وتسهيلاً للوصول إلى الماء مددنا أنابيب من الخزّان إلى خارج النفق ووضعنا حنفيّة في رأس الأنبوب الأخير. ولأوّل مرّة في تاريخ الشخروب بات في إمكاننا أن نمشي بضع خطوات من الكوخ، ثمّ أن نفتح حنفيّة، فتتدفّق منها المياه غزيرة، باردة، وأصفى من البلّور. أمّا مذاقها فلا ألذّ وأعذب ولا

Twitter: @ketab_n

أفعل منه في الهضم. وذلك بشهادة أخي نجيب الذي يُعَدّ ذوّاقة في أمور الماء، والذي خبر جميع الينابيع المعروفة في جبالنا. وهي كثيرة. وهكذا قنعنا من البحر بالوشل وبما جلبه لنا من راحة ووفّره علينا من عناء. وقناعتنا قلبت الفشل فوزاً.

في ذلك الصيف - ١٩٣٧ - خشيت على الوالد أن يصعد إلى الشخروب كالمعتاد. وآثرت له البقاء مع الوالدة في الضيعة. فهو قد بلغ الثالثة والثمانين ولم يكن يشكو أي مرض أو وجع. إلاّ أنّه كان يصاب أحياناً بدوار فجائي فيقع على الأرض إن لم يكن حواليه من يتداركه. وأذكر ذات مرّة في ربيع تلك السنة كنت فيها أقوم له بمهمّة الحلاّق، وكنت قد أجلسته في الشمس على كرسيّ أمام الباب. وكانت الشمس تبعث دفئاً مستطاباً في جوّ لا تزال فيه لذعة من البرد. وعندما بلغت في حلاقتي الذقن وما تحتها شعرت برأس والدي ينحني إلى الأمام. فرددته إلى الوراء. ثمّ انحنى فرددته. وبغتة أدركت أنّه في غيبوبة. فحملناه إلى الداخل وما زلنا نعالجه حتى أفاق من غيبوبته وهو لا يدري أنّه غاب عن الوعي. لذلك آثرت له البقاء في الضيعة.

إلاّ أنّه ما ان جاء تموز، وجاء موسم الحصاد، حتى ضاق بوالدي البيت. وضاقت الضيعة. فطلب الانتقال إلى الشخروب. وكنت أعرف ما بين روحه وتراب الشخروب وصخوره من

Twitter: @ketab_n

وشائج القربَى. فلم أردّ طلبه. وفي الشخروب عاد إليه شيء من نشاطه، وعادت الابتسامة الحلوة إلى عينيه الصغيرتين ووجهه الرضيّ. ولكَم رأيته جالساً تحت بلّوطته الحبيبة، ويداه على عصاه، وذقنه على يديه، وبصره يجول من قمّة إلى قمّة، ومن وادٍ إلى واد، ومن حقل إلى حقل، وكأنّه يجول في صفحات كتاب عزيز حفظه عن ظهر قلب.

اقتربت منه مرّة وهو في تلك الحال وسألته: «فيمَ تفكّر يا أبتِ؟» فأجابني:

«أفكّر يا ابني في النّاس كيف يولدون، وكيف يعيشون، وكيف يموتون. ألا ترى معي أنّ النّاس يولدون شبه أموات؟ ثمّ ينهضون من الموت بالتدريج إلى أن تكتمل قواهم. ثمّ يأخذون يموتون بالتدريج إلى أن يدركهم الموت الكامل. إنّهم يحيون على دفعات، ويموتون على دفعات قبل أن يموتوا الموت الأخير. فالطفل يولد وله لسان، ولكنّه لا ينطق. وله يدان، ولكنّه لا يعمل. ورجلان، ولكنّه لا يمشي. وعينان، ولكنّه لا يبصر إلاّ القليل القليل من الأشياء، ولا يدرك ما يبصره. والعجز عن الشيء هو الموت بالنسبة إلى ذلك الشيء.

«ونكبر فنأتي من الأعمال ما كنّا نعجز عنه ونحن صغار. ولكنّ قوانا إلى نفاد. وها أنا أصبحت منذ سنين عاجزاً عن تسلّق

Twitter: @ketab_n

جبل صنين. وإذن فأنا قد متّ كإنسان يستطيع أن يتسلّق الجبل. لقد مات الكثير من يديّ ورجليّ وعينيّ وأذنيّ دون أعمال كثيرة كنت أستطيع القيام بها، ومسافات كنت أمشيها، وألوان وأشكال وأصوات كنت أتميّزها من بعيد. والذي بات ميتاً مني هو أكثر من الذي لا يزال حيّاً. وأنا، مع ذلك، أحسب نفسي ويحسبني النّاس في عداد الأحياء. بلى. بلى. إنّنا نموت يا ابني قبل أن نموت. ونعيش مع الموت منذ أن نولد وحتى نموت. ثمّ نستفظع الموت. الموت حقّ. سبحان الذي كوّن...»

صباح السادس عشر من تموز جرى الماء لأوّل مرّة في الأنابيب الممدودة في النفق ليصبّ عند مدخله. ولأوّل مرّة أبصر الشخروب ماء قراحاً، ثابتاً يخرج من جوفه ليطفئ عطش سكّانه ويسدّ حاجاتهم الأخرى دونما عناء يبذلونه في سبيل الحصول عليه. وكان أبي في جملة الذين شهدوا انصباب الماء فشكر ربّه على هذه النعمة التي طالما تمنّاها وحلم بها وصلّى من أجلها.

وفي غفلة منّا أخذ أبي منجلاً ومضى إلى بقعة قريبة من الزرع وراح يحصد. ولكنّه لم يحصد الغمر الأوّل حتى خانته قواه. فعاد إلى البيت وقال لزكيّة زوجة أخي نجيب:

«ولّت أيّامي يا ابنتي. تعبت ولم أحصد غير غمر واحد. أريد أن أنام. افرشي لي فراشي يا ابنتي».

Twitter: @ketab_n

وفرشت زكيّة لأبي فراشه في مكانه المعتاد من «القنطرة» - وهي البهو الذي يتوسّط «القبو»، والذي بدون باب. لقد كان يؤثر أن ينام هناك ليبقى قريباً من نسمات الوادي ومن النجوم. وكنت وقتئذٍ في «الكهف». فأجفلت عندما عدت وأبصرت الوالد في غفوة عميقة، وأخبرتني امرأة أخي بما كان.

طالت غفوة ربّ الشخروب، وطال جهاده مع الموت نحو ثلاثة أيّام كان يصحو في خلالها فترات قصيرة، ولكن من غير أن يفتح عينيه. وإنّي لأذكر جوابه لزكيّة عندما قالت له مرّة: «افتح عينيك يا عمّي وانظر إلى هذه الدنيا الحلوة التي حواليك». فقد أجابها بصوت خافت لا أثر فيه لأيّ حسرة أو حرقة أو خوف: «وماذا عساني أبصر يا ابنتي فوق ما أبصرت؟» وكان ذلك آخر ما نطق به. ولكنّه فتح فمه من بعدها بضع مرّات ليتناول ملعقة من ماء الشخروب الجديد. ومرّة ليتناول ملعقة من القربان المقدّس وقد حمله إليه كاهن من بسكنتا.

وجاءت النهاية في صباح التاسع عشر من تموز سنة ١٩٣٧ من بعد حشرجة لم تكن تنكسر حدّتها إلاّ حين أجلس من خلفه وأضع رأسه على صدري. فحملناه في «أومنيبوس» إلى الضيعة. وفي اليوم التالي دفنّاه في المدفن الذي استقبل قبل أربع سنوات جثمان ابنه نسيب. ولقد خُيّل إليّ أنّ عصافير الشخروب

Twitter: @ketab_n

وصخوره وترابه وأشجاره وأشواكه كانت تشيّعه مع المشيّعين. فالوشائج التي كانت بينه وبينها لأقوى بما لا يقاس من وشائج الأرحام واللّحم والدم. وكنت حريصاً أن أضع في تابوته البسيط حصاة من حصى الشخروب، وحفنة من ترابه، وسنبلة من زرعه، وورقة من بلّوطته الدهريّة.

وعندما كتبت إلى أخويّ وإلى صديقي إسكندر اليازجي في أميركا أُخبرهم بوفاة الوالد قلت لهم إنّي فرحت له بتلك الوفاة. فقد مات وفي عينه شبع من مفاتن الأرض، وليس في قلبه أيّ جوع لشيء من حطام الدنيا، ولا أي جزع من الموت. ومات بجسم كامل لم يُكسر فيه عظم، ولا عرف جلده مبضع الجرّاح، ولا عاثت الجراثيم في أيّ جارحة من جوارحه، ولا هو كان من العجز عن القيام بحاجاته بحيث يسبّب المتاعب والتذمّر لمن حواليه. ومن ثمّ فقد مات في شخروبه الذي امتصّ ترابه الكثير من عرقه، وامتصّت أشواكه غير القليل من دمه، وفي فصل كان أحبّ الفصول إلى قلبه - فصل الحصاد.

إي. لقد كان قدوم بو ديب إلى الأرض وارتحاله عنها بدون طبل وزمر. ولكنّه كان من الذين زرعوا كثيراً، والذين ظلّوا يحصدون حتى آخر نسمة من حياتهم. وكان قنوعاً بما زرع وبما حصد.

Twitter: @ketab_n

مع الطبيعة

إنّ ما أعنيه هنا بالطبيعة هو كلّ ما ليس للإنسان يد في خلقه. وهذا يستحيل عليّ أن أبيّن جميع ما كان له من بالغ الأثر في تكوين ميولي وأحاسيسي وأفكاري وسلوكي خلال السنوات السبعين التي عشتها حتى الآن في هذه الفترة من حياتي على الأرض. فأنا منذ صباي الباكر وحتى الساعة تجذبني إلى الطبيعة جواذب تتحدّى الحصر والتحليل والتعليل. فالطبيعة عندي هي ذلك الكتاب السحري، العجيب، الذي ما برحت أقرأ فيه بشوق ونهم لا حدّ لهما. فلا هو ينتهي، ولا أنا أرتوي. وأقرأه بأكثر من عينيّ. أقرأه بكلّ جارحة من جوارحي - حتى بجلدي وأظافري، وكلّ خليّة في جسدي، وقطرة دم في عروقي، ونسمة هواء في صدري.

والطبيعة عندي هي ذلك المعلّم الذي لا نفاد لصبره ورويّته ومحبّته وأساليبه في شرح ما احتواه كتابها، وفي إثارة اهتمامي بما انطوى في متونه وهوامشه من بديع الصور وجليل المباني والمعاني.

أقول - وليس من باب التحليل والتعليل - إنّ ما يبهرني في الطبيعة قبل كلّ شيء هو مقدرتها الخارقة على التوليد والتجديد. ففي كلّ رفّة جفن لها من الخلق والإبداع نفحات تجعل العقل

Twitter: @ketab_n

البشري يفغر فاه دهشة وانخطافاً. وتجعل الخيال البشري يقف تجاهها مشدوهاً، مشلولاً.

والخلق في قاموس الطبيعة يعني تجسيد غير المحسوس في المحسوس. مثلما يعني العودة بالمحسوس إلى غير المحسوس. فالولادة عندها خَلق. والموت خَلق كذلك. وخَلق في منتهَى الروعة والدقّة هو النظام الذي تسيّر عليه المحسوسات من ذرّة الرمل حتى الجبل، ومن البعوضة حتى الجمل، ومن قطرة الماء حتى المحيط، ومن ألطف نسمة حتى أعنف إعصار، ومن نور ذبالة حتى نور شمس بيننا وبينها آلاف السنوات الضوئيّة.

ففي دنيا البذور التي منها جميع نبات الأرض تشدهك هذه الكثرة الهائلة في أنواعها، وتشدهك سعة الخيال الذي عمل في تصميمها، وفي تزويد كلّ منها بالقدرة العجيبة على الحياة، وبخصائص من الشكل واللون والطعم والرائحة ليست لسواها. وأنت لو أخذت بذرة تفّاحة - مثلاً - وفلقتها لما استطعت أن تبصر فيها جذوراً وساقاً وأغصاناً وأوراقاً وزهراً وثمراً، ولا أن تتذوّق فيها طعم التفاحة أو تشمّ رائحتها. ولكنّ سحر الحياة الكامنة فيها، والمحجوبة عن حواسّك، هو الذي يهيء لها الظروف المؤاتية لتنبت شجرة تحمل ثماراً لها شكلها ولونها ورائحتها ومذاقها. وذلك السحر عينه هو الذي يجعل ثمار التفاحة وثمار

Twitter: @ketab_n

كلّ نبتة في الأرض تنغلق كلّ واحدة منها على بذور كتلك التي انطلقت منها.

ومعنى ذلك أن الطبيعة التي خلقت التفاحة وغيرها من نبات الأرض خلقت لها النظام الذي يمكنها من تجديد نسلها. وهذا النظام عينه، وإن اختلفت المظاهر، يسري على كلّ ما في الأرض من حياة. ولكن روعته تفوتنا لأنّنا ألفناه بحواسّنا، فبات وكأنّه أمر تافه، عاديّ. وروعته لا تبدو على أتمّها إلاّ إذا نحن فكّرنا في عمر الأرض وأعمار أنواع كثيرة من النباتات والحيوانات التي رافقتها منذ أن أصبحت صالحة للحياة. أفليس من العجب العجاب أن أصناف النبات وأصناف الحشرات والحيوانات على وفرتها، ما برحت منذ آلاف آلاف السنين، تتجدّد وتتكاثر وتعيش جنباً إلى جنب، فلا يطغى واحد منها على الآخر، ولا تضيق بها أو تقفر منها الأرض؟ إنّه لتوازن يفوق حدّ التصوّر. وهو ليس غير جانب من جوانب النظام.

أمّا الجانب الآخر الذي لا يقلّ روعة عن جانب التوليد والتجديد والتوازن فهو الجانب الذي جعل كلّ نبتة وكلّ حشرة وكلّ طائر وسمكة وبهيمة تحيا لغيرها إذ هي تحيا لذاتها. فكأن الحياة لم تخلق الفرد إلاّ ليكون دعامة للمجموع. ولا هي تهتمّ به إلاّ على قدر ما ينتفع به المجموع. إنّها، في جوهرها، شركة لا مجموعة أفراد. وإنّها وحدة لا كثرة.

Twitter: @ketab_n

من الأكيد أن البنفسجة تحيا للبنفسجة. ولكنّ جمالها وأريجها ليسا لها وحدها بل لي ولك ولكلّ من يتذوّق سحر الألوان ويسكر بالأريج. ومن الأكيد أن حبّة القمح، عندما تنشقّ في ظلمة التراب عن نبتة نحيفة؛ وعندما تبرز إلى النور والهواء فتغدو سنبلة هيفاء؛ وعندما تمضي تُرضع الحبوب التي فيها من عصير حياتها لا تفكّر فيك وفيّ وفي غيرنا من الكائنات. ولكنّ النظام الذي تحيا به يجعل لي ولك وللنملة والفأرة والعصفور والدجاجة والحمامة والحجل نصيباً كبيراً في حياتها. إنّه نظام يكره الانعزال والاستئثار. فالكلّ في خدمة الواحد. والواحد في خدمة الكلّ. والذي فاته هذا الجانب من النظام فاته جوهر الحياة. والذي عاند هذا الجانب من النظام عاند القدرة الوحيدة التي في استطاعتها أن تجعل منه إنساناً حرّياً بأن يسلك الطريق إلى قلب الحياة.

لعلّك تبصر منتهى القسوة والبشاعة في نظام يبيح جانباً من حياتك، أو كلّ حياتك، لغيرك. ولكنّك تنسى أن ذلك النظام عينه قد أباح لك حيوات كثيرات. فأنت تأكل من البقول والحبوب والفاكهة ما تشاء، وتقطف من الأزهار ما تشاء، وتذبح من الطير والحيوان ما تشاء. وأنت تبارك الحياة في ما تفعل، ولا تحسب أن في ما تفعله قساوة وبشاعة. فبأيّ لسان تلعنها إذا هي

Twitter: @ketab_n

أباحت الشاة للذئب، والعصفور للصقر، والفأر للهرّ، وأباحتك للذبابة والبرغشة، وللجراثيم ترعى في جسدك حيّاً وميتاً؟ مَن استباح الغير فقد أباح نفسه للغير. بذلك يقضي النظام.

ومن أين لمن كان في حاجة إلى الغذاء أن يغتذي إلاّ من أشياء هي كذلك في حاجة إلى الغذاء؟ ومن أين للأرض أن تطعم أبناءها إلاّ من أبنائها؟ لكنّما حال الذئب مع الشاة يختلف كثيراً عن حال الإنسان معها. ففي استطاعة الإنسان أن يعفّ عن أكل الشاة. وليس ذلك في مستطاع الذئب. والذئب لا يستشعر الألم الذي يسبّبه للشاة وهو يمزّقها حيّة. ويستشعر الإنسان ذلك الألم. فنظامه غير نظام الذئب. ونظامه يقضي عليه بأن يسبّب أقلّ ما يمكنه من الألم للمخلوقات إذا هو شاء أن يحيا بأقلّ ما يمكن من الألم. ولعلّنا في تطورنا الجسدي والروحي، وإن يكن بطيئاً، نبلغ يوماً نصبح فيه كطائر الفينكس - نغتذي بعبير الأشياء لا بأجسادها.

والطبيعة، إذ هي تتجدّد باستمرار أمام عينيك، تدفعك دفعاً الى التفكير في الأساليب العجيبة التي تلجأ إليها في تجديد الأشياء والأحياء. وحسبك من هذه الأساليب أن جميع أصناف النبات ينطلق كلّ واحد منها من بذرة ليعود فينغلق على بذرة كالتي منها انطلق؛ وأن جميع أصناف الطير والحيوان يتكوّن كلّ واحد منها في

Twitter: @ketab_n

نطفة ليعود فيتجدّد في نطفة مماثلة. فأيّ السحر هو ذلك السحر الذي يجعل نطفة صغيرة تنطلق من ذكر الطاووس - مثلاً - إلى أنثاه فتلتقي بنطفة الأنثى. والنطفتان تنغلقان في بيضة تضعها الأنثى ثمّ تحضنها فينقف منها بعد أيّام معدودة فرخ لا يلبث أن يغدو طاووساً لا يزيد الريش في ذنبه وجناحيه وظهره وبطنه ريشة ولا ينقص ريشة. وكلّ ريشة منها قد اصطبغت بالألوان العجيبة التي اشتهر بها ريش الطاووس. فمن الذي غرس ذلك الريش ريشة ريشة ومَن الذي صبغها؟ وأين كان الريش والصباغ، وكانت العينان والرجلان، والرأس والمنقار في تينك النطفتين اللتين منهما البيضة، وفي تلك البيضة التي منها الطاووس؟

وإذا أنت انتقلت من نطفة الطير والحيوان إلى نطفة الإنسان أذهلتك من الطبيعة سعة في الحيلة والخيال تفوق حدود فكرك وخيالك بغير قياس. وكيف لك أن تتخيّل القدرة التي تجعل نطفة الرجل ونطفة المرأة تلتقيان في رحم المرأة لتكوّنا هناك بويضة لا تلبث أن تأخذ في الانتفاخ على مدى أربعين أسبوعاً. وإذا بها طفل بشريّ مكتمل التكوين تقذفه الرحم من الظلمة إلى النور ليغدو بعد حين إنساناً يشعر ويفكّر، ويحلم ويشتاق، ويحبّ ويبغض، ويلتذّ ويتألّم، وينسل أناساً من جنسه؟

والأجناس في الطبيعة ما كان لها أن تتجدّد بالتناسل لولا

Twitter: @ketab_n

الغريزة الجنسيّة التي هي أدهى ما استنبطته الحياة من الحيل لاستمرار الأجناس. وقد جعلتها من العنف والمتعة بحيث تستحيل مقاومتها على الحيوان، وتكاد تستحيل إلاّ على أفراد من بني الإنسان. وهنالك أصناف من الحشرات تضحي بحياتها في سبيل متعة جنسيّة لا تطول إلاّ لحظات. مثال ذلك الرتيلاء التي تأكل أنثاها الذكر بعد التلاقح. واليعسوب - ذكر النحل - الذي يموت بعد تلقيح الملكة. وهنالك أصناف من الحيوان تتقاتل ذكورها حتى الموت في سبيل الاستئثار بأنثى تطلب التذكير. والأدهى من ذلك أن أساليب التزاوج ومواقيته تختلف باختلاف الأجناس. فللبعوض غير أساليب الفراش. وللنمل غير أساليب النحل. وللطير غير أساليب الحيوان. وللحيوان غير أساليب الإنسان.

أمّا مواقيت التزاوج فهي للدجاجة مرّة واحدة في كلّ يوم تقريباً. وللحمام والأرانب والفئران والجرذان وكثير غيرها مرّات عدّة في السنة. وللعصافير وجانب كبير من الطير والحيوان مرّة واحدة في السنة. وتزاوج هذه جميعها لا يتمّ إلاّ بدعوة من الأنثى، وإلاّ لغاية واحدة - هي تجديد النسل. والإنسان هو الكائن الوحيد على الأرض الذي شذّ عن هذه القاعدة. فهو يتزاوج ساعة يحلو له، لا فرق بين ليل ونهار، وربيع وصيف، وخريف وشتاء. ويتزاوج لا لتجديد النسل فقط، بل لمجرّد المتعة.

Twitter: @ketab_n

وقد يحمله حبّ المتعة على التضحية بالغاية التي من أجلها كانت المتعة - أي بالنسل. لذلك بات نظام الإنسان أوسع من نظام الغريزة. إذ بات في إمكانه أن يحوّل الغريزة عن أهدافها، وأن يستسلم لها أو لا يستسلم. بل بات في إمكانه، إذا هو انصرف بكلّ ما أوتيه من قوّة الفكر والخيال والوجدان والإرادة إلى محاربة الغريزة، أن يتغلّب عليها، فيعمل ما يعمله عن وعي، وبسلطان من عنده لا من الغريزة.

إن في تصميم الأشياء والأحياء من حيث كثرتها، ومن حيث أجناسها وأشكالها وألوانها وطبائعها، لعجائب يقف العقل والفكر أمامها حائرين، مشدوهَين. ولكن العجيبة الكبرى هي الغريزة التي تمكّن الأحياء من البقاء فترة من الزمن قصيرة أو طويلة تستطيع في خلالها أن تستمتع بقسط من لذّة الوجود، وأن تعمل على تجديد نسلها.

فبالغريزة تعرف العصفورة أبناء جنسها وتميّز الذكور من الإناث. وبالغريزة تعرف القوت الذي يحييها فتسعى إليه، والذي يميتها فتهرب منه. وبالغريزة تطمئن إلى أصدقائها وتنفر من أعدائها. وبالغريزة تسعى إلى الذكر ويسعى إليها في الربيع. لا يتمّ التزاوج حتى تدرك بالغريزة أن نتيجته ستكون عدداً من البيض، وأنّ البيض لا بدّ له من عشّ أمين، دافئ يُلقى فيه. ولذلك تمضي ورفيقها في

Twitter: @ketab_n

التفتيش عن مكان ملائم. وليس مَن يدري كيف يتشاور الزوجان في شأن المكان وكيف يتفقان في النهاية على هذا المكان دون كلّ الأمكنة. وبالغريزة يتعاون الزوجان في جمع الموادّ الضروريّة للعش وفي بنائه. وبالغريزة ترخم العصفورة على البيض عندما يكتمل، فلا تفارقه إلاّ هنيهات في كلّ يوم إلى أن تنقف منه الفراخ. وعندئذ تبدأ مهمّة الزوجين في زَقّ الصغار إلى أن تصبح قادرة على الطيران بعيداً والتفتيش عن رزقها بجهدها الخاص.

والغريزة هي التي تقود الطيور القواطع غير القارّات والمحيطات، والتي تردّ النملة إلى قريتها، والنحلة إلى خليّتها، والهرّة إلى بيتها حتى وإن حمَلتها في كيس عشرات الأميال بعيداً عن بيتها. في حين أنّ الإنسان المعتزّ بعقله وخياله قد يضيع عن بيته إذا هو ابتعد عنه بضعة أميال وتوغّل في غابة أو في واد — حتى وإن كانت في يده بوصلة. وما ذلك إلاّ لأنّه بات يتّكل على عقله وخياله أكثر من اتكاله على غريزته.

ولأنّني عاشرت النحل وخبرت شيئاً من حياته وأطواره فإنّي محدّثك باختصار عن هذه الحشرة البديعة وغريزتها العجيبة. وحديثي لن يكون حديث عالِم من علماء الحيوان والأحياء. بل حديث رجل يشوقه أن يراقب ويقارن ويستنتج. فقد يكون لي ولك في النحلة معلّم لا ترقى إلى فطنته فطنة أكبر الفلاسفة.

Twitter: @ketab_n

لقد استرعت النحلة انتباه الإنسان من زمان. فأخذ يربّيها لينتفع بشهدها وشمعها. وكلّما اتّسعت معرفته بأطوارها اتّسع نطاق انتفاعه بها بتحسين الوسائل لتربيتها. والنحل يعيش جماعات جماعات. فلكلّ جماعة خليّتها أو قفيرها. وقد يبلغ عدد النحل في القفير الواحد عشرة أو عشرين ألفاً. فلا تتوانى أيّ نحلة عن القيام بالعمل المنوط بها، ولا هي تخلّ قيد شعرة بالنظام الذي يبدو من الدقّة والإحكام بحيث لا يترك مجالاً لأيّ تذمّر، أو شكوى، أو عصيان، أو ثورة. فالحياة في القفير، برغم ازدحامه، تجري جريان الدم في العروق، وجريان الماء في الجدول الصافي.

تقوم على رأس كلّ جماعة من النحل نحلة واحدة هي الملكة التي تتميّز من رعاياها بشكلها. فقامتها أطول بقليل، ولونها أميل إلى الاصفرار من ألوان رعاياها. وما بقي من الجماعة فإمّا عاملات عذارى، وإمّا يعاسيب. والملكة هي بحقّ أمّ الخليّة وصاحبة السلطان المطلق فيها. إذ ان من أحشائها جميع النحل الذي في الخليّة. فهي وحدها المجهّزة بجهاز تناسلي يمكّنها من تجديد حياة الخليّة. وهي تتلقّح مرّة في السنة وتبيض في خلال عمرها الذي يمتد بضع سنين نحواً من خمسة ملايين بيضة.

أمّا العذارى من النحل فقد حُرِمْنَ لذّة التناسل وفُرض عليهنّ أن يكنّ وصيفات للملكة، وأن يهيّئن لها الأقراص الضروريّة لوضع

Twitter: @ketab_n

بيضها، ثمّ أن يغمرن كلّ بيضة بالغذاء الضروري للنحلة التي ستنقف منها. وبناء الأقراص يكلّف العذارى من الجهد في صنع الشمع وفي هندسة النخاريب للبيض ما يعجز عن استيعابه العقل وعن وصفه اللّسان. فلكي تفبرك غراماً واحداً من الشمع تستهلك النحلة سبعة غرامات من العسل. والشمع تفرزه النحلة من صدرها كما نفرز العَرَق، ثمّ تجمعه بيديها وتبني منه أقراصها العجيبة بنخاريبها المسدّسة المدهشة بهندستها وتناسقها ومتانتها بالنسبة إلى الغاية التي صُنعت من أجلها.

وما إن تنتهي العاملات من صنع قرص حتى تأتي الملكة فتضع بيضة في كلّ نخروب من نخاريبه. ومن بعدها تمضي العاملات في جمع الطلع ووضع كميّة محدودة منه في كلّ نخروب. حتى إذا اكتمل الزاد في النخروب أحكمن سدّه من فوق بمادة تمنع عنه النور والهواء. أمّا النخاريب المعدّة لتوليد الملكات - وهي قليلة جدّاً في الخليّة الواحدة - فالعاملات يجعلنها أطول من غيرها ويضعن فيها زاداً خاصّاً بالملكات. وهو الطعام العجيب الذي من خصائصه أن يجعل من الدودة التي تغتذي به ملكة، لا عاملة عذراء ولا يعسوباً.

وعندما ينتهي فصل التوليد وتؤمّن الجماعة على استمرارها حتى السنة القادمة تنصرف العذارى إلى جمع العسل وتخزينه في

Twitter: @ketab_n

النخاريب التي فرغت من المواليد كيما يكون لها مؤونة في الشتاء. فإذا امتلأ النخروب عمدت إلى سدّه بمادّة تمنعه من التسرّب إلى الخارج.

هذه لمحة إجماليّة وسريعة عن حياة النحلة. ولكن العبرة ليست فيها. بل في الجوانب الدقيقة منها. وسأذكر بعضها:

هنالك عمارات من النحل قد يبلغ عدد قفرانها المئة والمئتين وأكثر. وهذه القفران قد تتجاور وتتلاصق. ولكلّ منها مدخل لا يتجاوز بضعة السنتيمترات طولاً والسنتيمتر الواحد علوّاً. والنحلة قد تبتعد عن عمارتها مسافة أربعة كيلومترات وأكثر في طلب الجنى. ثمّ تعود فلا تخطئ مدخل قفيرها بين جميع القفران، ومدخل قفيرها بالنسبة إلى الدنيا الواسعة التي جابتها في جولتها يكاد يكون سمّ الإبرة بالنسبة إلى الجبل. فمن أين لها هذه الدقّة المدهشة في الاتجاه؟ وهل أن ميزان تلك الدقّة قائم في رأسها، أم في بصرها، أم في شمّها، أم في كيانها كلّه؟ وإذا اتّفق - وذلك نادر جدّاً - أن أخطأت نحلة قفيرها فوقعت على مدخل قفير آخر انبرت لها في الحال نحلات من ذلك القفير وأكرهنها على الهرب. فمن أين لتلك النحلات الحس العجيب بأن النحلة الضالّة ليست من جماعتها؟

من المعروف عن النحل أنّه يعيش عيشة اشتراكيّة خالصة، وأنّ العمل بين أفراده موزّع بطريقة هي الغاية في العدل والدقّة.

Twitter: @ketab_n

فمن الذي يوزّع العمل؟ مَن الذي يقول لهذه النحلة: احرسي الباب؟ وللأخرى: اجعلي من جناحيك مروحة لئلاّ يسيل العسل من الأقراص؟ وللثالثة: ارفعي هذه القشّة التي حملتها الريح إلى داخل القفير واطرحيها خارجاً؟ وللرابعة: اذهبي في طلب الطلع، أو الرحيق، أو أكملي بناء هذا النخروب أو ذلك؟ وللخامسة: افعلي كيت وكيت؟ أهي الملكة؟ وكيف تتفاهم الملكة مع رعاياها؟ أم هي الغريزة؟ وكيف للغريزة أن توزّع العمل بين آلاف النحل فلا تبقى أيُّ نحلة بدون عمل، ولا تُفسد نحلة عمل الأخرى، أو لا تكرر نحلة عمل أختها؟

ومن المعروف عن النحل أنّه لا يستطيع العيش لحظة واحدة دون ملكته. فإذا خرجت من القفير خرج النحل كلّه معها. ولكنّه عندما تطير الملكة من القفير بقصد الزواج لا يتبعها من النحل إلاّ الذكور. أمّا الإناث فتمضي في عملها. فكيف تعرف العاملات العذارى أنّ ملكتهن غادرتهن لغاية شريفة تترتّب عليها حياة الخليّة كلّها، فلا يضطربن ولا يلحقن بها؟

وعندما يضيق القفير بسكّانه يصبح لزاماً على قسم منه أن يهجره ليبني له خليّة جديدة. والقسم الذي يهجر هو ما يدعونه الثَّول أو الخَشْرم. ويُعرف في جبالنا باسم «الفرخ» أو «الطِّرد»، فمَن الذي يأمر هذه النحلة بالبقاء ويأمر الأخرى بالاستعداد

Twitter: @ketab_n

للرحيل؟ والنحلة التي تستعدّ للرحيل لا بدّ لها من أن تختزن في معدتها مؤونةً من العسل ولو لثلاثة أيّام ريثما تستقر في بيتها الجديد، وريثما تتهيّأ لها الفرصة للجنى. ومَن الذي يقرّر اليوم والساعة للرحيل؟

ويخرج الثول ومعه أكثر من ملكة واحدة. وكلّهن من الجيل الجديد. ولكن بينهنّ واحدة تتفرّد بالزعامة. فمن الذي يختارها؟ وهذه، في الغالب، تحط على أقرب غصن من أقرب شجرة. فيتكدَّس النحل فوقها حتى ينوء الغصن بالثول ويتخذ الثول شكل مخروط قمّته إلى أسفل. وهنا تتمّ أسرار تحيّر العقول. فلا بدّ للجماعة النازحة عن بيتها القديم من التفتيش لها عن بيت جديد. ولا بدّ للبيت الجديد من أن تتوافر فيه شروط كثيرة من حيث تكوينه واتّساعه ومناعته ضدّ الأعداء وضدّ العناصر من عواصف وسيول وثلوج وما أشبه. فمن يتولّىالتفتيش عن مثل ذلك البيت إذا اتّفق وفات صاحب النحل أن يهيئه للثول ويفرغه فيه؟ في مثل تلك الحالة ينطلق من الثول روّاد في شتى الاتجاهات، ويبقى الثول في مكانه إلى أن يعود جميع روّاده ويفضي كلّ منهم بما عنده. وعندئذ يتخذ قراره النهائي، فيأخذ النحل يتطاير ليفرج عن الملكة المحصورة في وسطه. وهذه تأخذ في التحليق والنحل يدوّم من حولها، ثمّ تتّجه في خط مستقيم

Twitter: @ketab_n

إلى المقر الجديد فتدخله ويتبعها جيشها. والمقر الجديد قد يكون في رأس صخرة عالية، أو في جوف شجرة قديمة، أو في فجوة ضيقة بين صخرتين متلاصقتين، أو نحن ذلك.

فمَن هو الذي يختار الروّاد؟ وكيف يختارهم ويبلّغهم أوامره؟ وكيف يدلي الروّاد بآرائهم، ولمن؟ ومن الذي يقرّر في النهاية أيّ الآراء هو الأصحّ، وأيّ المساكن هو الأصلح؟

ومن بعد أن يستقرّ الثول في مسكنه الجديد تنشب معركة حياة وموت بين الملكات اللواتي فيه. ولا تنتهي المعركة إلاّ بموت جميع الملكات ما عدا واحدة هي الأقوى بينهنّ. أمّا باقي النحل فيشهد المعركة من غير أن يتحيّز لملكة دون ملكة. ولكنّه، حالما تنتهي المعركة، يعلن ولاءه وطاعته للملكة المنتصرة ويمضي في بناء بيته الجديد.

أمّا إذا أراد النحّال أن يردّ الثول إلى الخليّة التي خرج منها فلن يتأتّى له ذلك إلاّ بالقضاء على جميع الملكات التي فيه. وإذ ذاك فما عليه إلاّ أن يهزّ الغصن الذي تعلّق به الثول ليقع النحل على الأرض. وعندئذ يمكنه أن ينقّي الملكات منه.. ولكنّها عمليّة تتطلّب الكثير من الصبر والسرعة واللباقة. ولأنّني عرفت ذلك فقد اتّفق لي ذات مرّة في الشخروب أن قبضت على آخر ملكة في ثول شئت أن أردّه إلى قفيره. فأمسكتُ الملكة بالإبهام

Twitter: @ketab_n

والسبّابة ووضعت يدي بين النحل الذي راح يفتّش عنها. فما ان اشتمّ رائحتها بين إصبعَيّ حتى أخذ يتجمّع على يدي ويمتد إلى ما فوق المرفق. وأنا كذلك إذا بجماعة من النّاس قادمين لزيارتي، وعندما استقبلتهم، وقد انجدل النحل على ذراعي، كادوا يولّون الأدبار من شدّة رعبهم. ولم يكن من السهل عليّ أن أقنعهم بأن ما أبصروه من شأني مع النحل لم يكن ضرباً من السحر!

أعود إلى اليعسوب الذي بات مضرب المثل بأنّه لا يجني ولا يقوم بأيّ عمل في الخليّة، ولكنّه يأكل من جنى العاملات ويعيش بتعبهنّ. فما السرّ في أن العاملات يتحمّلن غلاظته وثقالته ولا يمنعن عنه جناهنّ الذي جمعنه بشقّ النفس؟

السرّ في أن اليعسوب ضروري لتلقيح الملكة. فالعاملات العذارى يصبرن عليه ما دامت الملكة غير مهيّأة للزواج. ولكنّهن، حالما يتمّ زواج الملكة، يشرعن في تقتيل اليعاسيب وتهشيمها إلى أن لا يبقى في الخليّة يعسوب واحد. إنّها لمجزرة مروّعة تلك التي تقوم بها العاملات على مدى أيّام بعد زواج الملكة. وهنّ يعرفن أن زواج الملكة قد تمّ لأنّها تعود إليهن وقد علقت بمؤخرتها أشياء من جهاز اليعسوب التناسلي وأمعائه. وزواج الملكة يتمّ في أعالي الجوّ. فما إن تخرج من القفير حتى يتبعها جميع اليعاسيب. وقد يبلغ عددها الألف والألفين. وتأخذ الملكة في التحليق أبعد فأبعد،

Twitter: @ketab_n

وأعلى فأعلى، واليعاسيب تجدّ في أثرها إلى أن لا يبقى في الجوّ غير يعسوب واحد هو أشدّها وأقواها. وهو الذي تستسلم له الملكة فيدفع حياته ثمناً لذلك الاستسلام!

في استطاعتي أن أمضي بعيداً في حديثي عن النحلة. فأروي لك أشياء وأشياء عن حاسّة الشمّ العجيبة التي تملكها، وعن نظافتها الخارقة في ما يتعلّق بشخصها وبحياة خليّتها، وعن تفانيها في الدفاع عن ملكتها وعشيرتها وحرمة بيتها. ولكنّني أحدّث عن حياتي لا عن حياة النحلة. ولولا أنّ حياة النحلة، وحياة كلّ ما في الأرض وغير الأرض من أشياء محسوسة وغير محسوسة، وحيّة هي بعض من حياتي لما حدّثت عنها قليلاً أو كثيراً. فالخيال الذي أبدعها أبدعني. والغريزة التي تسيّرها لا تزال تسيّرني إلى حدّ بعيد. وما الفارق بيني وبينها إلاّ في أنّني أملك قوى لا تملكها. وهذه القوى هي الخيال والفكر والوجدان والإرادة. وهي قوى تنبع من صميم القوّة التي منها النظام الكامل، الشامل، الأبدي، الأزلي بما فيه نظام الغريزة العجيب.

والقوى التي أملكها قابلة للنموّ بالاستعمال المستمرّ، والمران المستمرّ. وما الطبيعة بجميع ما فيها من عجيب الأشكال، وغريب الهندسة، وبديع الألوان، سوى المشحذ الذي يشحذ قواي ليل نهار. المهم أن أحسن استعمال المشحذ، وأن لا أسمح للصدإ بأن

Twitter: @ketab_n

يتأكّل قواي إلى حدّ أن لا يفعل فيها أي مشحذ. فخيالي وأنا أساعد الأرض في توليد البذور والبقول والثمار هو غير خيالي وأنا غارق في الملاهي والمحاشش والمواخير. وفكري وأنا تحت قبّة مرصّعة بالنجوم هو غير فكري وأنا تحت قبّة تغمر بفيض من الأنوار الكهربائيّة مع جماعة من النّاس جاؤوا ليقتلوا ساعات من أعمارهم في حفلة كوكتيل. ووجداني وأنا أرقب عصفورة تزقّ فراخها هو غير وجداني وأنا أرقب نهاية آلاف البهائم في المسلخ. وإرادتي وأنا أتأمّل النسور تدوّم في الجو هي غير إرادتي وأنا أزحف مع الزاحفين على أرصفة المدن حيث الحياة رغوة دائمة.

لا أنت ولا أنا نستطيع أن نولّد إلاّ إذا أخذنا التوليد من الطبيعة؛ ولا أنت ولا أنا نستطيع أن نفكّر إلاّ إذا استقينا الفكر من الطبيعة؛ ولا أن نتذوّق الجمال والمحبّة والحنان إلاّ في الطبيعة؛ ولا أن ندرك معنى الخلود إلاّ في خلود الحياة التي هي وحدها القوّة المولّدة في الطبيعة. فهي التي تخلق ولا خالق لها. وهي التي تميت ولا تموت. وهي التي تتصرّف بما تخلق ولا يتصرّف بها ما تخلقه. والذي تخلقه هو المرآة التي تتجلّى فيها لكائنات لا تزال مقيّدة بالحواسّ مثلنا. وكما أنّ المرآة تعكس الأشكال وليست الأشكال، هكذا تعكس الأشياء الحياةَ ولكنّها ليست الحياة. فالحياة في الشجرة. ولكنّ الشجرة ليست الحياة. والكهرباء في

Twitter: @ketab_n

المصباح الكهربائي. ولكن المصباح ليس الكهرباء. وإذا استبدلتُ بكلمة الحياة كلمة «اللّه» قلتُ إنّ اللّه في كلّ شيء، ولكنّ شيئاً من الأشياء ليس اللّه.

إي. عظيمة هي الطبيعة، وجليلة، وكريمة. ولكنّ عظمتها وجلالها وكرمها ليست منها بل من الحياة التي تتجلّى فيها. وأعظم من الطبيعة هو الإنسان الطامح الى الانفكاك من جميع القيود والحدود، والى فهم الحياة مجرّدة من أكسيتها، وإلى الاتحاد بها ومطاوعتها عن فهم ووعي وإرادة، لا عن جهل وغير وعي، ولا عن عبوديّة للغريزة. إنّه يحلم بأن يصبح روحاً صافياً كما هي الحياة التي في داخله روح صافٍ لا يحصره زمان ولا يحدّه مكان.

«وكتاب عجيب هي الطبيعة. ولكن للذين يحسنون القراءة فيه، ويفهمون ما يقرأون. ومدرسة شاملة هي الطبيعة. ولكن للذين شوقهم إلى الدرس والمعرفة يفوق بكثير شوقهم إلى ملذات اللحم والدم. ومعلّم فوق كلّ المعلّمين هي الطبيعة. ولكن لقوم يسمعون بأكثر من آذانهم، ويبصرون بأكثر من عيونهم، ويشمّون بأكثر من أنوفهم. وهؤلاء هنيئاً لهم ما يشتاقون ويقرأون، وما يبصرون ويسمعون، وما يشمّون ويتذوّقون[1]».

---

(١) «مدرسة الجميع» في «النور والديجور».

Twitter: @ketab_n

بيت جديد

كنت لا أزال في نيويورك عندما أخذ اسمان يتردّدان كثيراً على ألسنة النّاس، وفي المذياع والصحف. وذانك الاسمان هما «موسوليني» و «هتلر». والرجلان قفزا بسرعة مدهشة من الظلمة إلى النور. من الكرات إلى الأعلام. فكأنّهما ماردان برزا من قمم. والرجلان كانا من فرط الذكاء والدهاء، ومن ذرابة اللسان، وقوّة العارضة والشكيمة بحيث استطاعا في مدّة قصيرة أن يُلهبا مشاعر شعبيهما - موسوليني في إيطاليا، وهتلر في ألمانيا. واستطاعا أن يستأثرا باهتمام العالم زمناً ليس باليسير، وأن يجنّدا لهما أتباعاً في بلدان عديدة، ثمّ أن يثيرا في العالم زعازع كادت تقوّض أركانه. وهديرها لا يزال له صدى في آذان الكثير من النّاس ونفوسهم حتى اليوم.

والذي ساعد موسوليني وهتلر على إثارة ما أثاره من الزعازع هو الوضع الشاذ في عالم ذلك الزمان. فدولتان من دول أوروبا هما بريطانيا وفرنسا كانتا تملكان كلّ آسيا وإفريقيا تقريباً، وكلّ أوقيانيا، وجزراً كثيرة منثورة هنا وهناك. تشاركهما في ذلك إلى حدّ جدّ محدود بعض الدول الأوروبيّة الصغيرة كهولندا وبلجيكا والبرتغال. أمّا أميركا بقارّتيها الشماليّة والجنوبيّة فكانت

Twitter: @ketab_n

تحت سيطرة عملاق آخر هو الولايات المتحدة. وهذه الدول - الغيلان - كانت تحكم ذاتها، وتحكم مستعمراتها ومناطق نفوذها باسم الحريّة والديموقراطيّة. وكانت مطمئنّة إلى حكمها، وإلى حاضرها ومستقبلها.

إلاّ أن حدثاً لم يكن في الحسبان أفسد عليها اطمئنانها. وذلك الحدث لم يكن غير ثورة البلاشفة في روسيا. فهذه الثورة جاءت بنوع من الحكم غير مألوف في الأرض. أمّا اسمه فالشيوعيّة. وقد كانت من الحيويّة والجرأة والإيمان فأفضليتها على باقي أساليب الحكم المعروفة بحيث أخذت تبثّ لذاتها دعاية في جميع أقطار الأرض. وكانت دعايتها فعّالة، أخّاذة، وعلى الأخصّ في البلدان التي كانت تئنّ تحت أوزار الاستعمار.

وجاء موسوليني وهتلر ليزيدا بلّة في طين الدول الاستعماريّة. فلا ذاك ولا هذا وجد في الديموقراطيّة أو في الشيوعيّة ما يكفل لبلاده الضيّقة الرقعة، القليلة الموارد، المزدحمة بالسكّان، عيشاً رخيّاً ومكانة بين الأمم تليق بصفاتها ومواهبها ومؤهّلاتها. لذلك راح موسوليني ينفث في شعب إيطاليا روح العظمة والكبرياء مذكّراً إيّاهم أنّهم من سلالة الرّومان الذين دوّخوا الأرض في ما مضى. وكان أن غزا موسوليني الحبشة والصومال. وراح هتلر يؤكّد للشعب الألماني أن الطبيعة قد

Twitter: @ketab_n

وضعته في رأس جميع الشعوب بفضل ما حبته من قوّة الفكر والعضل والتنظيم والإدارة. ولأنّ بلاده تضيق به فهو في حاجة إلى «مدى حيويّ» له وحده الحقّ في تقريره وتقرير الوسائل للحصول عليه - بالسلم إذا أمكن، وبالحرب إذا لم يكن بدّ من الحرب.

ولأنّ كلا الرجلين كان يكره الديموقراطيّة والشيوعيّة بالسواء؛ ولأن بلديهما كانا في حاجة إلى «المدى الحيويّ» فقد تشابهت أوضاعهما، وتقاربت مطامعهما. فلم تلبث «فاشيّة» موسوليني أن تحالفت و «نازيّة» هتلر. فبات تحالفهما يُعرف بمحور روما - برلين. ثمّ لم يلبث المحور أن امتدّ إلى أقصى المشرق فانضمّت إليه اليابان التي كانت أوضاعها في الشرق تشبه أوضاع ألمانيا وإيطاليا في الغرب... وهكذا بات العالم يدور لا على محور واحد. بل على ثلاثة - الديموقراطيّة والشيوعيّة والفاشيّة أو النازيّة. واحتكاك هذه المحاور الثلاثة أخذ يولّد شراراً، ثمّ حرارة، ثمّ ناراً حامية اندلعت ألسنتها في أواخر سنة ١٩٣٩ .

في تلك السنة أصبحت حاجتي، أنا كذلك، إلى «المدى الحيويّ» ملحّة كحاجة هتلر وموسوليني، مع الفارق أنّني لما فكّرتُ لحظة في اكتساب ذلك المدى بالقوّة، وعلى حساب أي جار من جيراني. فالبيت الذي كنت أسكنه لم يكن بيتي، بل

Twitter: @ketab_n

بيت خالي. وقد كان مرهوناً. والرهن أوشك أن يستحقّ. وأوشكت ملكيّة البيت أن تنتقل إلى أيدٍ جديدة. وبات لزاماً عليّ أن أفتّش عن مسكن آخر. فالبيت الذي يسكنه أهلي لا يتّسع لي ولهم. وهو من الطراز القديم. وسطحه الترابي بات ملجأ لجماعات كثيرة من النمل لا تنفكّ في حركة دائمة طول النهار، ولا تنفكّ تنثر التراب على أثاث البيت وعلى ساكنيه. فكيف أسكنه، وكيف أستقبل فيه الذين أخذوا يفدون لزيارتي في شتى الفصول ومن شتى الأقطار؟ إنّه لمأزق يصعب الخروج منه. ولا بدّ من الخروج. فكيف العمل؟

في ذلك الظرف بالذات جاءني أحد المحامين من أنسبائي، وكان يعرف قضيّة الرهن. فأكّد لي أن في استطاعته حلّ المشكلة دون عناء يُذكر. فخالي قد رهن بيته على أنّه ملكه وحده. في حين أن لوالدتي وشقيقتيها نصيباً فيه يفوق نصيب خالي. فالرهن في هذه الحالة يثبت على حصّة خالي ولا يثبت على حصّة والدتي وخالتيّ. ولكنّني، على شدّة حاجتي إلى مسكن، رفضت عرض نسيبي المحامي وقلت له إنّني لن أرضى «أن أتناول طعامي من مثل تلك المطابخ». فلن أقف في محكمة لأطالب بإرث لأمّي. ولن أزاحم غيري على تملُّك بيت كان وبالاً على الذين بنوه. ففي اعتقادي أن الأشياء - حتى الحجارة الصمّاء -

Twitter: @ketab_n

تكتسب من صفات الذين يلاصقونها بأجسادهم وأرواحهم. وأنا أعرف أن جدران بيت خالي وأرضه وسقفه والجوّ الذي فيه وحواليه قد امتصّت الكثير من الحسرات والعبرات، ومن الخصام والنفار والشقاق، فلا أطيقها مسكناً دائماً لي حتى ولو جاءتني بالمجّان.

واتّفق أن جاءني في ذلك العام تعويض من الجيش الأميركي لقاء خدماتي فيه بمبلغ خمسمئة دولار. وأن جاء والدتي بعض الماء من أخويّ في والا والا بالإضافة إلى مبلغ كانت قد ادّخرته من زمان وكانت تحتفظ به «لآخرتها». ولكنّها باحت لي به عندما شعرت بالمأزق الذي أنا فيه. جمعتُ ما لديّ ولدى الوالدة من المال فإذا به يبلغ مئة لبرة عثمانيّة ذهباً أو أكثر بقليل. وكانت لي الجرأة أن أقدم على بناء بيت جديد وليس في حوزتي غير ذلك المبلغ الزهيد.

عندما أفضيت بما في خاطري إلى أخي نجيب كاد لا يصدّق. ولكنّه امتثل لإرادتي فتقاول مع عمّال لقطع الحجارة الضروريّة في خريف تلك السنة - ١٩٣٩ . وفي منتصف أيّار من السنة التالية كانت المعاول تعمل في هدم البيت القديم، ثمّ في حفر أسس الجديد. وكنّا قد تقاولنا مع معماري على أن نحفر الأسس على نفقتنا، وأن يبني هو الجدران من بعد ردم الأسس.

Twitter: @ketab_n

وممّا هوَّن عليّ المغامرة أنّ أجرة العامل كانت نصف ليرة لبنانيّة. وأجرة المعلّم ليرة واحدة في النهار. أذكر أنّنا انتهينا من حفر الأساس في الجهة القبليّة مساء سبت. وأن عمق الأساس بلغ ثلاثة أمتار ويزيد. وكان من المنتظر أن يبدأ البناء صباح الاثنين. ولكنّ أخي جاءني باكراً جدّاً في صباح الأحد ليخبرني بصوت مخنوق وعينين تكادان تدمعان أنّ الأساس قد انهار في اللّيل. «لقد خربنا بيتنا القديم بأيدينا. وها هو بيتنا الجديد يخرب ولمّا نباشر ببنائه». هكذا قال.

ذهبت إلى حيث الأساس المنهار. لقد كان منظراً مروّعاً. ولكنّني لم أجبن. وقلت لأخي أن يذهب في طلب المعلّم المعماري لعلّه ينقذ من الانهيار ما تبقّى من الأساس. وعدت إلى مكتبتي، وبثقة الواثق من أن أي عمل أقوم به أو يقوم به غيري لا أقوم به وحدي، ولا يقوم به وحده، أخذت التوراة وفتحتها كيفما اتّفق، ووضعت إصبعي على مكان من الصفحة التي انفتحت عليها، وإذا بي أقرأ ما يلي من سفر عزرا، الفصل الثالث، والعدد الحادي عشر:

«ولمّا أسّس البنّاؤون هيكل الرب قام الكهنة في ملابسهم بالأبواق واللاويّون بنو آساف بالصنوج وهتف جميع الشعب هتافاً عظيماً وهم يسبّحون الربّ لأجل تأسيس بيت الربّ».

Twitter: @ketab_n

ليستنتج القارئ من هذه «المصادفة» العجيبة ما يشاء. وليرمني بالسخف إذا شاء. ولكنّني، من بعد أن قرأت ما قرأت، أيقنت أن «اليد الخفيّة» التي قادتني من قبل كانت تقودني، وستبقى تقودني، ما دمت مؤمناً بها ومطمئنّاً إلى قيادتها. فالظاهرات المحيّرة في حياتنا وحياة الطبيعة، والتي لا نستطيع فهمها وتعليلها لأكثر من أن تحصى، سواء أكانت من النوع الذي ذكرت، أم من نوع الأحلام والرؤى والحدس والإلهام. فجهلنا لمصادرها ليس مسوّغاً كافياً لإنكارها. ولعلّني أكرّس لها فيما بعد فصلاً مستقلاً من فصول هذا الكتاب.

كان من الحرب الدائرة في أوروبا أن أسعار الذهب أخذت ترتفع يوماً بعد يوم. فما سقطت بلجيكا حتى بيعت الليرة العثمانيّة الذهب بثلاثين ليرة لبنانيّة. وأيقنت أن هذا الارتفاع في أسعار الذهب سيعقبه ارتفاع في أثمان مواد البناء وغيرها من الحاجات. وليس بمستبعد أن يختفي الكثير منها بسبب صعوبة المواصلات وجشع الانتهازيّين والمحتكرين. فبادرت في الحال إلى تبديل ما لديّ من ليرات عثمانيّة بليرات لبنانيّة، وإلى شراء كلّ ما يلزمني من مواد البناء. وكنت في سباق مع الأحداث. وكنت أخشى، إذا هي سبقتني، أن يضيع عليّ كل عملي.

ولكنّني، لا بفضلي بل بفضل «اليد الخفيّة»، استطعت أن

Twitter: @ketab_n

أخرج من المعركة كما خرج الإسرائيليون من البحر الأحمر عندما انفتح لهم فعبروه، ثمّ أطبق على فرعون وجيشه حالما خرجوا منه. فالأسعار كانت تحلّق أعلى فأعلى، والمواد كانت تختفي يوماً بعد يوم. ولو لم يتمّ البناء في الوقت الذي تمّ فيه لما كان له أن يتمّ على الإطلاق. فما انتصف تشرين الثاني (نوفمبر) من تلك السنة - ١٩٤٠ - حتى كانت العائلة قد انضوت جميعها تحت سقف البيت الجديد. وكان السقف من القرميد. وجاء البيت قصراً منيفاً بالنسبة إلى البيت القديم.

وتراني حتى اليوم، كلّما فكّرت في بيتنا الجديد وكيف قام، أعدّ قيامه شبه أعجوبة. فلو أنّنا قدّمنا بناءه قبل ذلك بعام، أو لو أنّنا أخّرنا بناءه بعد ذلك بأسابيع لا بعام، لما كان لنا أن نبنيه من غير أن نثقل كواهلنا بالدين. ولكنّنا أنجزناه دون أن نستدين أكثر من مئتي ليرة لبنانيّة. وهذه لم نلبث أن دفعناها عندما باع أخي نجيب بندقيّة حربيّة ألمانيّة كان قد اقتناها من مخلّفات الحرب العالميّة الأولى وكان يعتزّ بها كثيراً. ولكنّه مثلي لا يطيق أن يكون مديناً لأيّ إنسان ولو بقرش حتى ولو اضطرّ أن يبيع القميص الذي على بدنه.

ولكَم شكرت القدرة التي هيّأت لي بناء ذلك البيت، لا

Twitter: @ketab_n

المؤلّف على قمّة صنّين ١٩٣٢

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

شمادم المتحجّر

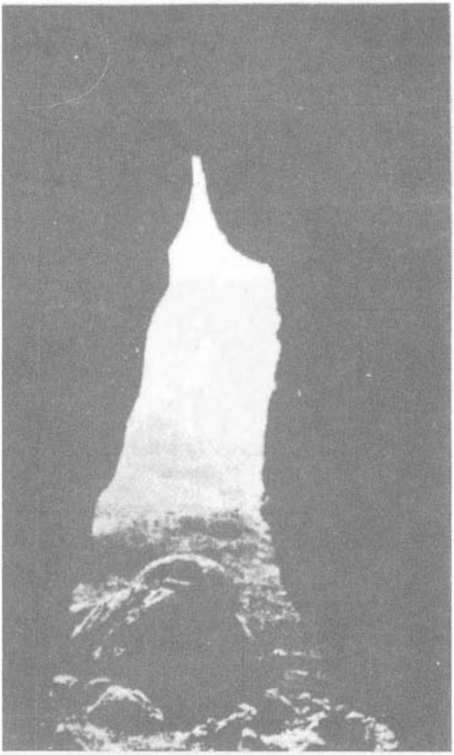

مدخل الكهف مع صخرة شمادم

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

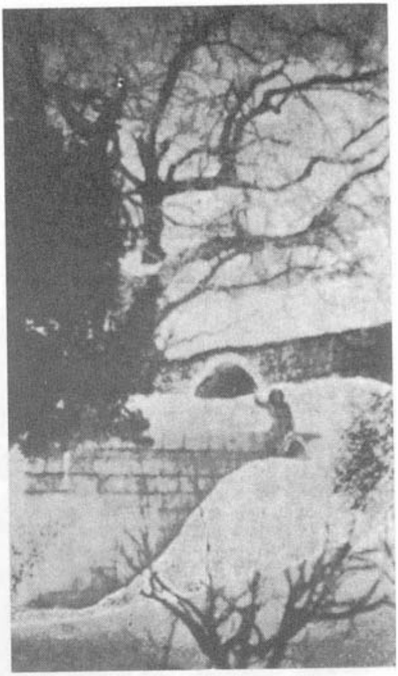

الكوخ القديم في الشخروب

تحت الثلج

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

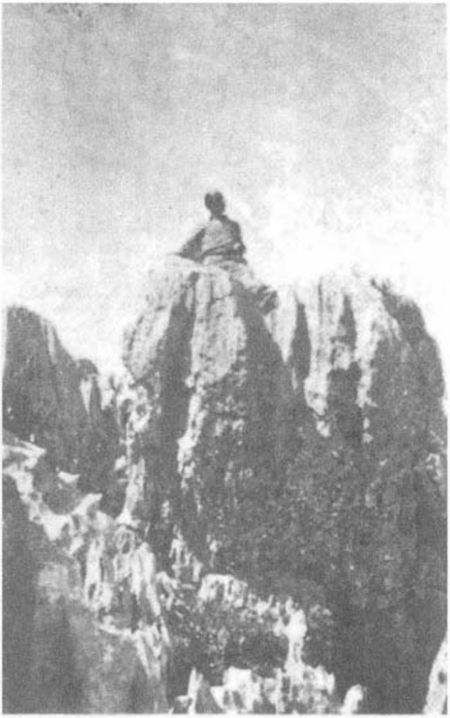

المؤلف على رأس صخرة شاهقة

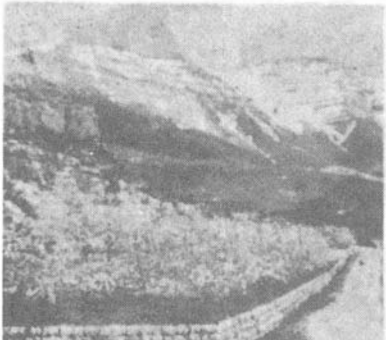

الزهر والثلج في الشخروب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لأرتاح وحدي، بل لأريح سواي، وعلى الأخصّ أمّي التي كنت، منذ أن وعيت نفسي، أسمعها تتحرّق على «حارة قرميد». لقد قُيّض لها أن تمضي السنوات الأربع الأخيرة من حياتها في بيت مؤلّف من غرف كثيرة ومسقوف بالقرميد الأحمر بدل التراب، وقُيّض لكاتب هذه السطور الذي تعلّم أوّل صلاة وكتب أوّل حرف على ضوء «النوّاسة» أن يعيش في بيت يستنير بالكهرباء، وينعم بفيض من الماء الجاري في داخله وفي خارجه، ويقعقع فيه جرس التلفون، ويزعق صوت الراديو. ولكنّ ذلك لم يتمّ له إلاّ بالتدريج، وعلى مدى أعوام.

لم يكن كاتب هذه السطور من السذاجة بحيث يعتقد أنّ الراحة يمكن أن تأتيه من المساكن مهما بلغت من الأناقة والرفاهية، وأنّ الكهرباء يمكن أن تحمل إليه النور الذي يشتاقه. فهو لا يزال يقنع بالحجر مقعداً وبالتراب فراشاً إذا لم يكن من مقعدٍ غير الحجر. ومن فراش غير التراب. وهو يعرف أن الراحة نعمة لا تجود بها الأشياء، ويجود بها الروح الذي يستخدم الأشياء. ويعرف أن كلّ نور غير نور الروح خدعة وظلمة؛ وأن لا قيمة للأشياء على الإطلاق إلاّ تلك التي يخلعها عليها أولئك الذين يتعملونها، ولا سلطان لها إلاّ على قدر ما يمكّنونها من التسلّط على أحاسيسهم وأفكارهم وسلوكهم. فما أكثر المتعبين

Twitter: @ketab_n

وكلّ أسباب الراحة الماديّة موفورة لهم! وما أكثر العميان في دور تتلألأ بالأنوار! وما أكثر الفقراء بين الأغنياء، والأغنياء بين الفقراء، وما أكثر القصور التي هي، في الواقع، قبور!

Twitter: @ketab_n

مصائب قوم...

خرجتُ من الحرب العالميّة الأولى وبي حقد عارم على الحروب ومثيري الحروب. واندلعت نيران الحرب العالميّة الثانية، وكانت أشدّ هولاً من الأولى بكثير، فلم تزدني غير حقدٍ على حقد. وأصبحت، كيفما انقلبت، لا أستطيع التهرُّب من أشباح المأساة الفظيعة التي بات العالم كلّه مسرحاً لها. فكأنّ تلك المأساة كانت تسفّه إيماني بنفسي وبالإنسان على الإجمال. أليس أنّ تفكيري المستمرّ بالإنسان وحياته قد قادني إلى اليقين بأن الإنسان سيتفتّح عن إله على مدى الزمان؟

وها هم الذين يدّعون زعامة النّاس، والذين يباهون بأنّهم خلقوا «مدنيّة» لم تعرف الأرض لها مثيلاً منذ أن كانت الأرض وكان النّاس - ها هم يتصرّفون تصرّفاً إذا هو نُسب إلى الوحش خجل به الوحش؛ ولم ينحدر إليه حتى المجانين في البيمارستان. فأين عقولهم؟ وأيّ قيمة لعلومهم وفنونهم، واكتشافاتهم واختراعاتهم، وفلسفاتهم وأديانهم؟ وأيّ خير لهم في الخبرة يجمعونها يوماً بعد يوم، وعاماً تلو عام، وعلى مدى آلاف الأعوام، ما داموا لم يتعلّموا من خبرتهم أنّ دماً يسفكونه لدم سيدفعون ثمنه منَ دمائهم؟ وأن لحماً يمزقونه سيُكرَهون على رتقه

Twitter: @ketab_n

بلحومهم؟ وأنّ مدى «حيويّاً» يغتصبونه اغتصاباً لن يكون لهم غير قفص وزنزانة، وغير مدى للموت؟ وأنّ حياة يضيّقون عليها الخناق ستكون قنبلة تودي بحياتهم؟ وروحاً يزهقونه سيكون بركان حقدٍ عليهم يقذفهم بحممه حتى من القبر؟

وأيّ خير لهم في خبرة يلملمونها من هنا وهناك ما داموا لم يفهموا بعد أن الذي جعلهم شركاء في البحر والهواء، وفي نور الشمس والقمر والنجوم، وفي الحزن والفرح، وفي الحياة والموت، جعلهم شركاء كذلك في الأرض. ففيمَ التخوم؟ وفيمَ القيود والسدود في وجه الإنسان؟ ألأنه أسود أو أبيض؟ أم لأنّه عربي أو أعجمي؟ أم لأنّه بوذي أو إسماعيلي؟ والإنسان إنسان قبل أن يصطبغ بالأسود أو بالأبيض؛ وقبل أن يكون عربيّاً أو أعجميّاً؛ وقبل أن يولد بوذا وعيسى وموسى ومحمّد. وجمال الإنسانيّة، كجمال الأرض، في أنّها متعدّدة الألوان، كثيرة المسالك. فحتى متى نُصرّ على الحدود والسدود، ونندفع حتى الموت في الحفاظ عليها، ثمّ نعجب للحروب تقوم بيننا لزحزحة تلك الحدود والسدود؟ والغريب أنّنا لا ننفكّ نتشدّق بالحرّيّة وبالسلم إذ نحن نقيّد الإنسان بالسلاسل فندفعه دفعاً على الحرب. لأن الإنسان لا يتعشّق شيئاً تعشُّقه للحياة. والحياة بغير حرّيّة كالجسد بغير روح.

لو أن فظاعة الحرب توقّفت عند تشويه الأجساد، وإزهاق

Twitter: @ketab_n

الأرواح، وتخريب العامر من الأرض، وتهديم الآهل من المدن والقرى، لكانت بعض الفظاعة، وبعض البشاعة. ولكنّها تشوّه الروح في الجسد قبل أن تشوّه الجسد. وتزهق الحقّ في الروح قبل أن تزهق الروح. وتخرّب العامر من العقول قبل أن تخرّب العامر من الأرض. وتهدم الضمائر الآهلة بالفضيلة قبل أن تهدم المدن والقرى الآهلة بالسكان. إنّها الكره الصاخب وقد أنزل المحبّة الصامتة عن عرشها فلبس تاجها، وحمل صولجانها. وإنّها الجبن المقيت وقد تسلّح بالقذائف الجهنميّة فراح يعربد باسم الشجاعة. وإنّها الجشع جنّ جنونه فمضى يعيث في الأرض فساداً تحت ستار العدالة وتوزيع الأرض وخيراتها بالقسط على أبناء الأرض. وإنّها العبوديّة الدميمة، الذميمة تبطش وتنهب وتهدم تحت شعار الحرّيّة الكريمة، السمحاء.

ففي لبنان الصغير الذي لم يسمع أزيز الرصاص، وهدير الطائرات، ودويَّ القنابل إلاّ لفترة قصيرة عندما دخلته الجيوش الإنكليزيّة مع حفنة من الجنود الفرنسيّين الديغوليّين، فقد النّاس في خلال الحرب إيمانهم بكلّ قيمة ما خلا قيمة القرش. وراح النفعيون والمحتكرون يستغلّون الشعب أبشع الاستغلال. فما كنت تسمع إلاّ عن حاجات اختفت من السوق بين ليلة وضحاها. وعن تجار كانوا صغاراً فباتوا كباراً، وعن فقراء أصبحوا في

Twitter: @ketab_n

مصافّ الأثرياء بفضل «السوق السوداء». ولجأت الحكومة إلى نظام البطاقة في توزيع الكثير من الضروريات كالقمح والدقيق والسكّر والعَلَف للماشية، وغيرها وغيرها. فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أن تفشّى الغشّ والتزوير، وتفشّت السرقة في جميع دوائر الحكومة التي كانت لها صلة بالإعاشة، من أصغر مأمور إلى أكبر مسؤول. فكان النّاس - ما عدا ذوي النفوذ بينهم - لا يتسلّمون القمح إلاّ ممزوجاً بقسط كبير من التراب، والحصى، والبعر، والأجرام الغريبة التي لا يخطر في بال أي إنسان أنّها تتصل بالقمح من قريب أو من بعيد. وكانوا يتناولون السكّر ممزوجاً بالرمل الأبيض؛ وزيت الكاز وقد بات نصفه، وأكثر من نصفه مازوتاً؛ ويتناولون النخالة لأبقارهم وإذا بالقسم الأكبر منها نشارة الخشب. فتمرض أبقارهم وتموت وهم لا يدرون لماذا تمرض ولماذا تموت. وقد بلغ الغشّ وحبّ الكسب بأحدهم أن صنع من الجص أقراصاً تشبه أقراص الكينا وراح يبيعها لتجار الأدوية على أنّها كينا. ولم يفتضح أمره إلاّ من بعد وقوع عدّة إصابات ووفيات.

لقد أطلقت الحرب الأخيرة أبشع الغرائز البشريّة من عقالها. وها هي البشريّة تعاني اليوم من ذلك ما تعاني، وتحاول بدون جدوى أن تلجم تلك الغرائز من جديد فما تستطيع. وإنّه لمن

Twitter: @ketab_n

المؤسف أن تطغى هذه الطفرة في التفكّك الخلقي على طفرة من نوع آخر جاءت بها الحرب. وهي طفرة الشعوب المستعمَرة والمستعبَدة نحو الاستقلال والحرّيّة. فهذه، على جلال شأنها، تكاد تصبح بدورها مورداً خصباً للاستغلال والاستثمار.

في جملة ما جاءتنا به الحرب من المشاكل مشكلة الغلاء المتصاعد في كلّ شيء - حتى في تكاليف التحصيل المدرسي. فالمدارس الحكوميّة في لبنان كانت قليلة جدّاً في الأرياف، وكانت، حيثما وُجدت، قليلة الشأن. والمدرسة المجّانية في بسكنتا التي كانت تديرها الطائفة الأرثوذكسيّة باتت ولا فائدة منها لأولاد أخي وأختي. والمدارس الخاصة - وهي كثيرة في البلاد - كانت أسعارها فوق ما يتحمّله جيبي. وأولاد أخي وأختي في حاجة إلى الدرس. فكيف العمل؟

الحاجة تفتق الحيلة. وقد فتق لي، وأنا لم أمارس التدريس في حياتي، أن أقوم بوظيفة المعلّم لأولاد أخي وأختي. وكانوا في نسبة متقاربة من السنّ والتحصيل. وفخصّصت لهم بضع ساعات في كلّ يوم رحت ألقّنهم فيها شيئاً من صرف العربيّة ونحوها، ومن مبادئ الإنكليزية، وأشياء من الجغرافية والتاريخ والحساب. وقد اعتمدت كتاب «كليلة ودمنة» غير المشكول في تدريبهم العربيّة. فأشرح لهم قاعدة من القواعد. ثمّ أطلب إليهم

Twitter: @ketab_n

القراءة والتوقّف عند كلّ عبارة تنطبق عليها تلك القاعدة بصرف النظر عن كلّ ما عداها من القواعد. حتى إذا رسخت في أذهانهم انتقلتُ بهم إلى قاعدة أخرى. وقد نجحت جهودي. فما انقضت السنة وابتدأت السنة الدراسيّة في خريف ١٩٤٣ حتى تمكّنت من إدخال ابن أخي نديم وابن أختي جرير إلى مدرسة «الفرندز» الإنكليزيّة في برمّانا. وكان عليّ أن أقوم بنفقات ابن أخي لأربع سنوات. أمّا ابن أختي فأهله قد تكفّلوا بنفقاته.

لو سألني سائل في ذلك الزمان: من أين تأتي بالمال لتكمل دراسة ابن أخيك؟ لما استطعت الجواب. إذ لم يكن لديّ من المال إلاّ ما يكفي لتغطية النصف الأوّل من السنة. ولكنّني، بعد أن خبرت من الحياة ما خبرت، بتّ أعتقد أنّ يد الحياة الخفيّة تساند يدي، ويد كلّ إنسان، في أيّ عمل نقدم عليه. فإن كان خيراً، وكانت النيّة من ورائه صافية وشريفة، سخّرت الحياة لتحقيقه قوى كثيرة قد لا تخطر لنا في بال. وهذه القوى قد لا تكون، في ذاتها، صافية وشريفة. إلاّ أن النية الصافية والغاية الشريفة تجعلانها صافية وشريفة. فكيف بها إذا كانت في الأصل صافية وشريفة؟ وإن كان العمل الذي نقدم عليه شرّاً، وكانت النيّة من ورائه نية عكرة، والغاية منه غاية خسيسة، فالحياة تسخّر لتحقيقه قوى قد لا تكون، في ذاتها، شريرة وخسيسة. ولكن النيّة الشرّيرة والغاية

Twitter: @ketab_n

الخسيسة تجعلانها كذلك. فكيف بها إذا كانت، في الأصل، شرّيرة وخسيسة؟

لقد فتحت الحرب لي موارد للرزق لم تكن قطّ في الحسبان. منها الإذاعة. ومنها الصحف الدوريّة، والمعاهد الثقافيّة، والأندية الأدبيّة التي أخذت تحسّ مسؤولياتها تجاه الأدباء، والبارزين منهم بالأخصّ. فلا تكلّفهم كتابة مقال أو إلقاء خطبة بالمجّان. ومنها دور النشر التي بدأت تبرز إلى الوجود بخطوات وئيدة، متردّدة. فما لبثت أن أصبحت سيّدة الموقف، وصاحبة الحول والطَّول في دنيا الكتاب.

فالإذاعة التي افتتحها الفرنسيّون في بيروت إبّان الحرب أخذت تكلّفني ألقاء حديث ولو مرّة في الشهر، وبمكافأة قدرها خمسون ليرة لبنانيّة عن كلّ حديث. وهذا المبلغ لم يطل أن ارتفع إلى خمس وسبعين، ثمّ إلى مئة ليرة. وبقي كذلك لسنوات من بعد أن استقلّ لبنان وتسلّمت حكومته الإذاعة. وانتهت الحرب وإذا محطات للإذاعة العربيّة خارج لبنان، ومجلاّت في بعض البلدان العربيّة تدفع لي مئتين وثلاثمائة ليرة لبنانيّة عن المقال الواحد أو القصة الواحدة. وإذا بلد عربي يكافئني بأكثر من ألفي ليرة عن محاضرتين ألقيتهما في معهد من معاهدة. ولكنّ ذلك لم يتمّ في سنة واحدة، بل في سنوات. والمهمّ أنّه تمّ، وأنّه بات في إمكان رجل

Twitter: @ketab_n

مثلي، بعد الكثير من الجهاد والحرمان، أن يعيش وسيف الحاجة الملحّة ليس مصلتاً فوق رأسه، وأن يعيش من شقّ قلمه.

وإلى جانب الإذاعات والمجلات والأندية أخذت تنبت وتنمو وتتكاثر دور النشر في البلاد العربيّة - وبالأخص في لبنان. وبذلك انزاح عن كاهلي كابوس آخر - كابوس الاهتمام بطبع مؤلّفاتي وتوزيعها. فأنا من بعد أن نشرت على نفقتي كتاب «المراحل» وكتاب «جبران خليل جبران»، وكابدت من المتاعب والمصاعب ما كابدت في نشرهما وبيعهما، رحت أتمنّى لو أعقّم قلمي. ولكنّ ذلك كان فوق طاقتي. فقلمي كان أعند من أن أقاومه وأخصب من أن أسدّ عليه مصادر خصبه. ولأنّه كان عنيداً وخصباً، وكان يرمي إلى أبعد بكثير من منفعة طارئة ومجد عابر، فقد هيّأت له «الأقدار» الظروف المؤاتية للمضيّ في عمله.

ففي سنة ١٩٣٦ أصدرت لي دار المقتطف والمقطم في مصر مجموعة من الخطب بعنوان «زاد المعاد». ولكنّ نصيبي منها لم يكن نقداً بل عدداً من النسخ بلغ نحو الثلاثمائة. أمّا من بعدها فقد تركّزت حقوقي مع النّاشرين على أساس مئوي بالنسبة لعدد النسخ المطبوعة وأثمانها بالمفرّق لا بالجملة. وبات نصيبي يُدفع لي حال نزول الكتاب إلى السوق. وكان صديقي أنطون صادر، صاحب مكتبة صادر، أوّل مَن تعاقدت معه على ذلك

Twitter: @ketab_n

الأساس. وكان أوّل ما نشره لي مجموعة قصائدي التي أسميتها «همس الجفون» وذلك في العام ١٩٤٥ . وامتدّت علاقتي إلى مصر. فنشرت لي «دار المعارف» في القاهرة «البيادر» و «صوت العالَم» و «كرْم على درب» وطبعة جديدة من «الغربال». إلاّ أن معظم مؤلّفاتي تستقلّ بها اليوم «دار صادر».

ليعذرني القارئ إذا أنا وقفت به هنيهة لنفكّر معاً في هذا النظام الذي يسيّرنا ويسيّر الأكوان، والذي يجعل من كربة البعض باب فرج للبعض الآخر، ومن موت هذا حياة لذاك. فأنا الذي آلمته بشاعات الحرب أشدّ الألم، والذي كرّس لها العديد من المقالات والمؤلّفات، لم يأتني الفرج إلاّ من الحرب الأخيرة وبشاعاتها فلولاها لما كان لي بيت أسكنه وأستقبل فيه ضيوفي وزوّاري؛ ولا كان لي أن أساعد ابن أخي على الدرس الثانوي والجامعي؛ ولا أن أقوم بأيّ إصلاح في الأرض التي ورثتها وإخوتي عن والدينا؛ ولا أن أفكّر أعمق ما فكّرت، وأكتب أحسن ما كتبت؛ ولا أن تنتشر أفكاري وكتاباتي بين النّاس إلى الحدّ الذي انتشرت. وما أنا غير واحد من النّاس الذين حملت إليهم الحرب عكس ما حملته إلى الملايين من إخوانهم في أقطار أخرى من الأرض.

فأيّ بوتقة هائلة، وعجيبة غريبة، هي هذه الأرض التي نعيش

Twitter: @ketab_n

عليها، وهذه السماء التي نستظلّها! وأيّ يد هي تلك اليد التي تجعل من كلّ ما في الأرض والسماء ذلك المزيج المدهش الذي يتعذّر عليك فيه أن تفصل ما بين الحياة والموت، والخير والشرّ، والنعمة والنقمة، والماضي والحاضر والآتي! إنّها لَيَدٌ ليس يكفيك منها أن تبصر الأشياء التي تكوّنها فتبدع في تكوينها. ولكنّه يترتّب عليك أن تفهم قصدها من تكوين تلك الأشياء، ثمّ من محوها، ثمّ من دغمها بعضها ببعض مع الحفاظ على أشكالها. فأيّ علاقة لي أنا، المنزوي في كهف بسفح صنّين، بهتلر وموسوليني وستالين وروزفلت وتشرشل؟ وأيّ صلة تربطني بالذين صنعوا أوّل قنبلة ذرّيّة وألقوها على هيروشيما؟ فلا أنا أعرفهم، ولا هم يعرفونني. وبيني وبين هيروشيما آلاف الأميال. وأيّ خيط يشدّني إلى مدينة على ضفاف الفولغا تدعى «ستالينغراد»؟

ليس، في الظاهر، ما يربطني بأيّ من أولئك الأشخاص وتلك الأماكن. ولكنّني، في الواقع، مرتبط أوثق الارتباط بهم وبها، وبكلّ ما في المسكونة. ولولا ذلك لما كان لهم ولها ولأيّ شيء لا أتّصل به مباشرة أيّ تأثير في حياتي. والذي يبدو لي هو أن ما يأتيني من البوتقة التي هي المسكونة ليس غير ما أودعتها من جمال وبشاعة، أو من خير وشرّ. وذلك هو منتهى العدل.

هكذا يبدو لي.

Twitter: @ketab_n

ماتت التي ولدتني

«ماتت التي ولَدتني. والموت يطوي الكلّ - حتى الوالدات.

«ماتت وفي لحمي وعظمي ودمي بقايا من لحمها وعظمها ودمها؛ وفي القلب من أنباضها أنباض؛ وفي الصدر من أنفاسها أنفاس. أما كُوّنتُ جسماً حيًّا في جسمها ومن جسمها الحيّ؟ فكأنّ بعضي مات بموتها. وكأنّ بعضها ما يزال حيّاً في حياتي. فكلانا ميت. وكلانا حيّ.

«ولم أكُ جاهلاً أنّ التي ولدتني ستموت يوماً ما. فما هالني، وأنا بجانب سريرها، أن أحسّ يدها تتثلّج وتيبس في يدي. فلا نبض، ولا حرارة. ولا هالني أن أخاطبها فلا تجيب. أو أنّني سأعيش ما تبقّى لي من العيش فلا أسمعها تناديني «يا ابني». ولا أُبصرها ترسل خلسة نظراتها الملهوفة إلى وجهي لتعرف أفي عافية أنا وسلام. ولا آكل الزاد وقد باركَتْه، ولو باللّمس، يداها اللّتان يعلم اللّه وحده كم أعدّتا من الزاد طيلة أمومتها الطويلة.

«لا. ما هالني أن أرى التي ولَدتني هيكلاً مهجوراً، وأمس كان يعجّ بالعبادة والعابدين؛ ومذبحاً قفراً، وكان حتى سويعات قليلات عامراً بالنار والنور، وبالصلوات والقرابين. ولقد هالني أن

Twitter: @ketab_n

أتمثّل جميع الوالدات في والدتي. ومن ثمّ أن أفكّر في تلك العضلة البيضويّة الشكل، الحمراء اللّون، التي ندعوها القلب - ما أسعدها في صدور الوالدات وأشقاها، وما أبسطها وأدهاها، وما أشحّها وأسخاها، وما أصلبها وأطراها، وما أضعفها وأقواها!..

«كلّ القلوب عجيب ورائع وغريب. ولكن أعجبها وأروعها وأغربها من غير شكّ قلوب الوالدات. فما إن يزحل ولد عن قلب والدة حتى تصبح الوالدة ولها قلبان وجسدان وحياتان. وتتعدّد المواليد فإذا الوالدة ذات قلوب وأجساد وحيوات عدّة. فكأنّها شجرة التين الهندي التي ما إن يتدلّى غصن من أغصانها إلى الأرض فيلامس التراب حتى يتخذ له جذوراً وينمو شجرة مستقلّة، في الظاهر، بساقها وفروعها وأغصانها عن ساق أمّها وفروعها وأغصانها، أمّا في الواقع فمتّصلة بها أوثق الاتصال.

«أما تسمعون الوالدات يتحبّبن إلى أولادهنّ بمثل هذه الكلمات: يا قلبي. ويا روحي. ويا عيني. ويا عظامي، وما شاكلها؟ ما ذاك من المجاز في شيء. إن هو إلاّ الحقيقة العارية عن أي زخرف ومبالغة. فقلب الولد قلب الوالدة. وعينه عينها. وروحه روحها. وعظامه عظامها. ومن هنا كانت لهفتها العظيمة عليه - تلك اللهفة التي لا يندر أن تبلغ حدّ نكران الذات وبذلها بسخاء لا يقيم وزناً لألم مهما اشتدّ - حتى ولا للموت.

Twitter: @ketab_n

«فما مسّ ولداً ضرّ إلاّ مسّ والدته أضعافه. ولا سالت من عروقه قطرة دم إلاّ تفجّرت لها من قلبها قطرات. ولا اكمدّ في عينه نهار إلاّ أظلمت في عينها شموس. ولا غاب عن أبصارها إلاّ وزّعت نفسها حراساً يسهرون على سلامته، وصلوات تدرأ عنه السوء وتسدّد خطاه إلى الفلاح، وإلى العشّ الذي منه طار وعنه اغترب. وأمّا إذا اختاره الموت ولفّته ظلمة الرمس فما من خطيب، ولا شاعر، ولا ساحر يستطيع أن يصف لكم ولو ميتة واحدة من الميتات التي تموتها والدة فجعت بقلب من قلوبها[١]».

هكذا كتبتُ على أثر وفاة أمّي في الرابع عشر من آب سنة ١٩٤٤ . وكنت قبل وفاتها بثلاثة أيّام قد عدت من رحلة إلى فلسطين حيث خطبت في عدد من المدارس والأندية الأدبيّة بدعوة من أصحابها. وقد رافقني من بيروت إلى بسكنتا صديقي اميل ضومط لتمضية حصّة من الوقت معي في الشخروب. وعندما بلغنا البيت بُعيد العصر وجدنا الوالدة جالسة وحدها أمام الباب. فأذهلني منها أن تأهيلها بي وبصديقي لم يكن فيه من الحرارة مثل ما كنت أتوقّع. فلا عيناها، ولا وجهها أشرقت كالمعتاد. وكنت أعرف أن حزنها على أخي نسيب لا يزال يقرض

---

(١) انظر مقال «قلوب الوالدات» في «صوت العالم».

Twitter: @ketab_n

أوصال قلبها. فقلت: لعلّها كانت، قبل وصولنا، في مناحة جديدة من مناحاتها الكثيرة على حبيبها وصغير بنيها. فلأحترم حزنها.

إلاّ أن قلبي لم يطاوعني أن أتركها في قبضة الحزن. فرحت أتحيّن الفرصة لأجلس وإيّاها وحدنا، وأسلّيها بأخبار رحلتي. وحانت الفرصة. وكنت أعرف عظيم اهتمامها بالمال. فقلت لها أوّل ما قلت:

- أتدرين يا أمّي كم درّت عليّ هذه الرحلة؟

فأجابت دونما اكتراث:

- وكيف لي أن أعرف؟ قلْ.

- في جيبي ألف ومئتا ليرة لبنانيّة!

وظننت أن أسارير وجهها ستنفرج اغتباطاً، وأن عينيها الذابلتين ستنفتحان دهشة. ولكنّها قالت بمنتهى البرودة:

- ألف... وكم هو الألف يا ابني؟

كان عليّ أن أدرك في الحال من سؤال أمّي أن ما حسبتُه نتيجةً للحزن في تصرّفها لم يكن غير نتيجة لطارئ طرأ على دماغها. فهي لم تكن من البساطة بحيث تفوتها قيمة الألف، حتى وقيمة المليون. إلاّ أنّني لم أدرك. وتركتها في ذلك المساء وليس معها في البيت إلاّ ابنة أخي ميّ. وانطلقت وصديقي إلى الشخروب.

Twitter: @ketab_n

وفي اليوم التالي جاءنا من ميّ أن جدّتها في حالة غير طبيعيّة. فهرولنا إلى الضيعة، وإذا بالوالدة في سريرها لا تبدي حراكاً، ولا تقوى على الكلام، ولا تشكو ألماً إلاّ في رأسها. وقد انقطعت عن الأكل والشرب. وكان رأي الطبيب أن لا خير في أيّ علاج. فالشرايين في الدماغ قد جفّت وتقلّصت والزيت في السراج قد أشرف على النهاية. إنّها الشيخوخة وقد بلغت حدّها. فعبء الثلاث والثمانين ليس بالعبء اليسير.

ناديت أمّي حالما بلغتُ جانب سريرها وانكببت أقبّل يديها وجبينها:

- هل تعرفينني؟ فأجابت دون أن تفتح عينيها:

- ولو؟!

وكان ذلك آخر ما سمعته منها. ولقد بقيت الساعات إلى جانبها. فآناً أتلو فوق رأسها مقاطع من الإنجيل والمزامير. وآونة أصلّي من أجلها في قلبي. وأخرى أحسّني فيها مغموراً بفيض من محبّة الروح المحشرج في صدرها - تلك المحبّة التي كانت لي درعاً واقياً في جميع مراحل حياتي. فلا أنا أدري، ولا أمّي تدري، كم هي المآزق والمزالق التي نجتني محبتها منها، وكم هي العقبات التي مهدتها لي، والدرجات التي سندتني في صعودها. ولقد تمنّيت في تلك الساعات لو كان لي أن أمحو كلّ

Twitter: @ketab_n

حركة أو إشارة أو كلمة بدرت مني وكان فيها ما يسيء بأيّ شيء إلى المرأة التي حملتني وولدتني وغذّتني بلحمها ودمها من غير أن تعرف مَن هو الذي حملته وولدته وغذّته، ولماذا حملته وولدته وغذّته، وماذا سيكون شأنه في الحياة، ويكون شأن الحياة منه. فما أكثر ما تتّسع الأرحام - على ضيقها - لمواليد تضيق بهم الأرض - على سعتها - وتضيق بهم مدارك أمّهاتهم! فأنا، وقد انقطعت الصلة بين فكري وفكر أمّي، بقيت في نظرها ذلك «الصبيّ» الذي حملَتْه وولدته وأرضعته وربّته. وكان يدغدغ كبرياءها أن ينال «صبيّها» شيئاً من الشهرة بين النّاس. ولكنّه كان فوق مستطاعها أن تدرك أسباب تلك الشهرة. وأنّى لها ذلك وكانت تجهل القراءة والكتابة؟

ولكَم سمعت والدتي تعاتب ربّها وتعاتبني كلّما حان وقت الطعام فدخَلَتْ غرفتي ووجدتني مكبّاً على ورقة أمامي والقلم في يدي:

«ألهذا الحدّ تنسى نفسك يا ابني فلا تفكّر في الأكل إلاّ إذا دعوناك إليه؟ لا كانت الأوراق ولا كانت الأقلام. عندما كنتم صغاراً كان أقصى ما أتمنّاه أن أرى في بيتي دفاتر وأقلاماً. ولكن ربّي أعطاني فوق ما طلبت بكثير. إذ قد أصبحت الدفاتر والأوراق في بيتي بليّة لا عطيّة. غفرانك يا ربّي!»

Twitter: @ketab_n

ولقد قالت لي مرة: «لن يقصف عمري قبل الأوان غيرك. فولعك بالكتابة سيهدم صحتك. وها أنت لم يبق منك غير الظل. وعيناك قد ضاقتا من كثرة الاجهاد. والافظع من ذلك أنك لم تتزوّج. لقد قطعت نسلك بيدك. وأنت لا تفكر في آخرتك. إنّ همّك عندي هو أكبر الهم».

ألا فليطمئن بالك حيث أنت يا أمّ ديب! فهذا «الصبيّ» الذي أزعجك منه أنّه لم يتزوّج، ولم ينجب أولاداً يهتمون «بآخرته»، قد تزوّج في الواقع. ولكن من غير جنس النساء؛ وقد أنجب أولاداً. ولكنهم ليسوا من لحم ودم. لقد تزوّج فاتنة تدعى «الكلمة». وأنجب منها أولاداً لا يظنّ أنّهم سيعقّونه في «آخرته». لأنّه قد أرضعهم عصارة قلبه وفكره، مثلما أرضعت أنت بنيك من دمك ولحمك.

ومن ثمّ، يا أمّ ديب، فلا أنت تعرفين ولا أنا أعرف مَن الذي اختارك لي أمّاً، واختارني لك ابناً. ولعلّ لي ولك يداً في ذلك الاختيار. ولكن من حيث لا ندري. أفلا يجمل بك وبي أن نلقي همّ «الآخرة» على الذي دبَّر البداية فأحسن التدبير؟ بلى. بلى. ذلك خير لك ولي.

دفنّا الوالدة في الخامس عشر من آب ١٩٤٤، وهو عيد «نياح السيدة العذراء». ودفنّاها في المدفن الذي ضمّ من قبلها

Twitter: @ketab_n

بقايا زوجها وبقايا ابنها الحبيب نسيب. وها أنا أحدّث عن موتها وعن دفنها وكأنّها لم تمت ولم تُدفن. وكيف يموت ويُدفن مَن تجلّت فيه الحياة ولو لمحة من الزمن، إلاّ إذا ماتت الحياة ودُفن الزمن؟

Twitter: @ketab_n

أجيال تزحم أجيالاً

قبل أن تنتهي الحرب إلى ما انتهت إليه، وقبل أن كانت معركة ستالينغراد، أذعت من المحطة اللبنانيّة في بيروت حديثاً بعنوان: «غداً تنتهي الحرب[1]». ولأن ذلك الحديث جاء بمثابة نبوءة عمّا سيكون عليه عالم ما بعد الحرب، فليعذرني القارئ إذا أنا نقلت إليه ههنا فقرات من ذلك الحديث:

«غداً تنتهي الحرب. فلا مدفع يقذف الحتوف. ولا دبّابة تنشر البوار. ولا طيارة تمطر الفناء. ولا غوّاصة تزرع الأعماق ركاماً وعظاماً.

«وتنكمش الأرض هنيهة على ذاتها. فتناديها الشمس من فوق:

«السلام يا بنيّتي. ماذا عندك اليوم!؟

«فتجيبها الأرض:

«كلّ شيء ما خلا السلام يا أمّاه.»

«وتمضي الأرض تنهب الأبعاد، وتلفّ الأزمان، وكأنّ شيئاً ممّا كان لم يكن...

---

(١) انظر المقال في كتاب «البيادر».

Twitter: @ketab_n

«غداً ينفخت الطبل، ويبحّ المزمار، فتنفرط عقود الملايين من المغنّين والراقصين والممثلين، وينسدل الستار على أكبر وأروع مهرجان أقامه الجهل والبغضاء - ذانك الزوجان الوفيّان اللذان ما برحا منذ البدء ينفحان النّاس بالولائم السخيّة، والمهرجانات المنقطعة المثال. ينسدل الستار وينتثر شمل النظارة والممثلين ويعود الزوجان إلى خلوة مخدعهما لينسلا حروباً جديدة وويلات جديدة. وتطلّ الشمس من عليائها فتقول للأرض:

«السلام يا بنتاه. ماذا عندك اليوم؟

«فتجيبها الأرض:

«هدنة ولا سلام يا أمّاه»...

«غداً تنتهي حرب الحديد والنار. فيعود المحاربون إلى حروبهم التي لا حديد فيها ولا نار، ومع ذلك لا يخمد لها أوار: حروب الآباء والبنين... والمنتجين والمستهلكين... والجائعين والمتخمين... حروب الحاكم والمحكوم، والظالم والمظلوم... حروب الأذواق والأفكار والتقاليد...

«وتشرق الشمس على الأرض مرّة أخرى فتحييها قائلة:

«السلام يا ابنتي المصطفاة. ماذا عندك اليوم؟

«فتجيبها الأرض:

«نار ولا انفجار يا أمّاه. وشوق إلى السلام ولا سلام».

Twitter: @ketab_n

«غداً تعود ميادين الحرب حقولاً وغابات ومدناً آهلة بالحياة... فتخضرّ القبور، ويعود النور من منفاه، وتخرج العذارى من خدورهنّ، والعجائز من مخابئهنّ، والذين في الأرحام يبرزون إلى عالم سماؤه هي هي، وأرضه هي هي... ولكن أمّهاتهم سيرضعنهم مع اللبن حبّ الانتقام... وتنادي الشمس ابنتها البكر:

«السلام يا بنتاه. ماذا عندك اليوم؟

«فتجيبها الأرض:

«عندي بذار جديد لحروب جديدة يا أمّاه. أمّا السلام فما أبصرت وجهه بعد»...

«غداً تضع الحرب أوزارها. فتضيف الإنسانيّة وزراً جديداً إلى أوزارها القديمة. وفي مكانٍ ما من بلادٍ ما يجتمع جمهرة من زعماء أمم الأرض وينكبّون على أكداس من الأوراق والخرائط يفصّلون منها أرضاً جديدة لأمم جديدة. فتخوم تتدانَى. وأخرى تتباعد. وأمم تنضمّ إلى أمم. وأمم تنفصل عن أمم.

«وللسعايات طنين ودبيب. وللمطامع أزيز ولهيب. وللبغض فحيح وزئير. وللرياء بسمات صفراء، وقهقهات بلهاء. أمّا المحبّة فلا رسم لها ولا صوت، والتلفّظ باسمها سخافة وشنار. وأمّا الحقّ فممسحة لأرجل الداخلين والخارجين. وأمّا المغفرة فبغيّ

Twitter: @ketab_n

مذبوحة من الوريد إلى الوريد... وأما الأخوّة فسلسلة مفكّكة الحلقات يتلهّى بها القائمون على حراسة الأبواب...

«وأخيراً ينتهي المهندسون من وضع تصاميمهم، فيختمونها بأختامهم، ويوقّعون عليها أسماءهم، غير عالمين أنّهم قد أخفوا تحت كلّ ختم وفي كلّ توقيع مدافع ودبّابات وطيّارات ستبدأ منذ الآن بتقويض العالم الذي هندسوه واتفقوا عليه. ويهنئ النّاس بعضهم بعضاً قائلين: «لقد انتهت الحرب. وسنعيش بعد اليوم في سلام».

«في ذلك اليوم تنادي الشمس ابنتها الحبيبة فتقول:

«السلام يا ابنتي الحبيبة. ماذا عندك اليوم؟

«فتجيبها الأرض:

«عندي معاهدات سلم ولا سلم يا أمّاه.»

«ويسجّل النّاس في تاريخهم نهاية حرب من حروبهم. وتمضي الأرض في سبيلها هازئة بما هندس المهندسون وأرّخ المؤرّخون، حاملة في أحشائها أجنّة حروب كثيرة، وفي دياميسها لحود مهندسين ومؤرّخين بغير عدّ، وفي مسامعها عويل أجيال ما وُلدت بعد، وفي حبّة قلبها إيمان البسطاء مثلي بمحبّة أقوى من أن تحارِب أو تحارَب، وحقّ أعزّ من أن يُسلَب أو أن يُنال بحدّ السيف».

Twitter: @ketab_n

لقد استأثرت الحرب منذ بدايتها وحتى بعد نهايتها بقسط كبير من نتاج قلمي. ومقالاتي في «البيادر» و «صوت العالم» و«النور والديجور» و «في مهبّ الريح» خير شاهد على ذلك. ولا عجب فقد كان عليّ أن أوفّق بين نظرتي إلى الإنسان كبذار إلهي ينمو ويتطوّر نحو الكمال الربّاني وبين البشاعات والجرائم التي يرتكبها في هذه الفترة من نموّه وتطوّره. فهو من جانب يثور ضدّ القيود والسدود والحدود، فيعزّز العلوم والفنون، ويبني المدنيات والحضارات؛ ومن الجانب الآخر يريق دمه، ويمزّق لحمه، ويهدم بعلومه وفنونه ما بناه، ليعود فيصنع له من أنقاضه قيوداً وسدوداً وحدوداً جديدة. فمتى يكتمل إدراكه، ويستيقظ من غفلته، فلا يحارب أخاه الإنسان الذي هو عون له في جهاده نحو الكمال، بل يحارب كلّ ما في نفسه من غرائز تنحرف به عن طريق الكمال؟

إلاّ أن تفكيري في الحرب لم يصرفني عن التفكير بالذين لهم في عنقي أمانات من المسؤوليات التي تفرضها المودّة والمحبّة. وأولئك هم أهلي وأصفيائي وقرّائي. فأنا، وإن ابتعدت عن نيويورك، كانت لا تزال تشدّني إلى البعض من رفاقي فيها أمتن الأواصر - وعلى الأخصّ رفاقي في «الرابطة القلميّة». وهؤلاء كان الموت قد أخذ يخترمهم الواحد تلو الآخر. فمن بعد جبران

Twitter: @ketab_n

ارتحل عن الأرض رشيد أيّوب، ثمّ إلياس عطا اللّه، ثمّ نسيب عريضه في أواخر آذار سنة ١٩٤٦ . وهذا الأخير كان له في نفسي وفي حياتي أثر غير الذي كان لأيّ من زملائي في «الرابطة».

كانت آخر رسالة تلقيتها من نسيب مؤرّخة في ١٣ تشرين الأوّل سنة ١٩٣٧ . وأنا أودّ أن أثبتها هنا، وأثبت جوابي عليها تقديراً لنبل روحه:

«عزيزي ميخائيل،

أكتب إليك بعد انقطاع طويل... ولكنّه ليس انقطاعاً. لأنّ روحي ما زالت تتطلّع إلى روحك وتسكر بخمرتها. وليس قطيعة أو جفاء. وكيف يقاطعك أو يجفوك من كان قلبه يختلج لكلّ نبضة من قلبك، وروحه تتأثّر بألحان روحك؟ وكيف أدعو انقطاعي وأعلّله؟.. لا أدري. وإنّما أدري أنّك كنت رفيقي بالرغم من ابتعادك عني السنوات الطوال وراء آلاف من الأميال، وأنّك كنت سميري في ليالي الأسى، ومشدّدي في شدائد النهار. وأنّ ما أصابك من امتحان روحك بالمصائب كان محنة لي، ومصبة لي. فبينا أنت تبكي أخاك شطر روحك كنت أبكيه كأخي في سكوتي. وبينا أنت تأسى على أبيك البار كنت آسى

Twitter: @ketab_n

عليه كأبي. وبينا أنت تخالط الطبيعة المباركة في سفح صنّين كنت أقاسمك بالخيال روحاتك وغدواتك. فكنت تارة فلاحاً معك، وطوراً حاصداً، وأحياناً ناطوراً، وطوراً مكارياً أتغنّى بألحان القلب الساذج وراء الدابّة، وتارة ناسكاً في منسك.

أجلّ. لقد كانت حياتك في أفانينها الجديدة بعد أخاديع المهجر موحية إليّ قوّة وقدوة في محيطي الذي تركتني فيه يا ميخائيل شقيّاً، غريباً. أجل. غريباً بكلّ معنى الكلمة بين أهلي ورفاقي. ولا أدري أيضاً ما الذي دفعني على الكتابة إليك الآن، في هذه الساعة، بعد فراغي من جهاد العمل في إدارة «الهدى». لقد شعرت بحافز غريب يحملني على الكتابة إليك ويحرّك يدي بالقلم. أهو إيحاء منك، أم قوّة وجدانك تراود ضعفي لتنشلني من حضيضي؟

على أنّي مغتبط بأنّي أكتب إليك. لأنّي أجد في هذه الكتابة غير المنتظرة لذّة لقلبي ومراساً لنفسي.

لقد كدت أشيخ - بل شخت يا ميخائيل. وأنا اليوم ألتفت إلى خلف فأرى أنّي لم أصنع شيئاً، ولم يبقَ لقدميّ من آثار على رمال الزمن سوى آثار الخيبة والفشل. وفي النفس شيء كثير من الأمل، وفي صميمها شيء كثير تريد أن تقوله. ولكن أيجدي هذا القول فتيلاً؟ أوَلا يمرّ كصدى ضائع في وادٍ صخريّ موحش؟

Twitter: @ketab_n

كان زمن كنت أودّ فيه أن أملأ الفضاء أغاني ساحرة، والآفاق صوراً مدهشة. فإذا أغانيّ ليست سوى عيّ ووأوأة، وصوري ليست إلاّ خربشة غلام عابث، جاهل... ومجلّة «الفنون» لا تزال تراود فكري. وهي حلمي القتّال.

في آخر هذا الأسبوع أنتقل إلى إدارة «مرآة الغرب» في عدد ٨٠ شارع واشنطن. فإذا رغبت في أن تكتب إليّ سطراً فإلى عنوانها. وإلى أن يرد عليَّ منك خبر أتأسى وأتقوّى بما ينقله إليّ أخي الوحيد هنا إسكندر[١] من أخبارك. وعليك سلام اللّه».

وفي ما يلي جوابي على كتاب نسيب:

«بسكنتا - لبنان - في ١٠ ت٢ سنة ١٩٣٧

عزيزي نسيب،

أنت في ضميري يا نسيب، وأنا في ضميرك. فلا شيء يفصلك عني أو يفصلني عنك. وأنت إن كتبت لم تزدني ثقة بمحبتك لي. وإن سكتّ لم تنقص من محبّتي لك. إلاّ أنّني أوثر أن أسمع أخبارك منك على أن أتسقطها من سواك. لذلك فرحت برسالتك رغم كلّ ما فيها من ألم الشكوى وشكوى الألم. وما

(١) إسكندر اليازجي.

Twitter: @ketab_n

عجبت لك تتوجّع من عالم ليس له رقّة إحساسك، ونشاط خيالك، وصدق نيّتك. بل كنت أعجب لك لو لم تتوجّع. وما عسى يكون نصيب مؤمن بين كافرين، وقانع بين طامعين، وعابد بين صاخبين، وحالم بين معربدين؟

أقول لك ذلك لعلمي بما انطويتَ عليه يا نسيب. فأنا عارف بكلّ ما فيك من حنين مذبوح، وطموح مكبوح. أمّا في الواقع فلست أريدك أن تتوجّع لشيء على الإطلاق. لا سيّما لأحلام حلمتها وظننتها تمزّقت ثمّ تلاشت. صدّق أنّ أحلامنا أبقى من أجسادنا - ما دُوّن منها وما لم يُدوَّن. والذي بقي منها طليقاً من أقفاص الكلام والألوان، والأشكال والأوزان، لأثبت من الذي اقتُنص وزُجّ به في مثل تلك الأقفاص. فما حنّ أحد إلى الحقّ وذهب حنينه جزافاً. ولا ذبح أحد طموحه العالمي على مذبح الطموح إلى الانعتاق من العالم وذهب دم ذبيحته هدراً.

ألست أنت القائل:

فلنَسِرْ ، فلنسرْ، وإمّا هلكنا قبلَ إدراكِنا المُنى والمواعدْ
فكَفانا أنّا ابتدأنا ، وأنّا ، إن عجزْنا ، فقد بدأنا نشاهدْ - ؟

فما بالك تتلفّت إلى الوراء لترى ما إذا كان لقدميك آثار على رمال الزمن؟ ما لك وللزمن ورماله؟ أنت أبقى منه ومن رماله. ما بالك تتنصّت إلى وقع أقدام السنين وتعدّ خطاها فتقول

Twitter: @ketab_n

إنّك شخت؟ لا يشيخ إلاّ مواليد الروزنامات. أمّا أنت فبأيّة روزنامة تقيس عمر خيالك؟

دعك من هذه الشجون يا نسيب. فهي لا تليق بمن أفلت مثلك بخياله من مغنطيس اللحم والدم. ودعك من الشكوى. فليس يشكو إلاّ عديم الإيمان أو ضعيفه بجمال الحياة وحكمتها وعدلها. ثمّ دعك من مقاييس الناس. فصفوة حياتك لن تقاس بما ستترك بعدك من آثار أدبيّة. فقد يبلغ الميناءَ الأخير مَن لم يخطّ سطراً واحداً في حياته. ويبقى في قبضة الزبد والموج مَن ملأت شهرته الأرض، وأثقلت مصنّفاته الرفوف.

أمّا الجسد الذي تحمله فلن يعدم لقمة تسدّ رمقه، وكساء يستر عورته ما دام للروح منه غاية. والذي كوّنه أدرى بحاجاته وبالغاية منه».

وإليك ما كتبته إلى عبد المسيح حداد بعد أن بلغني منه خبر وفاة نسيب:

«بسكنتا - ٧ نيسان ١٩٤٦

أخي عبد المسيح،

اتفق لي - ويا لغريب الاتفاق - أن نزلت إلى بيروت صباح اليوم الذي جاءت فيه برقيتك تنعى النسيب الحبيب. وما

Twitter: @ketab_n

كان نزولي لحاجة في نفسي. بل إجابة لرغبة ملحّة من العزيز بهيج[١] ولأمر لا علاقة له البتّة بنسيب. وقد أطلعني بهيج حال وصولي على كتاب منك وآخر من العزيز جواد. وفي كليهما أن ديوان نسيب يوشك أن يخرج من يد المجلّد. فأفرحني أن يظهر هذا السِّفر النفيس بعد طول انتظارنا له على قدر ما أزعجني قلقكما على صحة صاحبه. وكنت قبل ذلك بأيّام قد اعتزمت أن أكتب إلى نسيب وأن ألحّ عليه في إرسال ديوانه لنشره في بيروت. وقد اتفقت على ذلك مع دارٍ للنشر.

مضى النهار وأكثر حديثي فيه عن نسيب وديوانه. وفي المساء، ونحن في دار بهيج، إذا ببرقيتك تدركنا هناك. فيتناولها بهيج ويمتقع لونه عند قراءتها. ثمّ يناولني إيّاها فأتلوها بعينين جاحظتين. وإذ ذاك أُدرك أنّني ما هبطت بيروت بدعوة من بهيج - بل بدعوة من نسيب. فلا شك عندي أن روحه الصدوق الودود هو الذي انتشلني من بيتي في بسكنتا وساقني إلى بيروت لأتلقّى نعيه ولأقوم ببعض الواجبات نحوه. ففي صباح اليوم التالي نقلت صحف بيروت الخبر مقتضباً عن طريق وكالة الأنباء العربيّة. فكان لا بدّ من تزويدها بنبذة من حياة الفقيد. وهذه

(١) هو المرحوم بهيج عريضه، ابن عم نسيب. وقد عاد من المهجر قبلي بسنة واستوطن بيروت.

Twitter: @ketab_n

النبذة أُذيعت بالراديو. وفي مساء اليوم الذي بعده أذعتُ كلمة بالراديو، وعلى الأثر ألقى أحد المعجبين بشعر نسيب وعبقريته ثلاثاً من قصائده: «يا أخي يا أخي» و «يا رفيقي على طريق الحزانى» و «النهاية».

لقد مرّ على ذلك نحو الأسبوعين، والقلم لا ينقاد لي، والفكر لا يطاوعني كلّما حاولت أن أكتب إليك. لا لأنّي أستنكر على الموت أن يفعل بأخ عزيز، ورفيقٍ صديق، وشاعر مبدع ما فعله بالنّاس منذ أن كان النّاس - وما سيفعله بي وبك بعد حين. ولا لأنّي فقدت إيماني بعدل الحياة - والموت بعض منه. ولكنّ فيضاً من الذكريات والتأمّلات طغى عليّ. فما بقيت أعرف أيّها أقدّم وأيّها أُؤخّر. ويا ليته كانت لنا آلة غير القلم نصوّر بها تموّج أحاسيسنا ودبيب أفكارنا.

حمص - بسكنتا - الناصرة - بشرّي - بيروت - طرابلس - المحيدثة - كفرمتّى - ثمّ نيويورك فالرابطة القلميّة! يا لها من رحلة طويلة مراحلها أكثر من أن تحصى، وأعقد من أن تُبَسَّط. أمّا هدفها الظاهر فالجمع بين حفنة من الرجال لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين. ولكنهم رجال تعارفت أرواحهم، وتفاهمت قلوبهم، وتآخت أقلامهم. فمضوا يشقُّون طريقهم إلى آفاق بعيدة. فكانوا روّاداً. وكانوا فاتحين. وكانوا في عالم الأدب فجر يوم جديد.

Twitter: @ketab_n

ومثلما انتظم عقد الرابطة حبّة حبّة راح ينتثر حبّة بعد حبّة. تبارك من نظم. وتبارك من نثر! فمن جبران - إلى رشيد - إلى إلياس - إلى نسيب... إنّها لرحلة لم تنتهِ بعد. وما الموت إلاّ مرحلة من مراحلها. أفلا ترى مثلي يا عبد المسيح أن ما جمعته الحياة لا يقوى الموت على تفريقه؟ فالرابطة التي جمعتنا في هذه الفترة من الزمان ستجمعنا حتى آخر الزمان.

قل لي بحقّك. هل رأى نسيب نسخة مطبوعة من ديوانه قبل وفاته؟ إن في ذلك تعزية كبيرة له ولي. ثمّ لا تنسَ أن ترسل إلينا عدداً من النسخ. فشعر نسيب المطبوع بجمال روحه، العابق بأريج شخصيته الوديعة، الحييّة، النافرة من حُبّ الظهور والادّعاء، المصهورة في أتون الشوق إلى معالم «إرَم» - ذلك الشعر ريحانة نادرة في حديقة الأدب العربي. ومن حق أبناء هذا الشرق - شرقنا - أن يضمّخوا أرواحهم بطيوبه.

لقد سار نسيب شوطاً بعيداً في طريقه. وهو ما يزال سائراً حتى الساعة. سهّل اللّه طريقه حتى النهاية، وعزّانا جميعاً بمحبّته التي لا تموت».

لقد بات موت الأفراد - حتى العباقرة منهم - أمراً تافهاً إذا هو قيس بموت الملايين الذين جرفهم تيّار الحرب الهائل في خلال ستّ سنوات. فمن الرجال العشرة الذين ألّفوا «الرابطة القلميّة»

Twitter: @ketab_n

لم يبقَ حتى اليوم غير اثنين - عبد المسيح حداد في نيويورك، وأنا في لبنان. وكان إيليا أبو ماضي آخر المرتحلين منهم. وليس مَن يدري أيّنا يكون الأسبق إلى الارتحال - أنا أم عبد المسيح؟

أجيال تزحم أجيالاً. بذلك قضت حكمة الحياة. ولولا ذلك لضاقت الأرض من زمان بالوافدين إليها، والراغبين في أن لا يبرحوها إلى الأبد. ولكنّهم يُكرهون على مغادرتها إكراهاً. لأنّها، على كثرة مفاتنها، ليست سوى النافذة يطلّون منها على العالم الأوسع حيث الحياة فكرة لا صورة، وحيث الأجيال لا تزحم الأجيال.

Twitter: @ketab_n

خوارق؟..

تتضخّم الأشياء والأحداث في أبصارنا وأسماعنا وأفكارنا وتتقلّص بنسبة قربنا منها أو بعدنا عنها في المكان والزمان. والذي يستأثر منها ببصرنا وسمعنا وفكرنا في هذه اللحظة أو في تلك يحجب عنّا كلّ ما عداه. فنحن نعيش أبداً في عالم النسبة لا في المطلق. وفي الجزئيات لا في الكليات. ولأن النسبة لا تقوم إلاّ بالنّاسب والمنسوب والمنسوب إليه؛ ولأن هؤلاء جميعاً أجزاء من كلّ، ولا وجود للجزء ولا قيمة إلاّ في الكلّ، فالحياة التي نحياها بحواسّنا لا غير حية أقرب إلى الوهم منها إلى الحقيقة. إلاّ إذا نحن أسعفنا الحواس بقوى فوق الحواس، وكان لهذه القوى أن تبلغ بنا المطلق والكلّ.

وما دمنا في عالم النسبة ودنيا الجزئيات فليس في مستطاع أيّ منّا أن يجزم بأن هذا الأمر «حقيقة» وذلك «وهم». أو أن هذه القضيّة «قضيّة علميّة» لا شكّ في صحتها، وتلك «خرافة» أو «أسطورة» ولا حقيقة لها على الإطلاق. ففي المحسوسات، ووراء المحسوسات، ظاهرات يتعذّر على العلم درسها في مختبراته. ويا ليت العلم يذكر ما قاله شكسبير بلسان «هملت» وهو يخاطب صديقه «هوراشيو»:

Twitter: @ketab_n

«هنالك أشياء في السماء والأرض، يا هوراشيو، لا تحلم بها فلسفتك».

لقد استطاع العلم أن يخلق جهازاً دعاه الراديو، وأن يُسمعك، وأنت جالس في بيتك، أصواتاً تأتيك من أبعاد آلاف الأميال. وأنت تصدّق الراديو. ولكنّك قد لا تصدّقني إذا أنا أخبرتك أنّني سمعت صوتاً من مسافة بعيدة، وبدون أي جهاز غير الذي جهّزتني به الطبيعة، والذي لا أعرف ما هو، وأين مكانه في جسدي. والغريب أنّه لم يكن صوتاً بالمعنى المألوف. بل كان صرخة أطلقتها امرأة في الحلم، فلا هي سمعَتْها، ولا الذين كانوا بالقرب منها سمعوها. وسمعتُها أنا على بُعد خمسة كيلومترات. وإليك الخبر:

كان ذلك بعد وفاة أخي نسيب بشهور. وكانت زوجته سوزان مع العائلة في الشخروب، وكنت وحدي في بيت خالي في الضيعة. وكان الوقت نحو الفجر وأنا لا أزال مستغرقاً في سُبات عميق. وإذا بي أسمع بغتة صوتاً يناديني «ميشال!». فأستيقظ من نومي، وأنهض من سريري، وأسير لتوّي إلى الباب فأفتحه. فالصوت الذي سمعته كان صوت سوزان. ولم يخامرني أي شك في أنّها، لداع أجهله، بكّرت في النزول إلى الضيعة، وأنّني سأجدها أمام الباب حالما أفتحه. ولكنّني فتحت الباب فلم

Twitter: @ketab_n

أجد سوزان. وخطر لي أنّها اختبأت في مكان ما بقصد مداعبتي، مع يقيني بأن ذلك لم يكن في طبيعتها، وعلى الأخص في سلوكها معي. وبعد أن تلفتُّ في جميع الأنحاء وناديتها ثلاثاً باسمها فلم أسمع جواباً، عدت أدراجي والحيرة قد أخذت مني كلّ مأخذ حتى بتُّ أشك في أن ما حصل قد حصل في الواقع.

لكن حيرتي تبدّدت عندما صعدت إلى الشخروب ورويت للأهل، وفي جملتهم سوزان، ما كان من أمري في فجر ذلك اليوم. فقد انتفضت سوزان كالملسوعة وقالت: «ذكّرتني بحلم حلمته أنا عند الفجر وكنت قد نسيته. فقد وجدتُني في خطر مداهم لا أذكر تفاصيله. وأذكر أنّني استنجدتك فصحتُ بأعلى صوتي «ميشال!» ولكن الصوت لم يخرج من فمي»

أمّا حكاية جان دارك فقد دخلت التاريخ من زمان.

كذلك استنبط العلم آلة أسماها «التلفزيون». وهي لا تنقل الأصوات فقط، بل تنقل مع الأصوات الصور التي تصدر عنها. وأنت تصدّق هذه الآلة إذا هي عرضت لك على شاشتها خطيباً من الخطباء وقالت لك إنّه فلان. وتصدّق أنّك أبصرت صورته وسمعت صوته. ولكنّك قد لا تصدّق أن سويدنبرغ الأسوجي أبصر، وهو جالس في أحد بيوت لندن، الحريق الذي اندلع في مدينته وعاصمة بلاده - ستوكهولم - وأنّه راح يصوّر للحضور

Twitter: @ketab_n

مشاهد ذلك الحريق، ويرافقه من شارع إلى شارع، ومن بيت إلى بيت حتى بلغ بيته.

وقد لا تصدّق أن وليم بلايك كان عنده ذات يوم جماعة من أصدقائه. فاعتذر أحدهم وانصرف في عربته إلى بيته. وبعد انصرافه بنصف ساعة، وبينما بلايك في حديث مع ضيوفه، توقّف بغتة عن الحديث ليقول أن الضيف الذي انصرف عائد فعليه أن يهبط إلى الدور السفلي ليفتح له الباب. وكان كما قال. فقد طرأ عطب على عربة الصديق أجبره على الرجوع ماشياً. وقد أبصره بلايك عائداً، ولكن بعين غير التي في وجهه. فأين هي تلك العين؟ وما هي؟ وأيّهما أعظم - هي أم التلفزيون؟ وهل أن سويدنبرغ وبلايك وأمثالهما هم وحدهم الذين يملكون مثل تلك العين؟ أم أنّ جميع النّاس مجهّزون بها، ولكنها لا تزال مغمضة عند السواد الأعظم منهم، ورمداء عند البعض، ومنفتحة عند القليل، القليل؟ وانفتاحها، حتى عند هؤلاء، لا يتمّ إلاّ في حالات استثنائيّة. إن علماء «اليوغا» في بلاد الهند يؤكّدون منذ أقدم العصور أن جميع النّاس يملكون مثل تلك القوى، وأن في استطاعتهم استثمارها إذا هم اتّبعوا في ذلك نمطاً من التدريب والمعيشة. ولكن «اليوغا» ليست «علماً» في نظر العلم.

كثيرة هي أمثلة الذين سمعوا - ويسمعون - أصواتاً من

Twitter: @ketab_n

مسافات لا تطالها الأذن، ومن مصادر لا تبصرها العين. والذين أبصروا - ويبصرون - صوراً من مسافات أبعد من مجال العين بكثير؛ أو صوراً تجلّت لهم وحدهم ولم ينطبع منها شيء على بؤبؤ الذين كانوا منهم على قيد باع، بل قيد أنملة.

وهناك الذين أحسّوا - ويحسّون - الأحداث قبل وقوعها؛ أو عند وقوعها وهم منها على بعد مئات الأميال. والذين تتراءى لهم أشباح الموتى، وأشباح الأحياء البعيدين عنهم؛ لا في الليل، ولا في الحلم. بل في النهار وفي اليقظة.

وهناك الذين في حالة التنويم المغنطيسي، أو الانفعال النفساني الشديد، أو الجنون، يكشفون المخبّآت، وينطقون بالآيات البيّنات، ويأتون بالمعجزات. ففي بسكنتا رجل أُصيب بما ندعوه «الجنون» ولا ندرك ما هو. فبات لا يعرف زوجته ولا بنيه ولا أحداً من رفاقه وجيرانه. وبات يُمضي معظم النهار والليل ماشياً ذهاباً وإياباً أمام بيته وكأنّه مسوق بالسياط أو بالمناخس. فلا يتوقّف ليستريح أو ليلتفت يميناً أو يساراً. ولا يأبه بالشمس مهما اشتدّ حرّها في الصيف، ولا بالجليد يعضّ رجليه الحافيتين في الشتاء. وكان أن شفي الرجل من جنونه. وهو لا يزال حيّاً يُرزق. وقد روى لي أنّه، أيّام كان يمشي بغير انقطاع تقريباً، كان يشعر أن جيشاً من «الأرواح» كان يلاحقه فلا يسمح له بالتوقّف لحظة

Twitter: @ketab_n

واحدة؛ وأنّه، في سيره المستمر، قد قطع بحوراً كثيرة مشياً على قدميه. والعجيب أنّه لم يُصَب حتى بزكام بسيط إبّان محنته. فأين كان يوم كان يعيش بعقل وإرادة غير عقله وإرادته وهو في حالته «السويّة»؟ وهل عقله وإرادته وهو في الحالة «السويّة» هما غير عقله وإرادته وهو في الحالة التي ذكرت؟ ولماذا لا يستطيع اليوم أن يعمل ما كان يعمله أيّام «شذوذه»؟

كذلك قل في الذين يمشون في نومهم فيأتون من الحركات والأعمال ما يعجزون عنه وهم ايقاظ. فمن أين تأتيهم القدرة على فعل ما يفعلون إن لم يكن من أنفسهم؟ وبأي المقاييس يحقّ لنا أن نقيس مقدرتهم على الحركة والعمل؟ أنقيسها بمقدرتهم وهم في حالة الوعي التام؟ أم بمقدرتهم وهم في حالة اللاّوعي؟ ولماذا يكون الوعي هو المقياس ولا يكون اللاّوعي؟ والذي نأتيه من الحركات والأعمال عن وعي وتصميم يكاد يكون تافهاً بالنسبة إلى الذي نأتيه عن لاوعي. فلا أجفاننا ترفّ، ولا عضلاتنا تتمدّد وتتقلّص، ولا شعورنا وأظافرنا تنمو، ولا قلوبنا تنبض، ولا أيّ من جوارحنا يعمل عمله بإرادتنا الواعية، بل بإرادة الجسد التي نحسّها ولا نعيها. فأيّ الحياتين هي الحياة «الحقيقيّة» - حياتنا الواعية، أم حياتنا اللاّواعية؟

أليس أن النوم بعض من حياتنا؟ أليس أن الأحلام بعض من

Twitter: @ketab_n

النوم؟ فكيف نهمل ذلك البعض الذي لا نعيه من حياتنا، ونهتم بالبعض الذي نعيه، ثمّ ندّعي أن ما نعيه هو وحده «حقيقة» حياتنا؟ ولولا الذي لا نعيه لما كان الذي نعيه. فالعلم الذي لا يعرف حتى اليوم حقيقة الأحلام، وحقيقة الجنون، وحقيقة تفاعل الأفكار والأحاسيس عبر الزمان والمكان، وحقيقة الوحي، وحقيقة الوعي واللاّوعي، - ذلك العلم، وإن هو استعمر السيّارات والمجرات، لا يحقّ له البت في ما هو صحيح وباطل، ومعقول وغير معقول، وحقيقة ووهم، ومعرفة وخرافة.

ما أظنّ أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يروي لك أحداثاً غريبة يتعذّر على العلم تفسيرها. من ذلك ما يرويه بعضهم عن «العين الفارغة». وهم يعنون بها العين التي تؤذّر على الأجساد الحيّة وغير الحيّة بمجرّد التطلّع إليها. فعلامَ لا تكون لبعض العيون، في بعض الحالات، تلك المقدرة؟ والمعروف أن الجسم كلّه مصدر إشعاع مستمر، وأن العين بالأخص لا تنفك تتقبل وترسل الإشعاعات. ونحن نجهل كنه تلك الإشعاعات ومدى تأثيرها. ولكننا قد بدأنا نفكر فيها جديّاً من بعد أن اهتدينا إلى الإشعاع الذرّي.

ومن ذلك ما يدعونه «الشفاء العجائبي». وهو الشفاء من حالات مرضيّة استعصت على الطب. فالبسطاء يعزونه إلى قوى

Twitter: @ketab_n

«خارقة»، أو قوى «فوق الطبيعة». والعلم لا يصدّقها. وإن صدّقها فهو لا يستطيع تفسيرها. وما تفسيرها إلاّ في أنّها تصدر عن قوًى هاجعة في نفس المريض وقد أُتيح لها عامل خارجي لإيقاظها ودفعها الى العمل في اتجاه معيّن. وذلك العامل قد يكون لمسة من يد، أو نظرة من عين، أو نبرة من صوت. مثلما قد يكون حجراً. أليس يقول المثل العامّيّ: «آمِن بالحجر تبرأ»؟ فعلامَ لا يدرس العلم ذلك الإيمان لستغلّه لخير النّاس بدلاً من أن ينكره؟

وأيّ النّاس لا يستطيع أن يروي لك أحلاماً في منتهى الغرابة؟ فقد اتفق لي في ليل ٢٣ - ٢٤ أيلول ١٩٤٧ أن أفقت وعلى لساني كلمة «إسكولابوس» أُردّدها بغير انقطاع. ومن غير أن أنير الضوء تناولت قلماً وعلبة سجاير كانت بجانب السرير وكتبت الكلمة عليها. وفي الصباح فتشت في موسوعة «بريتانيكا» وإذا بي أقع على Esculapius وهو ابن أبولون وإله الطب. ولم يكن الاسم قد وقع تحت بصري أو دخل أُذني ولو مرّة في حياتي. فمن أين جاءني؟ ولماذا؟ وما أكثر ما يروون لك أحلاماً تحقّقت بحذافيرها في اليوم التالي، أو بعد أيّام، أو شهور، أو سنين. وقد رويت في فصول سابقة من هذا الكتاب بعض أحلامي. وأُريد أن أُلخّص هنا حلماً أبصرته عن موسوليني صباح الواحد والثلاثين من كانون الأوّل - دسمبر - سنة ١٩٤٢، وقد أذعته وقتئذٍ بالراديو ثمّ نشرته في كتابي «البيادر»:

Twitter: @ketab_n

لقد رأيتني في غرفة من بيت لا أعرفه؛ وعلى بُعد قدمين منّي سرير فيه رجل عرفت أنّه موسوليني، وقد التحف بطّانيّةً حمراء. ورأيته في قميص أسود، من تحته قميص رمادي، ومن تحت الرمادي قميص آخر من لونه، ولكنّه مقلّم بالأحمر. ثمّ أخذ وجه الرجل يكفهرّ، ورأسه يتقلّص حتى بات بحجم الرمّانة. وأدركت أنّه مريض. وسمعته ينادي طبيبه ليأتيه بميزان الحرارة. وفهمت أن طبيبه هو هتلر. ولكنّني لم أبصره. وفهمت كذلك أن وجودي في الغرفة يضايقه. فخرجت.

وإذا بي في قاعة فسيحة تتوسطها مائدة كبيرة، وعلى المائدة صينيّة بديعة من الفضّة مملوءة عنباً لم أبصر في حياتي أجمل منه. وقد جلس إلى المائدة رفيقي في «بولتافا» ميخائيل إسكندر. فجلست مقابله وأخذنا نأكل بشهيّة ولذّة لا مثيل لهما. وإذا بموسوليني يقف في جانب من القاعة وكأنّه المضيف. ولكنّه كان في لباس ضابط عملاق من ضباط القوازق الروس. وكان يبدو لي أنّه يستعد للذهاب إلى مكان ما. فأوعزت إلى رفيقي أن اللياقة تقضي بأن نتوقّف عن الأكل. فتوقّفنا. وشكرت لمضيفنا حسن ضيافته.

تلك هي خلاصة الحلم. والذي يدعو إلى التأمّل العميق فيه هو أنّني أبصرت موسوليني - عنوان إيطاليا - مريضاً. وكانت

Twitter: @ketab_n

إيطاليا، في الواقع، قد أخذت تتخبّط في مشكلات حربيّة وسياسيّة واقتصاديّة خانقة. وكان هتلر - عنوان ألمانيا - طبيب موسوليني. وألمانيا راحت تفعل المستحيل لتبقي إيطاليا في الحرب وتحفظها من الانهيار. وكان موسوليني المريض يرتدي قميصاً أسود - رمز الفاشستيّة؛ ومن تحته قميصاً رماديّاً - رمز النازيّة؛ ومن تحت الاثنين قميصاً رماديّاً مقلّماً بالأحمر الذي هو رمز الشيوعيّة. وذلك يعني أن إيطاليا الفاشيّة - النازيّة ستنتهي إلى النازيّة والشيوعيّة معاً.

أمّا العنب البديع واللذيذ الذي أكلته أنا ورفيقي، وكان ضيافة من موسوليني في زيّ ضابط قوزاقي، فمغزاه أن روسيا التي نحبّها كلانا، ستنتصر في النهاية، وسيكون لها أن تطبع جانباً من إيطاليا بطابعها الشيوعي. وذلك ما حصل في الواقع بعد ثلاث سنوات.

ففي أيّ دنيا كنت ساعة حلمت ما حلمت؟ من الأكيد أن الذي أبصر وسمع ما أبصرت وسمعت لم يكن الرجل النائم في سريره في بسكنتا. فعيناه كانتا مغمضتين، وأذناه بعيدتين آلاف الأميال عن إيطاليا، وكان فمه مغلقاً لا يستطيع الأكل ولا الكلام. فمن هو الذي أبصر وسمع، والذي أكل وتكلّم؟ إنّه أنا لا غيري، ولكن في جسدٍ غير الذي كان نائماً في سريره. ومن

Twitter: @ketab_n

واجب العلم أن يبحث عن ذلك الجسد ما هو؛ وأين هو؛ وكيف يتصل بالجسد المنظور وينفصل عنه في حالة النوم؛ وبأيّ الوسائل ينقل إلى الذاكرة صوراً ممّا يشاهده في سياحاته الغريبة؛ ولماذا يأتي الكثير من تلك الصور مشوّشاً ومشوّهاً، والقليل يأتي جليّاً وواضحاً؛ وكيف له أن يبصر ويسمع أشياء لم تحصل ولكنّها ستحصل بعد حين؛ وهو لم يكن ليبصرها ويسمعها لولا أنّها كائنة قبل أن تكون - أي قبل أن تبلغ وعيه في اللحظة التي ندعوها «الحاضر»؛ وهل أن شيئاً جرى وسيجري في الزمان إلاّ هو حاضر أبداً في «الآن»؟

تلك أسئلة يليق بالعلم أن يطرحها على ذاته من حين إلى حين. فلا يتهرّب منها لأنّها لا تنقاد إلى الامتحان بأنابيق الكيمياء، وأجهزة الفيزياء. فالإنسان أكثر بكثير من عناصر كيميائيّة وفيزيائيّة. وأكثر بكثير ممّا يبدو منه لعينه وأذنه. وهو أعجب بما لا يقاس من الكون العجيب الذي يعيش فيه. وسخافة هو القول بأنّ في حياة الإنسان «خوارق» تتعدّى طبيعة الإنسان. فما ندعوه خوارق وعجائب ليس إلاّ الشاهد على أنّ في الإنسان قوًى هائلة، خفيّة، لم يحلم بها العلم بعد، ولا الفلسفة. فما أسخف الذين يقيسونه بما فعل حتى اليوم ويحسبون أنّهم بلغوا منه أعلى قمّة وأبعد غور. وأسخف منهم أولئك الذين يأبون إلاّ

Twitter: @ketab_n

أن يحصروه في أقفاص من الجنس واللّون واللغة والدين، وضمن حدود جغرافيّة وسياسيّة واقتصاديّة وسواها. وما القلق الذي شهدته إنسانيّات الأمس، وتشهده إنسانيّة اليوم في شكل مضخّم، غير نتيجة حتميّة لتلك الأقفاص، وتلك الحدود. فهي أضيق من أن تحصر الإنسان.

Twitter: @ketab_n

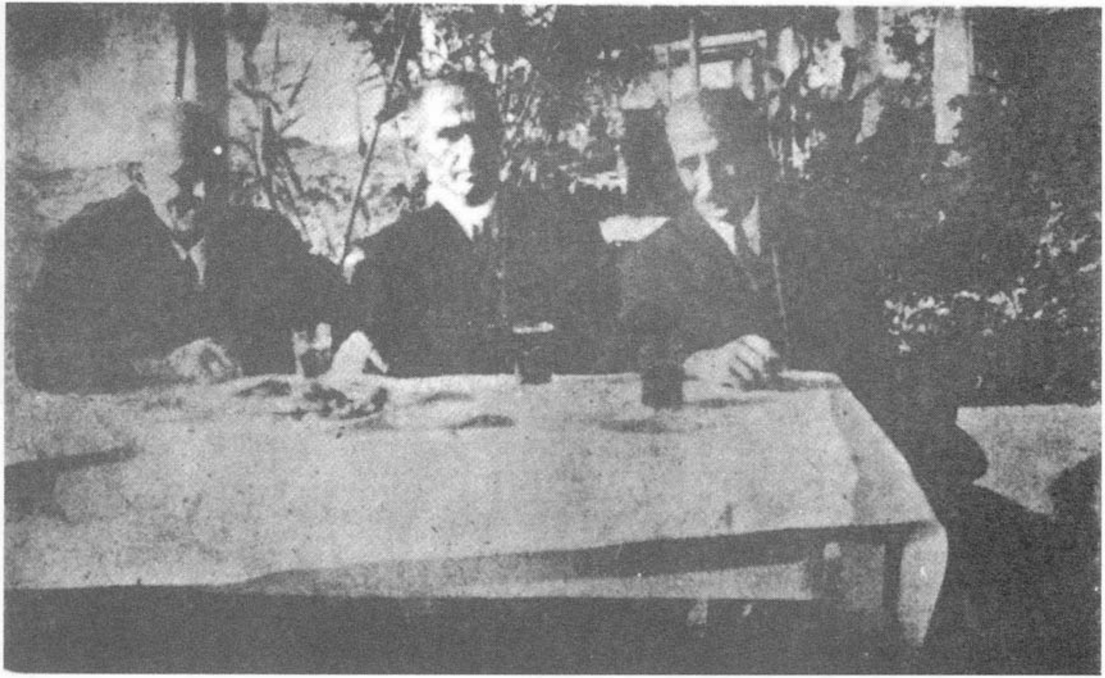

من اليمين: المؤلّف، أنطون صادر، إيليا أبو ماضي ١٩٤٨

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ميّ وأمّها

يوسف مع كلب الصيد «دِكّ»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

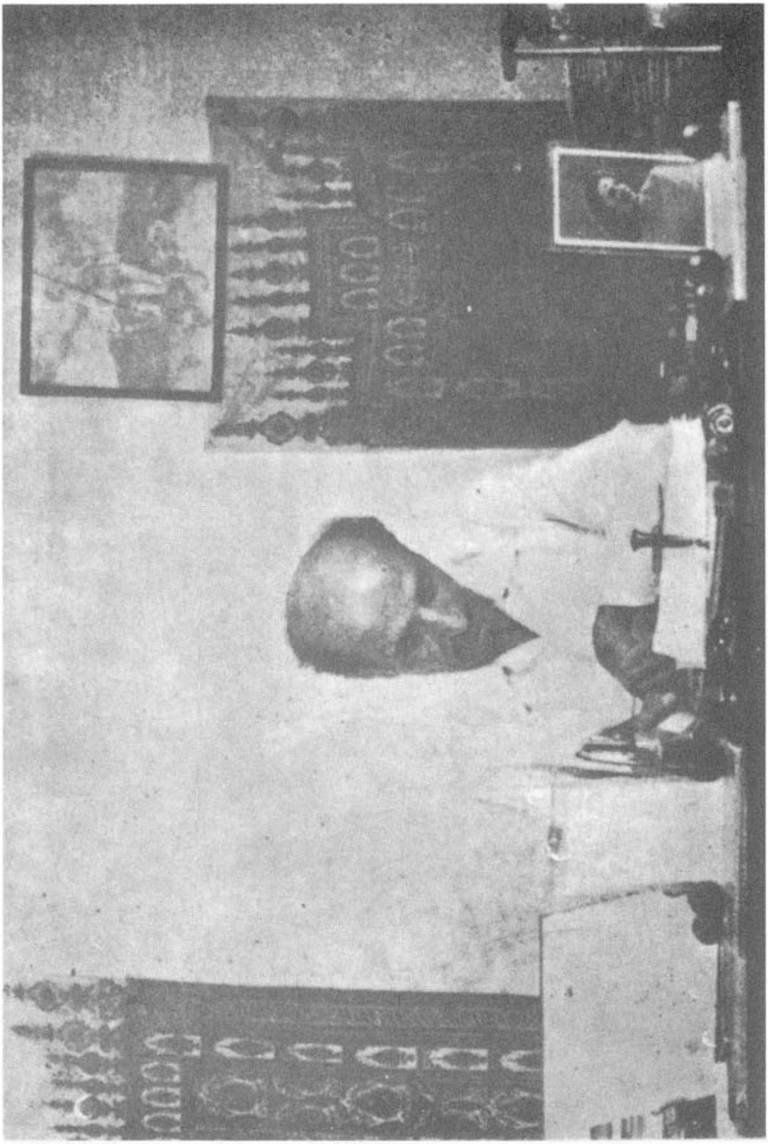

المؤلّف في مكتبه ببسكنتا

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المؤلف (يمين) مع أخيه نجيب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

استقلال...

أصبحت كلمة «الاستقلال»، في خلال الحرب العالميّة الثانية وبعدها، كلمة السرّ، بل كلمة السحر، عند جميع الشعوب المستعمَرة والمستعبَدة في الأرض.

لقد استطاعت الدول الاستعماريّة بدهائها أن تخنق «حق تقرير المصير» في المهد يوم أعلنه ودرو ولسن بنداً من بنوده الأربعة عشر للسلم قبيل انتهاء الحرب العالميّة الأولى. ولكنّ الحرب العالميّة الثانية بعثته من أكفانه. فكانت هذه الموجة الطاغية من الانتفاضات الشعبيّة في آسيا وإفريقيا ضدّ الاستعمار والمستعمرين. وكان لبنان وسوريا في مقدّمة البلدان الآسيويّة التي استطاعت أن تتملّص من قبضة الاستعمار الأوروبي، وأن تستقلّ بإدارة شؤونها في الداخل والخارج، فتصبح أعضاء في المنظمة العالميّة التي دعوها «الأمم المتحدة» من قبيل التمنّي، لا من قبيل تسمية الأشياء بأسماء تنطبق على صفاتها. فكلمة «المتحدة» هي في الواقع تهكّم لاذع على تلك المنظمة التي تضمّ أمماً أبعد ما تكون عن الوحدة والاتحاد.

لقد كان عليّ، وأنا الرجل الذي يكره الغطرسة والاستعمار والاستثمار أشدّ الكره، أن أفرح لبلادي وغيرها من البلدان المستعمَرة باستقلالها عن مستغمريها. ولكن فكري الذي يأبَى أن تعميه ظواهر

Twitter: @ketab_n

الأمور عن بواطنها أفسد عليّ فرحي. ففي اعتقادي أن الاستقلال الحقيقي نعمة لم تتذوّق حلاوتها بعد حتى الدول التي تملأ أساطيلها البحار، وطائراتها الجوّ، وجنودها البرّ، والتي أعلامها تخفق عالية بين أعلام الأمم. لأنّ أساطيل هذه الدول وطائراتها وجيوشها ليست الدليل على طمأنينتها، بل على خوفها. ولا هي علامة القوّة، بل علامة الضعف. ولا هي بشير التعقّل، بل نذير الجنون. والاستقلال ما كان يوماً وليد الخوف والضعف والجنون. ولا هو يستطيع العيش وهذه الآفات تحت سقف واحد.

إذا كانت تلك هي حالة الدول «الكبيرة» مع الاستقلال، فكيف بالصغيرة؟ وعلى الأخصّ تلك التي رضعت الذلّ والخوف والضعف مع اللبن، ومنذ مئات الأجيال؛ ورضعت معها الرياء وروح الاتكال والغدر والحقد والاستئثار والأخذ بالثأر وغيرها من العاهات التي إذا استبدّ بعضها - لا كلّها - بأيّ نفس، لم يترك للاستقلال فيها حتى موطئ قدم.

لذلك خاطبت لبنان بُعيد إعلان استقلاله سنة ١٩٤٣، وخاطبته من الإذاعة اللبنانيّة، فقلت في بعض ما قلت:

«وكانت ليالٍ غار نجمها، وتقنّع قمرها، وكثرت وشوشات أقدارها. وكانت نهارات مثقلة بالسعايات والنكايات، وبالعجيج والضجيج، والحقد والغضب، والبغض والصخب.

Twitter: @ketab_n

«ثمّ تلَفّت النّاس بعضهم إلى بعض، وتطلّعوا إلى فوق. وإذا بقطعة من نسيج أحمر فأبيض فأحمر، وقد توسّطها ما يشبه الأرزة، يصفّقها النسيم في الجوّ فتصفّق لها الجماهير على الأرض. وإذ سأل ساذج عن كلّ ذلك ما معناه قالوا:

«استقلّ لبنان!

«... ألا ليت الحقيقة كانت ما قالوا وما يقولون... ومن ثمّ فعندك يا لبنان مَن هم ذوو فخامة، وذوو دولة ومعالٍ، وسعادة وغبطة، وسماحة وعطوفة، وما إليها من الألقاب الطنّانة. أمّا أنا - ذلك اللبناني المبهم الذي لا لقب له ولا حسب؛ أنا الذي يدوس العنب في معاصرك، ويجمع الزيت والنبيذ في خوابيك، ويذرّي القمح على بيادرك، ويقطع الحجارة في مقالعك، والحطب في غاباتك، أنا الذي لولاه لكنتَ بلا عضل، ولا عصب، ولا دم - أمّا أنا فمَن أنا؟ وذو، ماذا أنا يا لبنان؟.. إنّي لأربأ بك تحطّ محكومك لترفع حاكمك. وتعزّ حاكمك لتُذلّ محكومك. وأربأ بك تموّه عبوديّة في باطنك باستقلال في ظاهرك، وتجعل من بنيك طبقات تعلو فوق طبقات، وصفوفاً تجثو أمام صفوف، وصغاراً يبخّرون لكبار، ثمّ ترضى بأن تقول وأن يقال عنك:

«لقد استقلّ لبنان!

Twitter: @ketab_n

«وكيف تستقلّ من الغير يا لبنان إلاّ أن يستقلّ الغير منك؟ وها أنت ذا قد استعبدت حتى الآلهة. أما تراك إذا ما خاصمت فباسم آلهتك خصامك، أو سالمت فباسمهم مسالمتك؟ إن غضبت على أخيك أكرهتهم على الغضب عليه، أو شهرت الحرب على أخيك سيّرتهم في الطليعة؟ لقد روّضتهم وذلّلتهم إلى حدّ أن أصبحوا أطوع لك من بنانك... ألا أعطيتهم استقلالهم ليعطوك استقلالك؟

«... ما للأرزة في عَلمك تطلُع من أديم بلون الدم، وتتطلّع إلى أديم بلون الدم؟ وأحرِ بها أن تطلع من تربة نقيّة نقاء ثلجك وأن ترفع رأسها في فضاء صاف صفاء ثلجك. أحرِ بها - وهي عنوان القوّة والرجاء والخلود - أن تحمل إلى العالم رسالتك - رسالة القوّة المؤمنة بالحقّ، والرّجاء المنزَّه عن الدنايا، والخلود القائم على وحدة الأرض وأبناء الأرض، ووحدة الأكوان كلّها في اللّه.

«وعندئذٍ إذا قالوا: استقلّ لبنان. قلتُ: استقلّ لبنان!

«ولكنّ في أذنيك اليوم عجيج بحار وهدير شلاّلات كثيرة يا لبنان. فما إخالك تسمعني. وإن أنت سمعتني، فما إخالك واعياً ما أقول.

Twitter: @ketab_n

«ولسوف تسمع. ولسوف تعي يا لبنان»[1].

والذي قلته للبنان في فجر استقلاله أقوله له اليوم ولسائر البلدان العربيّة - المستقلّ منها، والمجاهد في سبيل استقلاله. فالاستعمار البغيض لم يكن السبب في تأخّرها عن مسايرة الركب الحضاري الحديث بقدر ما كان الذلّ والهوان والاستكانة والاتكاليّة والاستهتار بالمسؤوليّة الاجتماعيّة والشخصيّة الإنسانيّة. وهي أوبئة فتّاكة لم تأتها جراثيمها بعدوى من الخارج. بل إن الذين بذروها - وما برحوا يبذرونها - في نفوسها كانوا منها وفيها. وهؤلاء هم، في الغالب، ذوو السلطان الزمني والديني، وذوو الجاه الموروث، والثروات الطائلة، والمطامع الأشعبيّة. وهم الذين استخدمهم الاستعمار في الوصول إلى مآربه. ولولاهم لما استقرّ حكمه، ولا طال عمره، ولا طابت له إقامة.

وإنّه ليؤلمني أشدّ الألم. وقد تقلّص ظلّ الاستعمار عن الكثير من البلاد العربيّة، أن أرى الأوبئة التي ذكرت وكأنّها لم تُصَبْ بأيّ نكسة. بل لعلّها في طفرة جديدة من التكاثر والنموّ.

---

(١) «قالوا استقل لبنان» في «البيادر».

Twitter: @ketab_n

فاللبناني الذي لا ينكر أحد ذكاءه وطموحه وتعشّقه للحرّيّة، والذي يكاد يقول بلسان المتنبي:

«تغرّب لا مستَعظماً غير نَفسه ولا قابِلاً إلاّ لخالقه حُكما»

ذلك اللبناني عينه تكشّف بعد الاستقلال عن رجل يفهم الاستقلال على أنّه استغلال؛ والخدمة العامّة على أنّها وسيلة للرشوة ولتحقير المخدوم وتذليله؛ والذكاء على أنّه مكر وغشّ ودهاء؛ والنظام على أنّه البراعة في التفلّت من النظام؛ والوطنيّة على أنّها طائفيّة؛ والطائفيّة على أنّها مناورات لا نهاية لها ولا غاية منها إلاّ الظّفَر بحصّة الأسد من كراسي الحكم ومال الخزينة؛ والزعامة على أنّها حماية المجرمين من القانون إذا كانوا من الأنصار، والتنكيل حتى بالأبرياء إذا كانوا من الأضداد.

ولبنان، مع ذلك، يحلو له أن يتكلّم عن نفسه، وأن يتكلّم عنه إخوانه العرب، كما لو كان بلد الإشعاع وموئل الحرّيّة!..

إنّ ما يفتقر إليه اليوم لبنان وسائر الأقطار العربيّة هو تحصين الإنسان قبل تحصين الحدود، وبناء النفوس قبل بناء المساكن والمصانع والمعابد، والجيوش البرّيّة، والأساطيل البحريّة والجويّة. وذلك لا يتمّ بالثرثرة والتبجّح، ولا بالتمنيات والصلوات، ولا بالقصائد والدعايات. بل يتمّ بتربية جديدة تردّ للإنسان العربي كرامته كإنسان. إذ هي تبعث فيه الشعور بأنّه ليس أدنى من أيّ

Twitter: @ketab_n

ملك، ولا هو أرفع من أي صعلوك؛ وأن الحياة وبركات الحياة ليست حسنات يستجديها من كفّ أيّ مخلوق؛ وأنّه - إذا كان من المتعبّدين - لَفي غِنًى عن وسطاء بينه وبين اللّه ما دام اللّه أبداً فيه ومعه وحواليه، وما دام يذيع له نفسه بغير انقطاع؛ وأن من شاء أن يأمن أذى النّاس توجّب عليه ألاّ يؤذي النّاس؛ وأن الجمال والفضيلة في جميع مظاهرهما قوت وقوّة، فالعبث بهما جريمة يرتكبها العابث ضدّ نفسه وضدّ النّاس، وأن الاستقلال عن النّاس لا يمكن أن يكون إلاّ في خدمة النّاس خدمة لا أثر فيها للاستئثار والاستثمار.

لكَم تمنيت لو تتيسّر مثل هذه التربية للعرب. إذن لكان في إمكانهم أن يحملوا رسالة الخلاص إلى عالم بات وكأنّه في طور النزع من شدّة ما يعانيه من تفكّك ونزاع. والعرب أولى الشعوب بأن يعرفوا قيمة الواحة في الصحراء، فهلاّ جعلوا من بلادهم الواسعة واحة سلام وتفاهم وتآخٍ في صحراء المطامع والأحقاد والضغائن والمخاوف التي يتخبّط فيها عالم اليوم؟ هل يتاح للعرب أن يحتفظوا بوعيهم في عالم أضاع وعيه؟ وهل ينهض من بينهم زعماء يكونون من بُعد البصر وثاقب البصيرة بحيث يوجّهونهم ذلك التوجيه؟

يا ليت!

Twitter: @ketab_n

بيتي

«ما لم يبنِ الربّ البيت فعبثاً يتعب البنّاؤون».

هذه الآية الواردة في مطلع المزمور ١٢٧ من مزامير داود أخذت تتردّد في خاطري منذ أن ضربنا أوّل معول في سطح البيت القديم وحتى الساعة التي انضوت فيها العائلة تحت سقف البيت الجديد. وأغلب الظنّ أنّ ما عناه داود ليس بعيداً عن روح المثل القائل: السرّ في السكّان لا في المكان. بل هما من مقلع واحد. فالبيوت لا تقوم بجدرانها وسقوفها وأثاثها مهما بلغت هذه من المتانة والأناقة وروعة الصنع والهندسة. ولكنها تقوم بالذين يسكنون ضمن الجدران وتحت السقوف ويستخدمون الأثاث. وهؤلاء ما لم يبنهم الربّ - أي ما لم يشدّهم بعضهم إلى بعض بإسمنت المحبّة والألفة والتساهل والتعاون والتسامح وتوحيد الجهود في بلوغ أهداف مشتركة - فالبيت الذي بناه لهم البناؤون لا يجديهم فتيلاً. إنّه تعب مهدور.

ولأنّني وجدت من الخير لي ولأخي نجيب وعائلته أن نعيش تحت سقف واحد، وأن نهتمّ معاً بتنشئة صغاره، وبتحسين واستثمار ما انحدر إلينا من أملاك، فقد حرصت، منذ البداية، على أن يكون «الجوّ» في بيتنا جوّاً لا أثر فيه لأيّ من الشوائب

Twitter: @ketab_n

النفسانيّة والماديّة التي من شأنها أن تباعد بين الأخ وأخيه، والزوج وزوجته، والصغار والكبار. فلا طمع، ولا جشع، ولا شكّ في نيّة الواحد تجاه الآخر، ولا تحاسد، ولا تسابق على اليسير من المسؤوليات وتهرّب من العسير، ولا حبّ السلطان والسيطرة أو تصلّب في الرأي واعتداد أعمى بالنفس.

لست أعني أنّ جوّ بيتي كان دائماً أبداً في مثل صفاء عين الديك. فقد كنّا عشرة قبل وفاة أخي نسيب وعودة زوجته إلى أهلها في فرنسا. فأصبحنا ثمانية. ثمّ توفّي الوالد والوالدة فبتنا ستّة - أنا، ونجيب، وزوجته زكيّة، وأولادهما مي ويوسف ونديم. وهؤلاء الستّة لكلّ منهم تركيبه الفيزيولوجي والنفساني، وشخصيته، وتفكيره، ومزاجه. فلا بدّ من اصطدامات بين رأي ورأي، وذوق وذوق، وميل وميل. ولكنّها، في الغالب، اصطدامات طفيفة جدّاً ومن النوع الذي لا يترك أي أثر في القلوب المتحابّة حتى التفاني. ولأنّ بيني وبين أخي نجيب وعائلته مثل هذا الترابط الوثيق فقد باتت حياتهم متمّمة لحياتي، وبات من حقّ الذين تهمّهم حياتي أن يعرفوا شيئاً عن كلّ فرد من أفراد تلك العائلة.

Twitter: @ketab_n

نجيب:

هو الرابع بين خمسة إخوة وأخت. ثلاثة منهم وُلدوا قبل هجرة الوالد إلى أميركا، وكنت ثالثهم. وثلاثة بعد عودة الوالد، وكان نجيب أوّلهم وقد جاء بعدي بعشر سنوات. وهناك شبه كبير في القامة والصورة بيني وبينه. إلاّ أنّه أمتن بنية مني بكثير، وأقوى على العمل الشاقّ. دراسته ابتدائيّة. ولكنّه حصّل الكثير الكثير بجهده الخاص. حتى ليقرأ العربيّة ويكتبها بالقليل من الأغلاط. ينظم «الميجانا» و «العتابا» و «الشروقي» وغيرها من الأغاني الشعبيّة ويغني ما ينظمه بصوته المستحبّ.

حادّ الطبع، قويّ الشكيمة، سريع الغضب، سريع الصفح والرضا، جيّاش العاطفة، نزيه القلب والكفّ، صادق النيّة والكلمة. يكره الرياء والنفاق والتدجيل، والتبرّج والتبجّح، والمماطلة في المعاملة، والتزلّف لذوي النفوذ والسلطان، ويكره المجاملة الفارغة والتقاليد البالية. لا يحسن التمثيل ولا شيئاً من الدبلوماسيّة في علاقاته مع النّاس. فالأعور عنده أعور بعينه. حريص على أن لا يُمَسّ في ذوقه وكرامته. إذا استُنجد أنجد دونما بطء ودونما مَنّ. وإذا استُفِزّ غلا وفار. وإذا أقدم على عمل فبحماسة لا تعرف الفتور. يتكل في أعماله اليوميّة وفي علاقاته

Twitter: @ketab_n

مع النّاس على حسّه الباطني أكثر من اتّكاله على المنطق أو على الأساليب المألوفة والمرعيّة.

يحبّ الأرض، ويتعشّق الزراعة، ويعرف قيمة الماء في حياة البهائم والمزروعات فلا يفرّط بقطرة منه، ويحسب الذين يهدرونه هدراً كفرة ومجرمين. له غواية في تربية البقر وتأصيلها وسياستها. وقد حمله حبّه لهذه البهيمة الوديعة، الكريمة، على الإكثار من المطالعة في الكتب التي تتحدّث عنها وعن أمراضها حتى أصبح ذا إلمام لا بأس به بالطبّ البيطري، وأصبح أهل بسكنتا وجوارها يلتجئون إليه في معالجة أمراض أبقارهم. ولقد أنقذ الكثير منها من الموت. وهو يفعل ذلك بالمجّان مهما كلّفه من تعب وسهر وعناء. وعندما باتت تربية البقر عبئاً ثقيلاً عليه وعلى العائلة باع آخر بقرة من بقراته منذ سنوات، قبّلها بين عينيها وبكى.

من هواياته - وأحبّها إلى قلبه - الصيد. وهو يحبّه لا طمعاً بلحوم الأطيار التي يصطادها، بل تشوّقاً إلى الانطلاق مع الطبيعة في مختلف حالاتها وتقلّباتها. ولقد حاولت غير مرّة أن أنهاه عن الصيد ولكن دون جدوى. فقلت لعلّني أسيء إليه إذا أنا شدّدت عليه النكير، فأحرمه هواية يجد فيها أحسن الرياضة لنفسه وبدنه. وهي في نظره بريئة وشريفة. وحسبه أنّه بعيد منتهى

Twitter: @ketab_n

البعد عن السكر والقمار وغيرهما من الموبقات التي يتردّى فيها الكثير من رجال هذا العصر.

وفي هذه المناسبة أودّ أن آتي على ذكر كلب للصيد كان لأخي نجيب، وكان من نوع الـ «بوينتر» (Pointer) . وأودّ أن أذكره ببعض الأعمال الخارقة التي بدرت منه وكانت فوق ما يتوقّعه الإنسان من أيّ حيوان. ولن أحدّث عن حاسة الشمّ العجيبة التي كانت له. فتلك غريزة تمتاز بها أجناس من الكلاب وغيرها من الحيوانات. وهي، وإن تكن مدهشة في ذاتها، لا تثير دهشة الذين ألفوها مباشرة أو بالسمع أو بالمطالعة. ولكنني أودّ أن أروي أحداثاً ثلاثة من حياة هذا الكلب معنا وأن أترك القارئ يفسّرها ويستنتج منها ما يشاء:

١ - كان أخي نجيب وزوجته زكيّة جالسين أمام البيت في الشخروب. وكان الكلب رابضاً أمامهما. وكان موسم الكرز. وبالقرب من البيت كرزة تدلّت أغصانها إلى الأرض من ثقل الثمر الذي عليها. والتفتت زكيّة نحو تلك الكرزة فإذا الدجاجات قد غزونها وأمعنّ في ثمارها نقراً وازدراداً. فقالت لنجيب بصوت هادئ لا نبرة فيه ولا حدّة: انظر إلى الدجاجات تحت الكرزة. حرام أن لا ترفع أغصانها عن الأرض بحيث لا تطالها الدجاجات. فما انتهت من الكلام حتى وثب الكلب من

Twitter: @ketab_n

مربضه وانطلق كالسهم إلى حيث الكرزة فشرّد الدجاجات في كلّ جانب أفظع التشريد. وعندما اطمأنّ إلى أن الكرزة في سلام عاد فربض حيث كان. فهل إنّه سمع وفهم ما قالته زكيّة لنجيب؟ وكيف له أن يفهم لغة النّاس: الدجاج. الكرز. والضرر الذي تلحقه الدجاجات بالكرز؟ وإذا هو لم يفهم المفردات فكيف فهم الغاية منها؟

٢ - عندنا في الشخروب، وعلى بعد مئتي متر من البيت، بستان الكرز «يضمنه» منّا في كلّ عام بعض الذين يتاجرون بالفاكهة من أبناء بسكنتا. والمعروف عن الكرز أنّه ثمر تستلذّه بعض الطيور والوحوش كالثعلب والنمس، وتستلذّه الكلاب كذلك. والعجيب في كلبنا أنّه كان يحرس البستان في الليل من كلّ معتدٍ؛ وكان يمشي تحت الأغصان المتدلية إلى الأرض من ثقل أثمارها فيحرص منتهى الحرص على أن لا يؤذي ثمرة واحدة، ولا يتذوّق ثمرة ما دامت على غصنها. أمّا التي وقعت من غصنها على الأرض، أو التي كان يقدّمها له أحد النّاس بيده فما كان يعفّ عنها. فمن أين له المعرفة أن الثمرة التي على الشجرة ذات قيمة لصاحبها فلا يمسّها، وأنّ التي على التراب لا قيمة لها فلا يعفّ عن أكلها؟ إنّها لشئمة لا تجد نظيرها إلاّ عند القليل من النّاس. فكيف بالكلاب؟ وهي شئمة مكتسبة وليست من بنات

Twitter: @ketab_n

الغريزة. فبأي وسيلة توصّل كلبنا من تلقائه إلى التمييز بين «الحلال» و «الحرام»؟

٣ - كان «دِكْ» - ذلك هو اسم الكلب - إذا رأى صاحبه في ثياب الصيد جنّ جنونه. فراح يقفز ويهبهب ويبصبص بذنبه وكأن جلده قد ضاق به؛ فلا يصدّق متى ينطلق في طريقه ويروح يعدو وأنفه تارة إلى الأرض وطوراً في الجوّ يلتقط ما فيهما من روائح. وكان يحبّ ركوب السيارات، لا فرق بين صغيرة وكبيرة. واتفق ذات صباح أن انطلق به نجيب إلى الصيد ووجهته جبل صنّين. ثمّ اتّفق، وهما في أوّل الطريق، أن أدركتهما سيارة ركّاب كبيرة متجهة نحو صنّين. فأصرّ سائقها على نجيب بأن يركب معه فركب. ودعا الكلب ليقفز إلى داخل السيارة فانكفأ إلى الوراء وأدار وجهه نحو البيت. وأدهش أخي هذا التصرّف غير المألوف من قبل الكلب. فقد كان يقفز إلى السيارة قبل أن يدخلها صاحبه. وترجّل نجيب بقصد أن يحمل الكلب عنوةً إلى السيارة. وكانت دقّات حزن قد أخذت تأتي من كنيسة قريبة. فسأل عن المتوفّى. فقيل له إنّه فلان، وفلان كان نسيباً من أنسبائنا الأقرباء وقد مات في بيروت. وأدرك نجيب في الحال أن طريقه في ذلك انهار لن يكون إلى الشرق بل إلى الغرب، ولا إلى الجبل بل إلى البحر. وعاد إلى البيت وعاد معه كلبه الذي طارت البهجة من عينيه، وهمدت النار في عضلاته. فذَنَبه

Twitter: @ketab_n

جامد، وخطواته بطيئة، وأنفه لا في التراب ولا في الجو. لقد كان يمشي كسير القلب والجفن.

أمن الممكن أن يكون «دِكْ» قد أحس من دقات الجرس أنّها تحمل رسالة محزنة لصاحبه، وأنّها ستصرفه عن الصيد، ولذلك أبَى أن يصعد إلى السيارة؟ من يدري؟ إنّ ما ليس «معقولاً» عندك وعندي قد يكون جدّ معقول عند «دِكْ» وعند أبناء عشيرته وغيرها من عشائر الحيوان والطير. من يدري؟

زكيّة:

وجه بشوش عليه مسحة قويّة من جمال الشرق والغرب، يستأنس به القريب والغريب. عينان ذابلتان تفيضان إنسانيّة وأمومة ومحبّة ووداعة. طبع يغلب عليه الخجل، وهو أبعد ما يكون عن حبّ الظهور والاعتداد بالنفس. وزهد مفرط في كلّ ما تتهافت عليه النساء من المساحيق وأدوات التجميل والزينة والحلى. ولسان يؤذيه أن يتندّر بمصائب الغير ومتاعبهم وعيوبهم. ويدان لا تكفّان عن العمل. فهما للعجين والخبز والطهي والغسيل وتنظيف البيت وقطاف اللوبياء والخيار والبندورة وغيرها من البقول التي نزرعها، مثلما هما للخياطة والرفو وحياكة الصوف وصنع «الدانتيلا» النحيفة بالإبرة والصنّارة والمكوك.

Twitter: @ketab_n

لذّتها الكبرى في أن تجلب اللذّة والراحة للغير، وعلى الأخص لأهل بيتها، حتى وإن هي حرمت نفسها الأكل والراحة والنوم في سبيلها. لها جَلَدٌ عجيب على العمل وعلى الألم. تكابر على الوجع حيث غيرها يملأ الفضاء شكوى وأنيناً. حريصة حرص النملة على كل ما في بيتها، فلا تنبذ أي قديم إلاّ إذا أعيتها الحيلة في ترميمه واستخدامه لأيّ غرض من الأغراض. تطعم ضيفها من قلبها ولا تمسك حاجة عن محتاج. قلّما تزور الكنيسة للصلاة، ولكنّها على جانب كبير من الورع والتقوى؛ فهي تصوم الصوم الكبير، وصوم الميلاد، وصوم السيدة العذراء، ولا تفرّط في أيّ من التقاليد المرعيّة في المواسم الدينيّة الكبرى.

مَيّ:

أدركتها في أوّل عهدها بالمدرسة طفلةً ينمّ وجهها الهادئ، الوسيم، وتنمّ حركاتها عن معانٍ كثيرة. أبرزها تعشُّق للنظافة والترتيب؛ وذوق مرهف في تحسّس الجمال والتمييز بين ما يليق في السلوك واللباس والكلام؛ وشخصيّة تأبَى أن تذوب في غيرها، أو أن تكون تابعة لا متبوعة؛ وعقل نيّر، سريع الحفظ والاقتباس والاستنتاج، إلاّ في القضايا المتعلّقة بالأرقام. فالحساب كان الدرس الوحيد الذي كان ينكمش دونه قلبها وينغلق عقلها.

Twitter: @ketab_n

أمّا ما تبقّى من الدروس - وعلى الأخصّ ما كان فيه نفحة من الأدب الحيّ - فكانت تُقبل عليه بقلب جذل وفكر منفتح.

كانت ميّ، قبل وفاة جدّتها، تنفق معظم الصيف معها في الضيعة. وكنت وباقي العائلة نمضي الصيف في الشخروب. أمّا من بعد موت الوالدة فقد تغيّر نمط معيشة العائلة إذ انقسمت في الصيف إلى شطرين متساويين: نجيب وزكيّة ويوسف في الشخروب. وأنا وميّ ونديم في الضيعة. وذلك لأنّه لم يكن في الإمكان إقفال البيت في الضيعة لأسباب كثيرة أهمّها كثرة الزوّار الذين كانوا يفِدون إليّ في كلّ يوم تقريباً من أيّام الصيف، ومن شتى الديار.

ولشدّ ما أدهشني أن تتكشّف ميّ بعد وفاة جدّتها، وهي لا تزال في أوّل شبابها، عن ربّة بيت نادرة بين ربّات البيوت. فهي لاستقبال الضيوف والقيام بواجبات الضيافة. وهي لتنظيف البيت وترتيبه. وهي للطهي والغسل، وللاهتمام براحة عمّها وأخيها وحاجاتهما. فلقد كانت تمرّ بنا أيام لا يفرغ فيها بيتنا من الضيوف ليل نهار. فكأنّه الفندق. ولا يندر أن يكون الضيوف من الغرباء الثقلاء. وميّ، ولا معين لها، تقوم وحدها بخدمتهم إكراماً لعمّها. فرضا عمّها عندها بات من رضا اللّه. وتوفير الراحة له، حتى في أتفه الأمور، بات من الواجبات التي لا يفوقها

Twitter: @ketab_n

في الأهميّة أيّ واجب. فما أكثر ما تنفق الساعات في إعداد أكلة تستنبطها من عندها وتظنّ أنّها ستعجبني؛ أو في ترتيب الزهر في زاوية من زوايا البيت بطريقة تعرف أنّها ستثير إعجابي؛ أو في حياكة «كنزة» تعتقد أنّها تردّ عني البرد.

تخاف عليّ من تقلّبات الطقس، ومن الإجهاد، ومن قلّة الأكل. فتحاول أن تغريني بشتى الأساليب لآكل فوق حاجتي، أو لأستريح من العمل وأصرف نفسي عن التفكير والكتابة ولو قبل الأكل وبعده بساعة أو ساعات. وهي تدعوني لا بكلمة «عمّي» بل بكلمة «أنْكولْتي» وقد صاغتها من كلمة uncle الإنكليزيّة. وكثيراً ما أقرأ لها أشياء أكتبها قبل نشرها لأستأنس برأيها وانطباعاتها. لأنّني أثق بحسن ذوقها وسلامة فطرتها.

هذا الفيض من العاطفة الطاهرة، والذوق اللطيف، والإحساس المرهف تغمرني به ميّ هو الذي حدا بي مرّة إلى كتابة أقصوصة دعوتها «عدوّ النساء» وصوّرت فيها رجلاً لا زوج له، ولا ولد ولا تلد، وقد أبصر عرساً فخُيّل إليه أن العروس ابنته وقد جاء من يسلخها عنه. فراح يحبّر إليها رسالة كان في جملة ما جاء فيها قوله:

«بيتي من بعدك، يا بنيّتي، ليس بيتي. إنّه وجار ضبع، بل حجر ضبّ... إنّه قاحل، يابس، عابس، بخيل، دميم، وكان يعجّ

Twitter: @ketab_n

بالخصب والخضرة والبسمات والجود والجمال. كان يبش للمكنسة والخرقة في يديك، ويتوهّج بالنور المتدفّق من عينيك، ويطمئن لوقع قدميك.

«كان بيتي قفير نحل. وكنتِ فيه المليكة المكرّمة، المطاعة. وكان لكلّ حلم من أحلامي جناحان، وطنين أين من عذوبته أناشيد الملائكة؟ وكانت أحلامي في حركة دائمة. وكانت الحركة بركة...

«أمّا من بعد أن أقفر القفير منك فقد أقفر من كلّ حركة وبركة. فلا رفّة جناح، ولا رجع طنين، ولا حلاوة شهد، ولا شذا زهرة، ولا بذار أحلام جديدة. لقد غفا النحل على الأقراص ولن يستفيق...

«وأنا من بعدك، يا بنيّتي، غير أنا. لقد كنتُ معك في السادسة والسبعين وكأنّني في السادسة والعشرين. بل كنت كمن عمره عمر النور، وله من النور صفاؤه وبهاؤه. فما مرّت أناملك بشعري، ولا لمست كفّك خدّي، ولا ارتسمت بسمتك في عيني، ولا رنّ صوتك في أذني، ولا سقيتني جرعة ماء أو قدّمت لي لقمة غذاء إلاّ بعثت في جسدي وروحي حرارة حياة تتجدّد تجدّد الأسحار والأغساق، وتنبسط على مدى الآفاق...»[1]

---

(١) «عدو النساء» في مجموعة «أكابر».

Twitter: @ketab_n

ويسألني النّاس بعد ذلك: كيف استطعت أن تستغني عن المرأة بعد عودتك من المهجر، وكنت في عنفوان رجولتك؟ وجوابي أنّني لم أستغنِ إلاّ عن لحم المرأة. وهو أتفه ما فيها. أمّا قلبها الذي هو من قلب اللّه فيا ويل الذين يُحرَمون ما فيه من دفء وعطف ومحبّة!

يوسف:

سُمّي باسم جدّه تمشّياً مع التقاليد القاضية بأن يحمل أحد الأحفاد اسم جدّه، وبأن تتكرّر أسماء السلف في أسماء الخلف من العائلة الواحدة. وقد ورث من صفات جدّه طيبة القلب، وكرم النفس، والحماسة في العمل، وحبّ الأرض. ولأنّ حبّة للأرض فاق حبّه للدرس بكثير فقد انصرف باكراً عن الدرس ليكون بجانب والده في العناية بأملاكنا وتحسينها وزيادة محاصيلها. صبور على التعب، ومقدام لا يهاب الصعاب ولا يلين للشدّة. في طباعه بعض من نزق والده وميله إلى الاستقلال بالرأي. محبوب من رفاقه وعشرائه. وفيّ لأصدقائه. حريص على أن لا يطالَب بحقّ، وأن لا ينام عن حقّ. يكره الخصام ويتجنّبه، إلاّ إذا فُرض عليه فرضاً. فهو إذ ذاك لا يجبن ولا يتهرّب. وإذا تهرّب فخشية أن يُلحق أي أذى بسمعة عمّه.

Twitter: @ketab_n

يحسن نظم الأزجال من نوع الأغاني الشعبيّة ويحسن غناءها. يعطف بالغ العطف على العامل والمحروم والمظلوم. سريع الخاطر في حلّ المشكلات التي تواجهه في حياته العمليّة والاجتماعيّة. بينه وبين أخته وأخيه تعاطف عميق، جميل، لم تعكّره يوماً كلمة نابية أو نظرة قاسية.

نديم:

توسّمت فيه النجابة يوم كان طفلاً أحمله على ذراعي وعلى ظهري، وأناجيه بلغة الأطفال. وعندما دخل المدرسة الشرقيّة في القرية رحت أرقب عن كثب تفتّحه ورغبته في التحصيل ومقدرته على هضم ما يقدَّم إليه. فتبيّن لي أنّه يميل إلى اللغة، وإلى التصنيف والتحليل، وأنّه يملك من الذوق والعقل والخيال، ومن قوّة الشخصيّة، ما يبشّر بالخير. لذلك حرصت على أن أسهّل له أسباب الدرس قدر المستطاع. فأدخلته مدرسة الفرندز الإنكليزيّة في برمّانا. وعندما أنهاها ولم يكن في طاقتي إدخاله إلى الجامعة الأميركيّة في بيروت شقّ عليه أن يبقى دون عمل في البيت. فرأى أن يدرس بالمراسلة من جامعة لندن منهاج السنة الأولى الجامعيّة. ونجح في درسه. وتيسّر لي إدخاله إلى الصفّ الثاني من كليّة الآداب والعلوم في الجامعة الأميركيّة.

Twitter: @ketab_n

ولكنّه لم تنقضِ عليه سنة هناك حتى حصل، بدون علمي وبدون أي سعي مني، على منحة من المعهد البريطاني في بيروت مكنته من إتمام دروسه حتى درجة .B.A .

وفي السنة التي حصل فيها على درجته الأولى عيّنته الجامعة مساعداً في تدريس الفلسفة الإسلاميّة وكان قد تخصّص في الفلسفة، وبعد سنوات قليلة نال درجة .M.A – ماجيستر – بأطروحة كتبها عن جانب من فلسفة «سبينوزا». وفي هذه السنة – ١٩٦٠ – حصل على منحة للدرس في جامعة كمبريدج بإنكلترا بغية الوصول إلى درجة «دكتور في الفلسفة».

يشهد الذين درسوا على نديم، والذين زاملوه في التدريس، والذين عاشروه وصادقوه أنّه يملك إلى حُسن الصورة حسناً أوفر منه في الخلق الرضيّ، وصفاء الذهن، ورهافة الذوق والوجدان، وصدق النيّة، وقوّة التحليل والتعليل، والصدق في القول والعمل، مع حصّة لا بأس بها من المزاج المرح والنكتة البارعة.

كانت لي معه مواقف تبادلنا فيها الآراء والنظريات في شؤون الأدب والفكر والحياة فتبيّن لي منها سعة اطّلاعه، وقوّة عارضته وحجّته، وسلامة منطقه، ودقّة ذوقه في التمييز بين الجوهر والعرض، والأدب الذي يعرف قيمة الكلمة فلا يمتهنها وذاك الذي يمتهن الكلمة لأغراض لا تتعدّى الحذلقة والبهرجة

Twitter: @ketab_n

وحبّ الإتيان بالغريب، وإن يكن عقيماً، على أنّه إبداع وإعجاز وتجديد وتوليد. ومن حسنات نديم الكثيرة أنّه وهو طالب ثمّ معلّم في جامعة لم يكبر يوماً على الأرض. بل كان، كلّما سنحت الفرصة، يساعد والده وأخاه في أعمالهما. ويفعل ذلك بحماسة ولذّة واندفاع.

يتصل ببيتي حتى يكاد يكون امتداداً له بيت شقيقتي التي لا تعرف من مباهج الدنيا وملذاتها ما هو أحبّ إلى قلبها ومزاجها من أن تُفني ذاتها في خدمة زوجها وبنيها الأربعة. فزوجها واثنان من الأولاد هما حسيب وسمير يعملون في الأرض - أرضهم - ويستدرّون منها ما يمكّنهم من العيش في بحبوحة وكرامة. والثالث من البنين، واسمه جرير، أفلت من قبضة الأرض لا كرهاً بها؛ يقدّسها ويقدّس العاملين فيها؛ ولكنّه ذو طبيعة رحبة، وخيال خصب، وطموح بعيد. وقد مال إلى الدرس. فكان رفيقاً لنديم في برمّانا، ثمّ في الجامعة الأميركيّة التي نال منها درجة .B.A وهو يعمل اليوم في القسم العربي من محطة الإذاعة البريطانية في لندن. وله ولع كبير بالأدب إجمالاً، والأدب الإنكليزي بالأخص.

أمّا الرابع من الإخوة - وقد أسميته أدونيس - فما كنت أتوسّم فيه مواهب خاصّة يوم كان صغيراً وفي بدء دراسته. ولكنه

Twitter: @ketab_n

أصيب بالشلل ولم يبلغ من دراسته الشهادة الابتدائيّة. فاضطرّ إلى الانزواء في البيت. ولشدّ ما أدهشني ذات يوم ذهبت فيه لعيادته أن يطلعني على رسم مريم المجدليّة لجبران، والمنشور في كتابي عنه، ثمّ أن يؤكّد لي أنّه نقله عن الكتاب بالقلم الرصاص ودون أن يستعين بأيّ حيلة غير نظره. ولو أن غيره قال لي ذلك لما صدّقت. فالنسخة جاءت شبيهة بالأصل إلى حدّ بعيد.

أذهلتني هذه المقدرة من الولد الكسيح، الهادئ، المنكفئ على نفسه. فجئته بدفاتر للرسم وبعض الأقلام الملوّنة. وإذا به بعد قليل يصنع رسوماً كثيرة، بعضها من خياله، ويصنع من الورق أزهاراً من مختلف الأشكال والألوان، ويصنع فراشاً فيلوّن الأجنحة أبدع التلوين، ويهيء الأجساد من نواة الزيتون، فتبدو الفراشات وكأنّها طبيعيّة. ثمّ إذا به بعد سنين يهجر الرسم وصنع الأزهار والفراش وينصرف إلى الكتابة، وكان يكاد لا يحسن القراءة. إنّه اليوم في عامة العشرين، وقد كتب عدّة مقطوعات نشرت له بعضها صحف محترمة في بيروت. وهذه واحدة منها بعنوان «العين والقلب»:

«تراءت للعين مشاهد عجيبة، فسارعت تدعو القلب لمشاهدتها. ولكنّه ظلّ ساكناً ولم يأبه بدعوتها.

فراحت العين تهزأ بالقلب وتتمتم في سرّها:

Twitter: @ketab_n

«يا ويح القلب ما أجهله وما أغباه!»

وذات ليلة حالكة، بينما كانت العين تغطّ في نوم عميق، أفاقت على هتاف القلب يدعوها لمشاهدة حلم جميل.

ولكن ما ان فتحت العين جفنيها حتى توارى الحلم، وصدمتها ظلمة دامسة».

* * *

ذلك هو «الجوّ» الذي أعيش وأعمل فيه في هذه المرحلة من حياتي على الأرض. وهو جوّ أُحسّني مغموراً فيه بفيض من دفء المحبّة الخالصة والاحترام الجميل. إلاّ أن حدوده أبعد بكثير من حدود بيتي، ونطاقه أوسع من نطاق الوشائج الدمويّة التي تشدّني فيه إلى نفر من النّاس. فتخوم بيتي تمتدّ حيثما امتدّ فكري وشرد خيالي. وهي تخوم لو شئت تحديدها ووصفها لما استطعت. ونطاق «أهلي» يتسع ليضمّ كلّ من وقعَتْ في أذنه كلمة من كلماتي، وكلّ مَن ذكرني بخير أو بشرّ، وكلّ مَن لم يسمعني ولم يبصرني ولم يذكرني، ولا أنا سمعته، أو أبصرته، أو ذكرته - ولكنّني أتنفّس وإيّاه روح الحياة الشاملة في ما كان منها، وما هو كائن، وما سيكون.

Twitter: @ketab_n

ولادة كتاب

كيف تولد القصيدة، أو المقالة، أو القصّة، أو الرواية، بل كيف يولد أيّ كتاب، أو أيّ عمل فني؟

هذه أسئلة لست أملك الجواب عنها. وقد يظنّ سواي أنّه يملكه. فهناك الذين يعتقدون أن العمل الفني يخضع لتصميم سابق حتى في أدقّ تفاصيله، مثلما يخضع بناء معمل أو جسر أو طيارة أو بيت أو باخرة، ويا ليت العمل الفني كان قضيّة أرقام وقياسات ومعادلات. إلاّ أنّه، في الواقع، عمليّة في غاية التعقيد. فالقصيدة، مهما طالت، قد تكون وليدة بيت واحد هو مطلعها. أو وليدة شطر من بيت. أو وليدة كلمة التقطتها الأذن؛ أو صورة ارتسمت في العين؛ أو خيال خطر في البال؛ أو عاطفة اختلجت في القلب؛ أو فكرة حركت الوجدان؛ أو عوامل أخرى باطنيّة وخارجيّة يتعذّر على الشاعر استيعابها والتحكم بها عند النظم.

تجرّ الكلمةُ الكلمةَ، ويولد البيت من البيت، وتتبع الصورةُ الصورة.والشاعر، حين باشر النظم، لم يكن على سابق علم بأيّ منها. ولا هو يدري من أين جاءت، ولماذا جاءت في هذا الشكل لا في غيره. إنّها، بالطبع، لم تأته من خارج نفسه. ولكنّه لا يعرف أيّ خزّان عجيب هي نفسه، وأيّ المشاعر والأفكار والصور

Twitter: @ketab_n

قد ترسّبت فيها على مدى السنين. وجلُّ ما في الأمر أنّه يملك لوناً خاصّاً من الذوق، وميولاً خاصة في التفكير، ومزاجاً روحيّاً وجسديّاً لا بدّ أن يختلف ولو في شيء من الأشياء عن أمزجة الغير. وهذا الذوق والمزاج، وهذه الميول هي التي تساعده في تنسيق الكلمات والأبيات والصور وتسلسلها، وفي نبذ البعض منها واقتبال البعض الآخر. فيأتي شعره صورة صادقة عنه. أو يأتي صورة كاذبة إذا كان الشاعر ممّن يحسنون ويستحسنون خداع أنفسهم وخداع النّاس.

والذي يحصل للشاعر عند النظم يحصل مثله لكاتب المقالة والقصة والرواية عند الكتابة. فقلّما يعرف الكاتب عندما يأخذ القلم ليكتب كيف يكون تسلسل أفكاره وإلى أين ينتهي. ذلك لأنّه لا يدري إلى أين سيشرد به خياله، وبأي الأفكار والمؤثرات سيتّصل فكره، وماذا ستوحيه إليه هذه الكلمة أو تلك الصورة، ومن أين ستأتيه وشوشات لم يكن يحسب لها أيّ حساب. فما أكثر ما تناولتُ قلمي وفي نيّتي أن أكتب كيت وكيت وإذا بي أكتب غير ما نويت كتابته. حتى ليبدو لي أحياناً أن يدي ليست وحدها التي تقود قلمي. أو أن قلمي ليس قلمي وحدي.

بوسعي أن أحدّث القارئ عن كلّ ما كتبته تقريباً، وعن الحالة النفسانيّة التي كنت فيها عندما كتبته. ولكنّه فوق طاقتي

Twitter: @ketab_n

أن أُلمّ بجميع المؤثرات التي جعلتني أختار هذا الموضوع لا ذلك، وهذه الكلمة، أو العبارة، أو البداية، أو النهاية لا هاتيك.

جئتُ في المرحلة السابقة على ذكر «مذكرات الأرقش»، وكيف أنّني بدأتها دونما تخطيط أو تصميم أكثر من رغبة ملحّة في خلق شخص أترجم بلسانه بعض ما ازدحم في خاطري من أفكار عن وحدة الإنسان واللّه، وانصراف النّاس عن جمال تلك الوحدة وجلالها إلى توافه المعيشة ومخرقاتها. وقد كان عليّ أن أصوّر ذلك الشخص تصويراً جليّاً في ذهني قبل أن أتحدّث بلسانه كيما يأتي ما يقوله مطابقاً لتكوينه الروحانيّ والجسداني. فما ان أخذت القلم حتى بدأت ملامح الرجل تبرز لعيني الباطنيّة كما من خلال الضباب. ثمّ لم يلبث الضباب أن انقشع وإذا الأرقش شابّ في نحو الثلاثين. وجهه الجميل مجدور ولذلك لقّبوه بالأرقش. أمّا أطواره فغريبة جدّاً. فهو لا يخاطب أحداً بأكثر من «نعم» و «لا». وليس يذكر شيئاً من ماضيه. فلا يعرف له أباً أو أُمّاً أو موطناً. وقد جاء يطلب عملاً في مقهى عربي في نيويورك فكُلّف القيام بوظيفة الخادم. وفي ذلك المقهى راح يدوّن ملاحظاته وأفكاره وأحاسيسه في شكل يوميات، وبطريقة عفويّة.

وما ان اكتملت في ذهني صورة الأرقش حتى بدا لي وكأنّه من لحم ودم، وحتى بات لا يفارقني، وبات من السهل

Twitter: @ketab_n

عليّ أن أخلق له الظروف الخاصّة التي تمكنه من كشف ما في نفسه الغنيّة، ومن فضح ما في الحياة التي تكرّ حواليه من فقر وضحل وبشاعة وغثيان. وهذه الظروف كانت تأتيني دون سابق تصميم. فكنت أنتهي من تدوين يوميّة من اليوميات ولا فكرة عندي عن التي ستليها. وقد سلختُ الأرقش عن ماضيه لأمكّنه من أن يحيا حياة إنسان تفكّكت نفسه من روابط أرضيّة كثيرة فبات في وسعها أن تحيا حياة الفكر الصافي. وقد جعلتُ شبح فتاة مذبوحة يلاحقه حتى في بعض ساعات يقظته. ولكنّني لم أكن بعد قد اهتديت إلى تفسير معقول للوهدة السحيقة التي قامت بين الرجل وبين ماضيه، ولا للصلة بينه وبين الفتاة المذبوحة.

وتوقفت عن متابعة المذكرات عندما أُلحقت بالجيش الأميركي عام ١٩١٨، فلم أعد إليها أكملها إلاّ بعد ثلاثين سنة، وفي لبنان!

كذلك كان شأني مع كلّ قصيدة نظمتها، أو مقالة أو قصة كتبتها. وبخاصّة قصّة «لقاء». فقد باشرت تأليف هذه الأخيرة وليس في رأسي غير فكرة واحدة مبهمة. وهي أن أصوّر إنساناً يتعشّق الكمال ويسعى إلى تجميل نفسه وتصفيتها من أدرانها متخذاً من الموسيقىٰ وسيلة لذلك. فما ان أقبلت على كتابة

Twitter: @ketab_n

الفصل الأوّل حتى تجلّت لي صورة ليوناردو في أدقّ ملامحها ومعانيها، وحتى تبادر إلى ذهني أن أجعله يأتيني قبل الفجر ليأتمنني على كمنجته قائلاً إنّه يأتمنني على روحه، وإنّه في طريقه إلى مكان لم يبح لي به، وإنّه يكلّفني حرق الكمنجة إذا هو لم يعد في خلال عامين.

لقد كانت أحداث الفصل الأوّل وصوره تأتيني بالسرعة التي يجري بها قلمي على الورق. وذلك دون أيّ تصميم سابق. فكأنّني كنت أتناولها كلمة بعد كلمة، وعبارة بعد عبارة من خزانة مقفلة في داخلي وقد جاءني مَن يفتحها لي. إلاّ أنّني بعد أن بلغت نهاية الفصل الثالث توقفت كمن كان يسير على عجل في طريق ممهّد، معبّد، فإذا به ينتهي بغتة إلى جدار عالٍ، أصمّ. لقد مضى ليوناردو إلى حيث لا أعلم، ومن بعد أن سبّب عزفه ما يشبه الجريمة، إذ أغمي في خلاله على فتاة تدعى «بهاء» أعرف والديها وأعرفها. وهي من جمال الروح والصورة في مرتبة عالية جدّاً. وقد مضى على إغماءتها أيّام. ووالدها يتهم ليوناردو بالسحر، وقد جنّد قوى الأمن في طلبه. وجاءه من يؤكّد له أنّه لو استطاع الحصول على الكمنجة الجانية لبات في الإمكان إيقاظ الفتاة من غفوتها الطويلة.

والكمنجة في بيتي. ولكنّني عاهدت صاحبها على أن لا

Twitter: @ketab_n

أبوح بها لأحد في غيابه. وأنا لا أعرف أين هو. فأين المخرج؟ وكيف أعود بليوناردو إلى مسرح القصّة؟ وإذا عاد فماذا يكون عمله، وكيف يجمل بي أن أنهي القصّة؟

بقيت أكثر من يوم أفتّش عن مخرج من المأزق. وبغتة - أجل، بغتة - فتق لي أن أخلق أسطورة «وادي العذارى» وأن ألمّح من خلالها إلى حبّ يعود إلى زمان سحيق في القدم بين ليوناردو وبهاء. ثمّ أن أجعل ليوناردو يختبئ في مغارة من مغاور ذلك الوادي بغية التطهر من شهوة جسديّة أثارها فيه منظر «بهاء» ساعة كان يعزف لحنه المحبّب «لقاء»، وكأنّه عرفها، وكأنّها عرفته في ذلك اللحن عبر مئات السنين. ولكن شهوته أفسدت عليه اللحن. فكانت إغماءة حبيبته. وكان عليه أن يتطهّر من تلك الشهوة، وأن يعود فيعزف اللحن لبهاء خالصاً من كلّ شائبة، فيوقظها من غفوتها ويتمّ اللقاء.

وهكذا كتبت الفصول الثلاثة الأخيرة من القصة وكأنّني آلة تسجّل. وكنت راضياً كلّ الرضى عمّا كتبت.

والآن أودّ أن أعود بالقارئ إلى عنوان هذا الفصل فأحدّثه عن المخاض الذي عانيته في خلق «كتاب مرداد». وهو الكتاب الذي أحسبه القمّة في تفكيري.

حدّثتك في فصل سابق من هذه «المرحلة» عن الكهف

Twitter: @ketab_n

الغريب الذي اهتديت إليه في جوار الشخروب، والذي اتخذته خلوة لي أنصرف فيها إلى التأمّل والتأليف، وتعزية النفس من زوائدها وأوهامها؛ وكيف أنّني، عندما شئت أن أعطيه اسماً لم يخطر ببالي غير فُلك نوح. فدعوته الفُلك تيمّناً مني بأنّه سيكون لي في خضمّ الحياة الأرضيّة المتلاطم بشتى الشهوات البشريّة ما كانته الفُلك لنوح في الطوفان حسبما تروي حكايته التوراة.

وحدّثتك عن البقعة البديعة التي يقوم فيها الكهف، وعن السكينة الرائعة والرهيبة التي تخيّم فوقها، والأحاسيس التي تثيرها صخورها إذ تبدو لي كما لو كانت خرائب مدينة سحيقة في القدَم، وعن صخرة تنتصب تجاه مدخل الكهف ولها شكل رأس بشري. ولكنّني لم أقل لك إنّني دعوت تلك الصخرة «الإله الضائع» أو «الإله المتحجّر».

في ذلك الكهف فكّرت كثيراً، وكتبت كثيراً، والذي كتبته في شكل مقالات أو قصص تناولت فيه نواحي مختلفة من فكرة أساسيّة أخذتْ تدور عليها، وتتفرّع منها، وتعود إليها جميع أفكاري. فبات يغريني أن أكرّس لتلك الفكرة مؤلفاً أبسطها فيه بسطاً وافياً، ولكن بطريقة تتحاشى جفاف التعليل والتحليل، وتستعين في الوصول إلى هدفها بشيء من طلاقة الخيال الشعري، وبشيء من جاذبيّة القصّة التي تستطيع أن تصوّر غير المألوف وغير

Twitter: @ketab_n

الواقعي وكأنّه مألوف وواقعي. وكان عليّ أن أختار لها القالب الذي يتناسب وعمقها وسموّها، وأن أجعل شخصاً غير شخصي ينبري لشرحها، والإلمام بجميع حواشيها، والتبشير بها بحرارة كالحرارة التي تثيرها في نفسي. وذلك الشخص كان عليّ أن أخلقه خلقاً، ومن طينة غير طينة النّاس، - حتى العباقرة منهم. والأمر الوحيد الذي صمّمت عليه هو أن يكون الكتاب باللغة الإنكليزيّة. وإذا سألتني: لماذا؟ ما اهتديت إلى جواب. هكذا عنّ لي.

بقيتُ أيّاماً أفتّش عن القالب والشخص فلا أستقرّ على ما يرضي ذوقي. وكنت أشعر أعمق الشعور بأن الجبل الذي أجاوره، والبقعة التي أجول في منعطفاتها، والكهف الذي يحتويني، و«الإله المتحجّر» الجاثم تجاه مدخل الكهف لا بدّ أن توحي إليّ في النهاية القالب والشخص اللذين أفتّش عنهما. فيوماً يخطر لي أن أتخيّل إنساناً غريباً، متوحّداً، أعثر عليه مصادفة في تلك البقعة فيجري بيني وبينه حوار طويل يكون هو فيه الناطقَ بما يجيش في خاطري من تأمّلات وأفكار. ولكنّني لا ألبث أن أُقلع عن الفكرة لأنّها تبدو لي مفتعلة مبتذلة. ويوماً أمضي أحوك في رأسي الأساطير حول البقعة كلّها، أو حول «الإله الضائع» أو «الإله المتحجّر». فلا أطمئن إلى حياكتي.

وأخيراً - ولست أدري لماذا - وجدتني أعود إلى حكاية

Twitter: @ketab_n

نوح والطوفان. وأغراني بالغ الإغراء أن أتخذ من نوح ترجماناً لأفكاري فأصوّر ما كان من شأنه مع زوجته وأولاده وزوجاتهم خلال الأيّام العصيبة التي صرفوها في الفُلك. فأجعل من نوح رجلاً مستنير الفكر والقلب، ومن زوجته وأولاده وكنّاته نماذج لشتى النزعات البشريّة من الإجحاد المتطرّف إلى الإيمان الساذج، ومن الشهوات الجامحة إلى الطهارة المطمئنة. ورأيت أن يكون ذلك في شكل تمثيليّة.

أقبلت على كتابة التمثيليّة بحماسة وثقة – وبالإنكليزيّة – وقد امتلأ خيالي صوراً لنوح يوم راح يبني الفُلك فيهزأ به جيرانه وأهل بيته، ما خلا واحداً من بنيه. وافتتحت التمثيليّة بفصل فيه رعاة كاد القيظ الطويل أن يقضي عليهم وعلى قطعانهم. وفيه صبيّ وفتاة صغيران وقد أرسلهما نوح ليأتياه بما يستطيعان صيده حيّاً من حشرات وحيوانات. وفيه كذلك رجل قادم من بعيد يستدلّ على بيت نوح، وهو يحمل من السنين خمسة قرون. وقد أسميته «مِرْداد». وكنت، قبل ذلك بسنين، قد وقعت على الاسم في بعض مطالعاتي العربيّة، ولا أذكر أين، على أنّه اسم ملاك من الملائكة. فاستهواني لما فيه من حلاوة اللفظ ومن معنى الردّة أو العودة. وكان في خاطري أن أجعل من ذلك الزائر القادم من بعيد صنواً لنوح من حيث تفتُّح بصيرته وإدراكه حقائق تعجز الحواس عن الوصول إليها.

Twitter: @ketab_n

ولكنّني ما بلغت نهاية الفصل الثاني الذي تدور جميع مشاهده ضمن الفُلك وفي عنفوان الطوفان حتى توقفت عن متابعة العمل. ولا تسلي لماذا. لقد انحرف بي خيالي في اتجاه آخر. ولعلّني أيقنت أن التمثيليّة لن تفي بغرضي. وغرضي أن أبسط أفكاري متساوقة ومكثّفة، وغير مموّهة بأحداث كثيرة ثانويّة لا بدّ من خلقها في التمثيليّة، وغير مقيّدة بالحوار التمثيلي ومتطلبات المسرح الحديث.

والعجيب أن فكرة الفُلك والطوفان ما برحت تلاحقني حتى من بعد أن عدلت عن كتابة التمثيليّة. فكأنّني، يوم أطلقت على الكهف اسم «الفُلك»، كنت، عن غير وعي مني، أمهّد لكتاب سأضعه بعد سنين، وسيكون فيه لفلك نوح نصيب كبير. فقد انتهى بي تفتيشي عن القالب والشخص إلى خلق أسطورة جعلتها المدخل إلى «كتاب مرداد» وأسميتها «حكاية الكتاب». ولست في حاجة إلى تلخيصها هنا. فليراجعها من شاء في الكتاب ذاته.

وما ان تجلّت لي الأسطورة في خطوطها الواسعة حتى شعرت كأن جبلاً تزحزح عن صدري، وكأنّني، بسحر ساحر، اهتديت إلى كنز لا نفاد له. لقد تهيّأ لي القالب الذي أريده والشخص الذي كنت أفتش عنه. فالقالب، على ما فيه من نَفَس الأسطورة، يبدو وكأنّه غير غريب عن الأرض. والشخص، على

Twitter: @ketab_n

ما يملكه من صفاء في البصيرة، ومن قوى روحيّة خارقة، يبدو وكأنّه طبيعي جدّاً في ذلك القالب. وكلا القالب والشخص يبدو وكأنّه في الأرض وليس منها. فلا ذاك ولا هذا يحمل سمة خاصّة بأيّ مكان أو زمان. ولكنّهما يحملان جميع السمات الأرضيّة والبشريّة في كلّ زمان وكلّ مكان.

قد يهمّ القارئ أن يعرف شيئاً عن بعض الرموز في «حكاية الكتاب». ولا بدّ أوّلاً من القول بأنّني استوحيت الطبيعة التي حواليّ في خلق بعض الأسماء والظروف المكانيّة. فجبال لبنان هي جبال «الآس واللبان» في الكتاب. وقمّة صنّين هي قمّة المذبح». والمنحدر الشهير في وجه صنّين الغربيّ هو «منحدر الصوّان». والصخرة التي لها شكل رأس بشريّ هي «شمادم المتحجّر». وصخرة الكهف هي «وكر النسور».

أمّا المصاعب الجمّة التي تعرّضتُ لها في تسلّقي منحدر الصوان حتى قمّة المذبح فقد رمزت بها إلى العقبات الكأداء التي تقوم في سبيل كلّ من طلب الحقيقة لوجه الحقيقة، والتي لا يمكنه التغلّب عليها إلاّ بالتجرّد من أهوائه الأرضيّة كيما تفلت ذاته من قبضتها ويتاح لها أن تتمدّد وتتوسّع إلى أن تصبح واحدة والذات الأزليّة، الأبديّة، الكاملة، الشاملة.

في صيف سنة ١٩٤٧ اتفق أن زارني رجل إنكليزي.

Twitter: @ketab_n

وكنت قد نفضت يدي من مخطوط مرداد. فشاء الرجل أن يطّلع عليه. ومن بعد أن قرأ بعض فصوله أشار عليّ أن أرسله إلى دار نشر في لندن كان يعرف مديرها. فعملت بإشارته. وإذا بي أتلقّى بعد حين من ذلك المدير رسالة مطوّلة ومؤرّخة في ٢١ تموز سنة ١٩٤٧ . وفيها يقول إن مستشاريهم الفنّيين الذين قرأوا المخطوط أُعجبوا جميعهم بما فيه من قوّة الإخلاص وحرارة الإيمان. ولكنهم لم ينصحوا بنشره لأنّه لن يباع منه إلاّ القليل في بلاد يهتمّ كلّ واحد فيها بمذهبه الديني الخاص. والكتاب يتنافى والعقائد المسيحيّة التي ألفوها. ولذلك لا يُرجى له انتشار واسع إلاّ إذا تأسّست كنيسة جديدة تدين به. وتنتهي الرسالة بقول المدير: «إنّي جدّ ممتنّ لكم لأنّكم أتحتم لنا الفرصة لنكون أوّل من اطّلع على هذا الكتاب النادر المثال».

وكان أن نشرتُ الكتاب في بيروت. ولكن المطبعة التي طُبع فيها لم تكن مجهّزة تجهيزاً كافياً لطبع الكتب الإنكليزيّة. فجاء الكتاب وفيه أخطاء مطبعيّة كثيرة، ونقص من حيث الترتيب وجمال الحرف والورق. ولكنه، برغم ذلك، راح يشقّ طريقه على مهل بمساعدة بعض الأصدقاء في أميركا. فلم يمضِ بعض الوقت حتى أخذت تأتيني رسائل تقدير وإعجاب من رجال ونساء لا تربطني بهم معرفة أو نسابة.

Twitter: @ketab_n

ولكَم أدهشني وسرّني أن تصل نسخ من الكتاب إلى اليابان وغيرها من بلدان الشرق الأقصى، وأن يأتيني طلب من مكتبة في بومباي - الهند - بمئة نسخة دفعة واحدة. ثمّ أن تتصل بي بعد سنين دار نشر محترمة في تلك المدينة طالبة الإذن بنشر طبعة منه للهند وآسيا وواصفة إيّاه بأنّه «كتاب الساعة. بل كتاب الجيل. بل كتاب الأبديّة». ولقد صدرت تلك الطبعة في سنة ١٩٥٤ وتُرجمت إلى لغة «غوجاراتي» وهي إحدى اللغات الواسعة الانتشار في الهند. مثلما صدرت ترجمة له في هولاندة إلى اللغة الهولنديّة. وستصدر ترجمتان إلى الألمانيّة والفرنسيّة. كلّ ذلك من غير أيّ دعاية إلاّ التي يبثها القراء أنفسهم، وإلاّ ما كتبه النقّاد عنه في بعض الصحف. والذي كُتب عنه حتى الآن كان أكثره مليئاً بالتقدير والإعجاب.

حقّاً إنّ مسالك الفكر والكلمة مسالك تختطّها الأقدار، وتكتنفها الأسرار!

Twitter: @ketab_n

١٩٤٩ - ١٩٥٩

كنت، حتى صدور «كتاب مرداد» في اللغة الإنكليزيّة، أعتمد العربيّة وحدها أداة لبثّ ما يجول في خاطري من أحاسيس وأفكار. والعربيّة هي لغة آبائي وأجدادي. وهي من أشرف اللغات وأغناها. وحبّها في دمي. إلاّ أنّ الذين يقرأونها بضعة ملايين. وأنا لا أفكّر على مستوى عربي فقط. ولا أكتب للعرب وحدهم. بل أفكّر على مستوى إنساني شامل، وأكتب لكل النّاس، وفي كلّ زمان ومكان. فلا بدّ من كسر الطوق الذي طوّقتني به العربيّة، أو طوّقت به نفسي. والإنكليزيّة أوسع انتشاراً من العربيّة بكثير، وأوثق صلة باللغات الحيّة في العالم. وأنا أُحسنها. فعلامَ لا أنقل بعض نتاج قلمي إليها؟

هكذا وضعت «كتاب مرداد» بالإنكليزيّة، ثمّ ترجمت إليها كتابي في حياة جبران، ومذكرات الأرقش، وقصة لقاء وغيرها من قصصي العربيّة. فنشرت الأوّل في نيويورك «المكتبة الفلسفيّة» - Philosophical Library - عام ١٩٥٠، والثاني عام ١٩٥٢ . ونشرت الثالث «المؤسسة الهنديّة للثقافة العالميّة» في بنغالور - الهند - سنة ١٩٥٧ . وهذه الترجمات كان لها استقبال طيّب من قبل الصحافة في أميركا والهند. ولعلّني، إذا اتّسع وقتي،

Twitter: @ketab_n

أترجم غيرها من مؤلّفاتي. أو لعلّه يقوم من يريحني من عناء الترجمة.

ولا يخطرنّ في بال أيّ قارئ من قرّائي أنّني لجأت إلى الإنكليزيّة طمعاً بتقدير لم أنله من أبناء جنسي ولساني. فقد كانوا على الإجمال، - وما برحوا - أحسن ظنّاً بي من نفسي. ولو أنا شئت أن أنشر كلّ ما اتّصل بي من عبارات تقديرهم لاستغرق الأمر أكثر من مجلّد. ولكنّني، على سبيل المثال، أكتفي بما كتبه اثنان هما عبد الرحمن الخميسي والمرحوم فايز الخوري، شقيق المجاهد العربي الكبير الأستاذ فارس الخوي. قال الخميسي في جريدة «المصري» تاريخ ٢٤ - ١٢ - ١٩٤٩:

«إذا كان للعربيّة، بل إذا كان للشرق جميعاً أن يزدهي بمفكريه، وأن يباهي بفلاسفته وشعرائه وكتّابه، فقد حقّ لنا - نحن أبناء الأمم العربيّة - أن نضع ميخائيل نعيمه على رأس مفاخرنا الروحيّة والأدبيّة في هذا العصر.

«إنّ ميخائيل نعيمه مدرسة إنسانيّة فريدة، ومذهب مخلص من أشرف مذاهب الفكر الإنساني. وليس هنا مجال الحديث عنه كمدرسة، أو كمذهب فكري. ولكنها شبه دعوة إلى قرّاء العربيّة أن يستزيدوا من كنوز هذا العبقري الذي يمنح ثماره للنّاس.

Twitter: @ketab_n

«إنّ ميخائيل نعيمه يعطي ولا يأخذ. وحسبه أن يمنح. وحسب النّاس أن تأخذ منه - لو كانت النّاس تحسن الأخذ».

لقد أخطأ الخميسي حين قال إنّني أعطي ولا آخذ. أوَليست كلمته بعضاً من ذلك الأخذ؟ وأيّ لذّة تضاهي لذّة من يبذر فكره وقلبه على الورق إذ هو يبصر بذاره ينبت وينمو ويثمر في أفكار وقلوب كثيرة؟

أمّا كلمة فايز الخوري، وقد كان وقتئذٍ سفيراً لسوريا في لندن، فقد وردت في رسالة بعث بها إلى صديقي وصديقه إسكندر اليازجي الذي أهدى إليه مجموعة من مؤلّفاتي وتاريخها ٢٠ - ١١ - ١٩٥٢ . قال كاتب الرسالة:

«حمل إليّ البريد منذ يومين رزمتين فيهما مؤلّفات الأستاذ نعيمه. فعجبت كيف استطعت أنت حزم هذه المؤلّفات، وكيف استطاع البريد حملها على ما فيها من أفكار عميقة وآراء دقيقة يكفي واحد منها لتنوء به أعناق البشر، وترزح تحته عوالم الكون. ولا أدري كيف استطاع المؤلّف نفسه حشر فلسفته في هذه الأوراق الضعيفة. وأنا أحسب أن صفحات السماوات والأرض لا تتّسع لاستيعاب هذه الفلسفة. وقد تصفحتها وأجلت الطرف بين سطورها فراعني ما فيها من عميق الفكر ونفوذ الرأي. وسوف أحاول فهمها، وأجرّب أن أكون رفيق صاحبها في علائه. ولكن

Twitter: @ketab_n

أنّى لي ذلك وأنا غارق في غمرات الحياة الماديّة، ومكبّل في سلاسل الدنيا وأصفادها. ويا ليت لي روحاً مثل روحه فأفوز فوزاً عظيماً...».

كانت الفكرة التي أكتب عنها حافلة بالأحداث في حياتي الخاصّة وحياة العالم عامّة. ففي الثاني من تموز ١٩٥٠ كتب إليّ أخي أديب من والا والا يخبرني عن وفاة شقيقنا هيكل هناك. وكنت أُحبّ ذلك الشقيق محبّة جمّة وأذكر ما قدّمه في سبيلي من قلبه وجيبه، فاختليت بنفسي في غرفتي بعد أن قرأت الخبر، وأخذت رأسي بين يديّ، ورحت أستعيد ما كان بيني وبينه منذ الصبا وحتى افترقت عنه بعد زيارتي الأخيرة لوالا والا عام ١٩٢٨ . ولم أشأ أن أخنق دمعة أخذت تجول في عيني. فأرسلتها شهادة مني لأخي بصفاء المحبّة التي أودعها قلبي.

في خلال تلك الفترة تيسّر لنا أن نقوم هنا وهناك ببعض التحسين في أرض الشخروب، وأن نبتاع نبعة ماء على بعد كيلومترين منه، ونبني لها خزّاناً يتّسع لمئة متر مكعّب كيما نؤمّن بواسطته، وبما لنا من حقوق في نبع صنّين، الريَّ الكافي لجنائن الشخروب ومزروعاته الصيفيّة. وهكذا باتت محاصيل الأرض تغطّي جانباً كبيراً من ميزانيّة العائلة الآخذة في الارتفاع باستمرار عاماً بعد عام. وعندما أصبحت جدران الكوخ الخارجيّة في

Twitter: @ketab_n

الشخروب متداعية هدمناها وأقمنا مكانها جدراناً حديثة، بنوافذ وأبواب حديثة. ولكننا أبقينا على العقد القديم ضنّاً بما يحمله من ذكريات، وضنّاً بآثار الوالدين تمحى منه. وقد أضفنا إلى الجهة الأماميّة رواقاً يقوم على أربعة أعمدة؛ وناب الباطون المسلّح عن التراب في السطح. فأصبح الكوخ وكأنّه القصر المنيف بالنسبة لما كان عليه في ما مضى.

ثمّ بات في إمكاننا اقتناء سيارة. وكنّا قبل ذلك نعوّل في تنقلنا بين الضيعة والشخروب إمّا على أقدامنا، وامّا على حمارة أو كديشة. وإن تسألني أيّ المطايا هي الأحبّ إليّ: السيارة؟ أم الحمارة والكديشة؟ أم رجلاي؟ أُجبك بأنّني كنت أوثر رجليّ على السيارة، وحتى على الحمارة والكديشة، لو لم تجعل السيارة نبض الحياة سريعاً إلى حدّ تعجز الرجلان عن مجاراته. وقد جاءت الطيارة تفعل بالسيارة ما فعلته السيارة بالرّجل والكديشة والحمارة. وأرى النّاس كلّما ارتفع نبض حياتهم انخفض نبض السلام والطمأنينة في قلوبهم.

ومنذ عامين امتدّ بين بسكنتا ونبع صنّين خطّ تلفوني. والخط يقطع الشخروب غرباً بشرق من أوّله إلى آخره. ولكنّه ليس مجهزاً بعد لأن تمتدّ منه خطوط فرعيّة للذين يودّون الانتفاع به. ولكَم تمنّيت لو يقوم جدّي من قبره ليبصر التغيرات العجيبة

Twitter: @ketab_n

التي طرأت على شخروبه الحبيب من بعد أن ارتحل عنه. إنّه لن يصدّق عينيه.

هنالك حدثان وقعا لي في هذه الفترة ولا بدّ من ذكرهما. أوّلهما زيارتي للاتحاد السوفيتي في آب سنة ١٩٥٦ بدعوة من جامعة الكتّاب هناك. وقد جاءت بعد نصف قرن بالتمام من زيارتي الأولى لروسيا يوم قصدتها للدرس في سمنار بولتافا. وقد وضعت عنها كتاباً أسميته «أبعد من موسكو ومن واشنطن». والذي رميت إليه بكلمة «أبعد» هو أن المعسكرين - الرأسمالي والشيوعي - يتخبّطان ويتخبّط معهما العالم كلّه في مشكلات خطيرة جذورها أبعد بكثير من أن يبلغها أيٌّ منهما بنظره المحدود إلى الحياة الإنسانيّة على أنّها فرصة لكسب أوفر قسطٍ من خيرات الأرض وملذاتها.

فكلا المعسكرين يعتقد أن ما يعانيه عالم اليوم من قلق وذعر واضطراب إنّما يعود إلى فساد النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي يتمسّك به خصمه. وكلاهما لا يلقي أيّ بال إلى النظام الذي يهيمن على سائر الأكوان - وفي جملتها الأرض وسكانها - والذي من بعض مظاهره في الأرض أن يقضي على كلّ نظام بشري لا يجاريه ولا يجاري الهدف الذي وضعه للإنسان في حياته. لذلك كانت النظم البشريّة في صراع دائم

Twitter: @ketab_n

وتطوّر مستمر. فمثلما انبثقت النظم الدستوريّة من النظم الملكيّة المطلقة وقضت عليها؛ ثمّ انبثقت الرأسماليّة من الإقطاعيّة فقوّضت أركانها، هكذا انبثقت الاشتراكيّة - أو الشيوعيّة - من الرأسماليّة وستقضي عليها حتماً. ولكن سيأتي يوم ينبثق فيه من الشيوعيّة نظام جديد يقضي عليها. ما في ذلك عندي أيّ شكّ. ففيمّ الهستيريا؟ ولماذا هذا الركض وراء التسلّح؟ وأيّ خير للمعسكرين في حرب قد لا تبقي من البشريّة إلاّ على خسارتها؟ ومن الأكيد أنّها لن تكون الكلمة الفصل في أيّ النظامين أفضل: الرأسماليّة أم الشيوعيّة؟

لا نفع لي أو للقارئ من أن أعيد ههنا بعض ما قلته في ذلك الكتاب. وحسبي القول إنّني عدت من روسيا وكأنّني عائد من خليّة نحل هائلة. إنّ كلّ ما يجري في تلك البلاد يزخر بالزخم والحرارة والحركة والثقة بأن الهدف الذي وضعته نصب عينيها هو هدف حقيق بكلّ تضحية تتحمّلها في سبيله. وهي تؤمن أوثق الإيمان بأن في مستطاعها - وبالعلم وحده - أن تتحكّم في النهاية بالطبيعة، وتفضح كلّ أسرارها. وانّها، بتحكّمها في الطبيعة، ستعتق الإنسان من ربقة الخوف والحاجة والجهل، ومن ربقة أخيه الإنسان. وهكذا توفّر له حياة رغد وهناء. ولكنّها لا تقول كيف سيمكّنها علمها من التحكّم في

Twitter: @ketab_n

قلب الإنسان، فتنفي منه الحسد والطمع والنميمة والبغض والخوف من الموت، وغيرها من الآفات التي ما برحت تعذّب الإنسان وتفسد عليه حياته منذ أن كان الإنسان. وكلّ مذهبٍ يهتمّ بعقل الإنسان أكثر من اهتمامه بقلبه لا يمكن أن يجلب للإنسان الطمأنينة التي يصبو إليها بجميع جوارحه. فالقلب، في النهاية، هو الذي يترجم منجزات العقل إلى شقاء أو هناء، وإلى عبوديّة أو حريّة. وذلك على قدر ما يصفو أو لا يصفو من الأكدار. فإذا هو تطهّر من البغض والحقد والطمع وغيرها من الشهوات السود بات كلّ عالمه طاهراً. وإذا هو ظلّ تربة خصبة لتلك الشهوات ظلّ عالمه عالم كدر ونزاع وصراع. ولم يُجده أيّ نفع أن يفتح له العقل معاقل الأرض وأبواب أجرام السماء. وأيّ خير للإنسان في السيطرة على الفضاء وما فيه قبل أن يسيطر على ذلك العالم العجيب الذي هو قلبه؟

وممّا أعجبني وآلمني معاً في زيارتي تلك للاتّحاد السوفيتي أن أرى عندهم جامعة للأدباء منظمة غاية التنظيم. في حين أن أدباء لبنان كانوا قد أسّسوا لهم رابطة دعوها «أهل القلم» فلم تلبث أن مزّقتها المطامع والأحساد والحزبيّات شرّ ممزّق. وفي حين أن أدباء العرب كانوا قد درجوا على عقد مؤتمرات سنويّة لهم وإذا بالسياسات الرخيصة تعبث بمؤتمراتهم فتتركها أملاً جهيضاً.

Twitter: @ketab_n

أمّا الحدث الثاني الذي لا بدّ من كلمة عنه فقد وقع لي في الشخروب عند الساعة الواحدة من بعد ظهر الثامن والعشرين من آب سنة ١٩٥٨ - وهي السنة التي اجتاحت فيها لبنان موجة من الاضطرابات التي هزّت أركانه هزّاً عنيفاً.

في ذلك اليوم كنت في الشخروب. وقد ذهبت باكراً إلى الكهف لأكتب مقالاً لإحدى المجلات العربيّة. وكنت لا أزال في منتصف المقال عندما أقبلت امرأة أخي تدعوني إلى البيت لاستقبال أناس جاؤوا لزيارتي ولم يكن في الشخروب يومذاك غيري وغيرها. وعندما انصرف الزوّار بُعَيد الظهر، وكان وقت الغداء، وضعت زكيّة الطعام على المائدة وذهبتُ إلى العين القريبة لأغسل يديّ استعداداً للأكل. وقبل أن أبلغ المائدة اعترضت بعض دجاجاتنا طريقي. فضايقني منها وجودها قريباً من البيت. لذلك انتهرتها ورحتُ أعدو نزولاً وراءها لأبعدها قدر المستطاع عن البيت. وإذا بي ولا أدري كيف... وعلى بعد خطوات من البيت - أنزلق من خلال ثغرة في حافة متهدّمة تعلو عن الأرض فوق المتر، وقد نبتت في أسفلها الأشواك وتكدّست الحجارة. ويبدو أنّني انزلقت على جانبي الأيمن ورأسي إلى أسفل. ويبدو كذلك أنّه أُغمي عليّ.

أفقت من إغماءتي ورأسي بين الحجارة، وعيني اليمنى

Twitter: @ketab_n

مغمضة، وذراعي اليمنى كأنّها انفصلت عن الكتف. كلّ ذلك وزكيّة تنتظرني ولا تعرف شيئاً عمّا جرى. لأنّني لم أُحدث أيَّ صوت عندما هويت، ولا صدرت عني أنّه أو استغاثة. وإذ حاولت أن أنهض فلم تسعفني ذراعي ناديت زكيّة التي لم تعرف لأوّل وهلة من أين جاء الصوت. وعندما اهتدت إليّ كادت تفقد صوابها. لكنّني طمأنتها بقولي أن لا خوف على حياتي، وأن لا بدّ لها من الاستعانة برجل أو أكثر لحملي إلى البيت.

ووصل الخبر بسرعة إلى أخي نجيب وابن أخي يوسف اللذين كانا في الضيعة. فما عتّما أن أقبلا في السيارة ومعهما الطبيب. وضمّد الطبيب الجروح البالغة التي كانت في جبهتي وخدي ورأسي. والثلاثة نقلوني في الحال إلى مستشفى في بيروت حيث قُطّبت جروحي وأُجريت لي الإسعافات الضروريّة. وقد تبيّن أن الورم في عيني اليمنى لم يكن غير ورم سبّبته الجروح؛ وأنّ الجرح الكبير الذي في الجبهة لم يخرق العظم؛ وأن الترقوة اليمنى قد انكسرت في مكانين.

اتّفق في ذلك اليوم أن ذهبت ميّ مع أخيها نديم وأصحاب لهما إلى مصيف يبعد عن بسكنتا عشرين كيلومتراً لتمضية النهار هناك. واتفق عندما عادوا إلى بسكنتا في المساء، وقبل أن يدركوا البيت بخطوات، أن اعترضت سبيلهم إحدى الجارات وفاجأت

Twitter: @ketab_n

ميّ بالسؤال: «كيف الخبر عن عمّك يا بنتي؟ انشا اللّه حكايتو بسيطة؟» فكاد يغمى على الفتاة المسكينة. لأنّها لم تكن تدري ما حلّ بعمّها. ولولا أنّ قانون منع التجوّل بعد الساعة السادسة في بيروت كان يومئذٍ لا يزال سارياً لما أبطأت وأخاها لحظة في النزول إلى المستشفى. ولكنّها باتت ليلتها من غير أن يغمض لها جفن.

وقد أخبرتني ميّ في اليوم التالي كيف أنّها في الساعة التي وقع لي فيها ما وقع أخذت تحسّ غمّة على صدرها وانقباضاً في قلبها ولا تدري لذلك سبباً. وكانت ورفاقها جالسين في مطعم عندما أخذت تردّد بينها وبين نفسها: «بدّي عمّي. بدّي عمّي!» وظلّت تردّدها إلى أن طفر الدمع من عينيها. فحار في أمرها رفاقها. وكانت حيرتها أشدّ من حيرتهم.

لم أذق الأكل ولا النوم في المستشفى قرابة ٤٨ ساعة. ولم أخرج منه بعد أسبوع إلاّ وحول كتفيّ الاثنتين وبينهما من الخلف قالب من الجصّ لا يسمح لي بتحريك ذراعي إلاّ قليلاً جدّاً. ولا بالنوم إلاّ على ظهري. وهكذا بقيت أربعين يوماً لا أستطيع أن أنام أو أن أقوم، ولا أن آكل وأشرب، ولا أن أغسل وجهي وأخلع ثيابي وألبسها إلاّ بمعونة الغير. وبتّ أحسّ الجصّ على كتفيّ وظهري كما لو كان من الحديد. وعندما ضقت ذرعاً به جئت

Twitter: @ketab_n

بمن نزعه عني دون علم الطبيب. ونعمّا ما فعلت. فقد أخذت حتى ذراعي اليسرى تتيبس عضلاتها. ولكنّها ورفيقتها. بالدلك والتمرين والصبر، عادتا إلى حالتهما السويّة. وذلك لم يتمّ إلاّ في خلال عام من وقوع الحادث.

تحمّلت تلك التجربة بصبر. وبالكثير من الامتنان للقدرة التي أنزلتها بي. وما شككت ساعة في أنّها جاءتني نتيجة لأعمال عملتها، أو أفكار فكّرتها، أو شهوات أبحت لها قلبي، وإن كنت لا أعرف بالضبط ما هي. وحسبي محبّة ورأفة من جانب تلك القدرة التي أدعوها في قاموسي «الإرادة الكليّة» أنّها في خلال السنوات السبعين التي عشتها على الأرض حتى اليوم لم تبليني بأيّ مرض، أو وجع، أو عاهة. وإذ ذاك فكسر ترقوة يكاد يكون دغدغة وتربيتاً. ومن ثمّ، أفلا يحقّ لحجارة الشخروب أن تشرب ولو قطرات من دمي؟ تباركت الإرادة الكليّة، وتبارك عدلها!

هذا على النطاق الشخصي. أمّا على النطاق العالمي فأحداث الفترة التي أكتب عنها تكاد تخطف النفس بسرعة توالدها وتعاقبها، وبمدى تأثيرها في مجاري الحياة البشريّة.

ففي دنيا العرب كانت انتفاضات في سوريا دعوها «انقلابات». وكان اتجاه جارف نحو العروبة والوحدة العربيّة،

Twitter: @ketab_n

واعتراف صارخ بقوّة حيّة، خلاّقة هي «الشعب». وذلك فتح جديد في تاريخ العرب. ثمّ كانت ثورة مصر المظفَّرة التي قضت على فساد فاروق وعهد فاروق وبطانته النخرة. وكان جلاء المستعمرين عن وادي النيل، وإقصاء المستثمرين عن قناة السويس، والاتحاد بين مصر وسوريا على أن يكون حجر الأساس في الوحدة العربيّة الشاملة. وكانت شعارات جديدة لم يألفها من قبل حكّام العرب: ديموقراطيّة. اشتراكيّة. تعاونيّة.

وجاءت ثورة العراق بعد ثورة مصر بستّ سنوات. فكانت فصلاً جديداً في كتاب جديد. وكان السودان والدول العربيّة في شمال إفريقيا – ما خلا الجزائر – قد خلعت جميعها نير الاستعمار عن أعناقها. فبات الحلم بتوحيد العرب من المحيط إلى الخليج يدغدغ نفوس الكثيرين منهم، ويبدو كما لو كان تحقيقه قضيّة سنة أو سنوات، لا قضيّة جيل أو أجيال. ولكن المخاض يمتدّ ويشتدّ، وليس مَن يدري عماذا سيسفر، ومتى. والعجيب في الأمر أن الجزيرة التي هي منبت الأرومة العربيّة تبدو وكأنّ المخاض لم يدركها بعد.

وأمّا على الصعيد العالمي الأوسع فلعلّ بروز الصين على المسرح الدولي، وفي جبّة أرجوانيّة، كان أخطر الأحداث في السنوات الأخيرة. فهذه البلاد الشاسعة، بملايينها الستمئة وما

Twitter: @ketab_n

فوق، ظلّت على مدى قرون مفكّكة الأوصال، ينهبها الطامعون من الخارج، وتنهبها المجاعات، والتقاليد البالية، وفساد الحكم في الداخل. فإذا بها، من بعد أن تلقّحت بلقاح ماركس ولينين، تغدو دولة يُحسب لها ألف حساب في المحافل الدوليّة. وإذا بالرقعة الشيوعيّة تتسع حتى تكاد تشغل ربع الكرة الأرضيّة، وتضمّ ثلث سكانها أو أكثر.

لقد استفاقت آسيا بعد سُبات عميق، وأخذت شعوبها، الواحد تلو الآخر، تنفض غبار الخمول عن أجفانها، وتحطّم الأصفاد التي كبّلتها بها مطامع المستعمرين الأوروبيّين. وما لبثت إفريقيا أن حذت حذو آسيا فأصبحت وكأنّها المرجل يغلي ويفور. والذي يبدو لي هو أن الغليان والفوران باتا من أبرز سمات العصر الذي نعيش فيه. حتى ليحسب المرء أنّ بلاداً لا تغلي ولا تفور هي من مخلّفات العصور الخوالي. فحيثما انطلقتَ في هذه الأرض وجدت النّاس وكأنّهم في سباق مع القدَر. وإذا سألتهم عن الهدف الذي إليه يتسابقون أوقعتهم في حيرة. فقد يجيبك الواحد أنّه التسلّح ضدّ عدوّ مكّار، غدّار. وقد يجيبك الآخر أن الهدف هو التصنيع لرفع مستوى المعيشة. ويجيبك الثالث أن هدفه غزو الفضاء.

وتمضي تسأل نفسك: إذا كان جميع النّاس يتسلّحون ضدّ

Twitter: @ketab_n

أعداء مكّارين، غدّارين، فجميع النّاس إذاً أعداء لجميع النّاس؛ وجميع الناس مكّارون، غدّارون. وإذ ذاك فهم بالفناء أحقّ منهم بالبقاء. وأي خير لهم في التصنيع لرفع مستوى معيشتهم؟ أو في غزو الفضاء ما داموا لن يحملوا إليه من الأرض غير مكرهم وغدرهم، وغير الأسلحة التي يتوهّمون أنّها تقيهم المكر والغدر؟

لقد كان على النّاس، عندما أدركهم نبأ إطلاق الـ «سبوتنك» الأوّل في الرابع من تشرين الأوّل سنة ١٩٥٧، أن يخرّوا على وجوههم خُشّعاً، شاكرين. ثمّ أن يعتزّوا بقدرة الإنسان غير المحدودة لا على ارتياد الفضاء فقط، بل على ارتياد كلّ مجهول في الأرض وفوق الأرض، وعلى هتك أسرار ذلك المجهول وتجنيدها لخدمة الإنسان الصاعد من الحيوان في أعماقه إلى الإله في أعاليه. ولا همّ أكان الذي أطلق «السبوتنك» روسيّاً أم أميركيّاً أم من أيّ شعب آخر. إنّه إنسان وكفى. ولولا تضافر جهود الإنسانيّة بأسرها منذ أقدم العصور لما استطاع أن يفعل ما فعل. فهو مدين لي ولك ولكلّ إنسان من آدم حتى اليوم. والفخر ليس فخره وحده. بل فخري وفخرك وفخر النّاس أجمعين. وهو الشهادة لي ولك بأن الإنسان ما تخيّل شيئاً. أو تشوّق إلى شيء وصرف له همّه وذكاءه وعبقريته إلاّ أدركه.

ومَنذا غير البليد والخامل يستطيع أن يضع حدّاً لما يمكن

Twitter: @ketab_n

الإنسان أن يحقّقه من أشواقه إذا هو تعاون مع أخيه الإنسان لذلك الغرض؟ ولكن... ألا قل معي: قبحًا وخزياً للذين لا يبصرون من الإنسان غير بطنه وظهره، والذين يرهقونه بالأسلحة، ويبذرون الخوف والذلّ والحقد والبغض في قلبه، والشكّ والحذر في فكره. ثمّ يُمنّونه بالسلم والخير والسعادة! إنّهم لقوم كفرة. وإنّهم لمجرمون. ولو أنّهم تعاونوا على زرع بذور الألفة والثقة والمحبّة في قلوب النّاس لكان النّاس غير النّاس، وكانت الأرض غير الأرض. وذلك ميسور لهم لو هم شاؤوا أن يبدّلوا ما بنفوسهم، إلاّ أنّهم لا يشاؤون.

Twitter: @ketab_n

وبعد...

وبعد، يا قارئي، فها أنا قد فتحت لك في هذا الكتاب نوافذ كثيرة تطلّ منها على الحياة التي كانت حياتي خلال السنوات السبعين الأخيرة من تقويم الزمان كما رتّبه النّاس. ولا نفع لك من هذه النوافذ، مهما تعدّدت واتّسعت، إلاّ إذا أنت لمحت منها ولو بعض المشاهد من حياتك كذلك.

ثمّ لا يخطرنّ لك في بال أنّ ما انكشف لك من حياتي كان كلّ ما في حياتي. فلا ذاكرتي الفانوس السحري. ولا قلمي خاتم لبّيك. ومن أين لي أن أحصي كلّ ما التهمه جسدي من لحم الأرض وشحمها ودمها؟ وكلّ ما نهبته عيناي وأذناي من مناظرها وأصواتها؟ وكلّ ما طرق باب قلبي وفكري من رغائب ونزوات، ومن رؤى وخيالات؟ ومن أين لي أن أُحصي كلّ نفَس دخل صدري وخرج منه، وكلّ كلمة انزلقت عن لساني وعن قلمي؟ ذلك فوق طاقتي.

والذي انكشف لك من حياتي فيه الرغوة، وفيه الصريح. ولعلّ رغوته أكثر من صريحه. وأيّ حياة لا رغوة فيها؟ حتى الرغوة قد يكون فيها خير كبير للذين يفتّشون عمّا تحتها،

Twitter: @ketab_n

ويعرفون كيف يفتّشون. ولكنّ عمرها إلى حين. أمّا الصريح فينا فعمره عمر الأزل والأبد.

والصريح في حياتك وحياتي، يا قارئي، هو ما تدعوه وأدعوه «أنا». أمّا ما تبقّى فرغوة فوق رغوة، فوق رغوة. و «أنا» هي النافذة التي تطلّ منها على ذاتك وعلى الكون الذي لا وجود له إلاّ في ذاتك. فعلى قدر ما تتسع نافذتك أو تضيق يتسع الكون الذي تعيش فيه أو يضيق. وعلى قدر ما توفّق في كشح الرغوة من أمام بصيرتك تصفو بصيرتك، وتصفو ذاتك، ويصفو كونك.

وإذا أنت أحسنت التطلّع إلى حياتي من خلال النوافذ التي فتحتها لك أدركت، ولا شكّ، أنّها في جوهرها كانت نضالاً ضدّ الرغوة وتفتيشاً عن الصريح. فأنا، منذ أن اكتشفت لذّة التفكير، وعرفت أي قوّة جبّارة هي قوّة الفكر، هالني، أوّل ما هالني، أمر الموت. وبدا لي أنّ عالماً كلّ ما فيه يموت لعالم كلّه رغوة، ولا معنى لوجوده. فأيّ خير لي في حبّ أُلْفّه بشغاف قلبي، وأصونه بضلوعي، ما دام الذي أحبّه، وما دمت وقلبي وضلوعي إلى الفناء؟ وما نفعي من شذا زهرة، وأغرودة عصفور، وكركرة جدول، وغمزة نجمة، والتماع برق، وألف مشهد وصوت وعبير تُسرّ بها عيسى وأذني وأنفي ما زلت وزالت إلى زوال؟ والجهود التي أبذلها في الدرس وفي تحسين أوضاعي الماديّة

Twitter: @ketab_n

والاجتماعيّة، والمحافظة على سمعة طيّبة بين النّاس - إنّها لجهود مهدورة في سبيل لا شيء - في سبيل الموت.

وإذن فسليمان بن داود كان على حقّ عندما قال: «باطل الأباطيل. كلّ شيء باطل وفيض الريح». إلاّ إذا كان للموت معنى يجهله سليمان وأجهله، واستطاع فكري أن يهديني إليه. على أن يكون غير الجنّة وجهنّم في «الآخرة». فآخرة كلّها غبطة، وإلى الأبد؛ أو كلّها عذاب، وفي نار لا تنطفئ، كان أشقّ على فكري أن يتقبّلها من أن يتقبّل الموت.

إلاّ أن فكري، على قصر باعه وقتئذٍ، لم يكن سلّم بأنّ هذا الكون بأبعاده التي لا تُدرَك، وبهندسته التي تخلب الألباب، وبالنظام الرائع الذي يهيمن عليه، يمكن أن يكون بغير معنى. ولأن الموت بعض من ذلك النظام فقد بات لزاماً عليّ أن أفتش عن معنى الموت قبل أن أطمع في فهم شيء من معاني النظام، وأين أفتَش؟

ولماذا التطواف بعيداً؟ لأبدأ بنفسي. ففي هذا الجهاز العجيب الذي هو جسدي يتمثّل العالم الأكبر كلّه، ولكن في صورة مصغّرة. إنّه لَعالَم مدهش، هذا الجسد، بوفرة أجزائه، ودقّة صنعها، وإحكام ربطها بعضها ببعض، وبالسهولة الخارقة التي يقوم بها كلّ جزء بوظيفته من غير أن يُعيق جاره أو أيّ جزء آخر

Twitter: @ketab_n

عن القيام بوظيفته، بل هو يساعده في ذلك. فالتعاون بين الأجزاء كلّها - من الظفر على خنصر الرجل وحتى الدماغ - تعاون يفوق حدّ التصوّر، ويبلغ حدّ التفاني دونما فتور ومنّ، ودونما تهرّب من المسؤوليّة مهما تكن جسيمة. وهذه الأجزاء العجيبة التركيب والهندسة تحييها قطرات من الدم الذي يجري في أوعية هي الغاية في الروعة. وهذا الدم المتحرّك تحييه أنفاس لا تنفكّ تدخل الجسم وتخرج منه فتدفع كلّ ما فيه على الحركة بطريقة عفويّة. فإذا توقّفت الأنفاس توقّف الدم عن الحركة - وكان الموت.

ومن أدهى خصائص هذا الجسد العجيب خاصة النموّ، وخاصّة تجديد الجنس، وخاصة الانحلال. فهو ينمو بأشياء يتناولها من الخارج. ولو لم تكن هذه الأشياء موفورة له. ولو لم تكن فيه مهاميز تدفعه على التفتيش عن هذه الأشياء لما كان نموّه. والنموّ سرّ ليس يدركه عقلك وعقلي. ولكن في نفسك ونفسي ما يبتهج ويعتزّ به. فلولاه لكانت حياتك وحياتي في الأرض لا رونق ولات بهجة. ولولاه لما كان تعلّقنا بالحياة. وإذ ذاك فالذي جاءك بسرّ النموّ - ولا همّ لي ما تسمّيه - جاءك بأكبر بهجة في حياتك. فكان كريماً معك منتهى الكرَم. أوَليس حريّاً بك أن تحبّه، وأن تعتبره صديقاً لا عدوّاً؟

Twitter: @ketab_n

والذي جاءك بسرّ النموّ جاءك كذلك بسرّ تجديد الجنس، ووضع في جسدك مهاميز تدفعك الى ذلك التجديد، وهيأ لك من يساعدك عليه. وأنت لا تريد لجنسك أن ينقرض من الأرض. وأنت تحبّ أطفالك حتى التفاني وتحبّ صغار الكائنات من كلّ نوع. وإذن فالذي حباك القدرة على تجديد جنسك حباك من المسرّة ما ليس يُقَدَّر بأثمان. فهو كريم. وهو صديق.

ولكن الذي جاءك بسرّ النموّ، وسرّ تجديد الجنس، هو ذاته الذي جاءك بسرّ الانحلال. والأسرار الثلاثة متواصلة، متلازمة، متساندة، ومتمّمة واحدها للآخر. والانحلال يعني إضراب الجسد عن العمل لأسباب كثيرة. منها الإرهاق الطويل، ومنها المرض، ومنها الأحداث الطارئة. فهل أن الذي كان صديقك في نموّك وفي تجديد جنسك بات عدوّك في انحلالك؟ ذلك هو منتهى العقوق ونكران الجميل. وإنّي لأعيذك منه يا قارئي.

إن يكن النموّ سرّاً عجيباً، ومثله تجديد الجنس، فالانحلال سرّ أعجب وأعجب. وأنت لن تدرك منه شيئاً إلاّ إذا فكّرت في الذي لا ينحلّ منك بانحلال جسدك. فجسدك، على روعته، هو الرغوة التي تغمر منك ما هو أدهى من جسدك بكثير. وذلك هو الذات التي تدعوها «أنا» والتي تنمو لا بأشياء من خارجها، بل بغذاء منها وفيها. أمّا غذاؤها فهو غير الخبز والماء. وأمّا المهاميز

Twitter: @ketab_n

التي تدفعها على التفتيش عنه فهي غير الجوع والعطش. إنّها الشوق إلى المعرفة - معرفة ما أنت، ومَن أنت، ومن أين، وإلى أين، ولماذا؟ وهذه المعرفة هي وحدها الكفيلة بأن تعتقك من ربقة كلّ مجهول، وأن تمكنك من الغلبة على الموت.

إنّك، عندما يأتيك الموت، تنطفئ فيك كلّ شهوات الجسد. فلا جوع، ولا عطش، ولا نهم جنسيّ. ولكنّك لا تستسلم إلى الموت إلاّ وفي نفسك أشواق كثيرة لم تتحقّق. فشوق إلى العدل، وشوق إلى الرحمة، وشوق إلى المغفرة، وشوق إلى السلام، وشوق إلى المحبّة، وأشواق كثيرة قد تنطوي كلّها في الشوق إلى الحياة التي لا يكدّرها الحزن والوجع ولا يغتالها الموت. والشوق إلى الشيء يفرض وجود ذلك الشيء. مثلما يفرض الجوع إلى الخبز، والعطش إلى الماء وجود الخبز والماء. وأنت لم تحقّق أشواقك في العمر القصير الذي عشته على الأرض. فأين تحقّقها؟ ومن أين لك، أو لأيّ إنسان، أن تجزم ويجزم بأن الأرض هي وحدها المكان الذي تتحقّق فيه أشواقك، وأن ما عشته على الأرض هو وحده نصيبك من الزمان الذي ليس العمر بالنسبة إليه غير طرفة جفن؟!

لا، يا قارئي. لست أودّ لك أن تحصر «أنا» - ك في الأرض. ولا في الفترة من الزمان التي تعيشها على الأرض. إنّها

Twitter: @ketab_n

لأوسع من جميع الأفلاك - منظورها وغير منظورها. وإنّها لأبقى من الزمان - ما كرّ منه وما سوف يكرّ.

وذلك لا يعني أنّي أريدك أن تزدري الأرض وما فيها ومَن فيها. فوجودك عليها في هذه الفترة من حياتك يعني أن بك حاجة إليها وإلى كلّ ما فيها ومَن فيها، وأنّ بها وبهم حاجة إليك. وأنت لن تقضي حاجتك من الأرض إلاّ إذا أحببتها وكلّ ما فيها ومَن فيها. فبالمحبّة وحدها تستطيع أن تفهم ما تقوله الطير والأشجار والأنهار والبحار والصخر والتراب والهوام والأنسام. وبغير المحبّة لن تفهم حرفاً واحداً من لغة الأرض وأبنائها، ولن تكون فيها غير لاجئ وغريب.

وأنت إذا ولجت بالمحبّة قلب الأرض خرجت منه بكنوز أين منها كلّ ما في الأرض من معادن ثمينة وجواهر كريمة. من هذه الكنوز الحسّ بالجمال، والحسّ بالنظام، والحسّ بديمومة الحياة الخلاّقة، والحسّ بأنّك من تلك الحياة في الصميم. ذلك الحسّ هو الزبدة من حياتك على الأرض. وما تبقّى فزَبَد. وأنت، إذا كان لك ذلك الحسّ، وأدركتك ساعة الموت، أغمضت أجفانك عن كلّ مباهج الأرض من غير أن تشعر بأقلّ حسرة عليها.

وها أنا، وقد أخذت من الأرض ما أخذت وأعطيتها ما أعطيت، أتطلّع بغير وجل إلى الساعة التي فيها سأنزح عنها،

Twitter: @ketab_n

فأقول ما قلته قبل أربعة عقود من السنين في قصيدة عنوانها «يا رفيقي»:

«قُلْ أطعنا في كلّ ما قد فعلنا
صوتَ داعٍ إلى الوجود دعانا
فجنينا من الحياة، ولكن
قد أعدنا إلى الحياة جنانا
وأكلنا منها، ولكن أكلنا
وشربنا لحومنا ودمانا
ومضينا ولا ندامة فينا
وتركنا كؤوسنا لسوانا»(١)

إلاّ أنّني ما فكّرت يوماً، ولن أفكّر ساعة يأتيني الموت، في ما أخذته وأعطيته وحدي. بل في ما يأخذه ويعطيه إخواني النّاس كذلك. ولكَم تمنيت لو أن أبناء اليوم والساعة يتركون للآتين بعدهم كؤوساً أجمل وأطهر وأشرف من التي تركها لهم أسلافهم - كؤوساً ليس في أعماقها ثمالات كثيفة من الحقد والبغض والشك والحذر والنفاق؛ وليس على وجهها حبب من الطمع والجشع والتهتك والتهالك على الملذات الحبلى بالأوجاع.

---

(١) همس الجفون.

Twitter: @ketab_n

ولكن هيهات! فأبناء هذا اليوم وهذه الساعة قد تمادوا بعيداً - وبعيداً جدّاً - لا في التفتيش عن الصريح تحت الرغوة. بل في التفتيش عن الرغوة في الرغوة. إنّهم يفتّشون عن رغوة السياسة في رغوة المكر والنفاق والدهاء؛ وعن رغوة القوّة في رغوة الأسلحة النوويّة والهيدروجينيّة؛ وعن رغوة الكرامة القوميّة في رغوة الثورات والدعايات؛ وعن رغوة المعرفة في رغوة المناهج المدرسيّة؛ وعن رغوة الدين في رغوة الشعائر الدينيّة؛ وعن رغوة السعادة في رغوة المال والمشاريع الاقتصاديّة.

وكأن الأرض قد ضاقت برغوتهم. فراحوا يعملون على نقلها إلى القمر، والمريخ وغيرهما من السفن التي تمخر عباب الفضاء. ناسين أن الإنسان الذي أثار تلك الرغوة على الأرض سيثيرها أينما حلّ في الفضاء - إلاّ إذا هو بدّدها على الأرض أوّلاً. ولن تبدّدها قنابله وصواريخه؛ ولا سياساته الماكرة ودعاياته المنافقة؛ ولا قومياته واقتصادياته ودياناته؛ ولا فنونه وعلومه. وسيبدّدها صوتٌ يوقظ الضمير الإنساني ويبعث فيه الوعي على حقيقة كيانه، وعلى الهدف من وجوده. ولكن من بعد أن يَغرق الكثير من النّاس في لجج من الدمع والدم، ويترمّد الكثير من معالم مدينتهم في أتاتين من النّار.

وذلك الصوت سينطلق من الشرق!

Twitter: @ketab_n

الكلمة الوليمة

أيّتها الكلمة!

علّمتِني النطق فنطقت.

وعلّمتِني الكتابة فكتبت.

وكان ما نطقت به عوالم من السحر والسرّ.

وكان ما كتبته دنيوات من الرموز والألغاز.

ولو لم تكن لي قابليّة النطق والكتابة لما نطقت وكتبت.

ولو لم تكن لي القابليّة لفهم ما أنطق به وأكتبه لما خُيّل إليّ أنّني أفهمه.

ولكنّني، في الواقع، لا أفهم حقّ الفهم ما أقول وما أكتب.

فها أنا ألفظ وأرسم كلمات من نوع: اللّه - الحياة - الحقّ - العدل - الجمال - الحرّيّة - الخلود. وبمثل السهولة ألفظ وأرسم كلمات من نوع: الشيطان - الموت - الباطل - الظلم - البشاعة - العبوديّة - الفناء. وأحسب أنّني أفهم ما ألفظ وأرسم. أمّا، في الواقع، فلا أفهم.

فمتى أفهم؟

وإذا أنا قلت وكتبت كلمات من نوع: إنسان - حيوان - بحر - جبل - زنبقة - أمس - غداً - ماء - تراب الخ. حسبتني

Twitter: @ketab_n

كذلك أفهم ما أقول وأكتب. في حين أنّني لا أفهم. فهذه جميعها صناديق مقفلة. وهي بعضٌ من كلّ. فكيف لي أن أفتحها، وأن أفهم البعض ما لم أفهم الكلّ؟ حتى «أنا» - وهي أكثر الكلمات شيوعاً على قلمي ولساني - لا أفهمها.

فمتى أفهم؟

متى أفهمك أيّتها الكلمة التي تعني كلّ ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وبيني وبينك من وشائج القربَى ما ليس مثله بين أمّ وطفلها، أو بين عابد ومعبوده؟

متى يعود إليّ لُبّي الشارد في متاهات رموزك وألغازك، والمأخوذ بسحرك وأسرارك، - متى يعود حاملاً لي نعمة الفهم المقدّس؟..

وكأنّني سمعت الكلمة تجيب فتقول:

«ليس المهمّ يا ولدي أن تعرف متى تأتيك نعمة الفهم المقدّس. بل المهمّ أن تميّز معالم الطريق المؤدّي إليها، وأن تسير فيه بقدم ثابتة. ومعالم الطريق لن تخفى عليك ما دام توقك إلى فهم «الكلمة» يفوق توقك إلى التلهّي بحروفها لا أكثر.

«في الكلمة يا ابني سرّ عظمتك وحقارتك. وسرّ هنائك وشقائك. إذا أنت امتهنتها امتهنتك. وإذا أنت قدّستها قدّستك. وأنت تمتهنها كلّما قلت أو كتبت غير ما تضمر، أو عكس ما

Twitter: @ketab_n

تضمر؛ وكلّما اتّخذتها وسيلة لنيل مآرب لا تشرّف ناسوتك.

«في قواميس النّاس آلاف الكلمات. منها الزّبد. ومنها الزبدة. منها ما يضلّلك عن طريق الفهم. ومنها ما يدلّك عليه.

«هناك الكلمة الجيفة. وهذه أحبّ الولائم إلى الذئاب والديدان وبنات آوى في الإنسان. وهناك الكلمة القرح. وهذه يتهافت عليها الذباب. وهناك الكلمة الخنجر، والسمّ، والعلقم؛ والكلمة البغيّ، والجرباء، والبخراء، والعوراء، والكلمة التي تتبرّج، وتتبخّتر، وتتكبّر، وتتجبّر؛ والتي تقول: أنا - وكفى! وهذه جميعها، وما كان من نبعتها، كلمات أعيذك منها يا ولدي إذا كنت ممّن لا يكتفون من الحياة برغوتها.

«هناك الكلمة الشهد؛ والكلمة البلسم، والشذا، والجناح، والواحة، والوحي؛ والكلمة التي هي الدرع، والإيمان، والمصباح، والباب، والمفتاح، وغيرها ممّا هو من مقلعها. وهذه أوصيك بها يا ولدي إذا كنت من التوّاقين إلى نعمة الفهم المقدّس. فهي المعالم التي تدلّك على الطريق. على أن تنبجس هذه الكلمات من وجدانك انبجاس النبع من قلب الجبل. فلا حذلقة، ولا تصنّع، ولا تبرّج. وهل يتحذلق ويتصنّع ويتبرّج إلاّ الكذب؟ أمّا الصدق فبسيط أبداً. ولأنّه أبداً بسيط فهو أبداً جميل. لذلك أوصيك بالكلمة الصادقة. والكلمة الصادقة باتت اليوم أعزّ ما في الأرض

Twitter: @ketab_n

فلا عجب أن ترى أبناء الأرض يتخبّطون في الرغوة حتى ليكادون يختنقون.

«أنا الكلمة. مَن جمّلني جمّلته. ومن قبّحني قبّحته. ومن امتهني امتهنته. ومن قدّسني قدّسته.

«وأنا الوليمة التي لت مثلها، ولا قبلها وبعدها وليمة. فلا حصر لأصنافها، ولا عدّ للمدعوّين إليها. والذي أُولمه آلهة وسماوات، وشموس ومجرّات، وآزال وآباد، وحيوات تنسلّ من حيوات.

«وأنت لن تشبع من وليمتي ولن ترتوي إلاّ يوم تعرف أنّ ما تأكله هو أنت. وأنّ ما تشربه هو أنت. فاحذر كيف تأكل وكيف تشرب إن أنت شئتَ أن تعرف مَن أنت فتشبع بعد جوع، وترتوي بعد عطش. ودع المعربدين يعربدون، والعابثين يعبثون، والذين يتلهّون بالقشور دعهم يتلهّون. فنور الكلمة لم يُشرق في قلوبهم بعد. وروح الفهم لم يطهّر أيديهم وأفواههم».

ذلك ما خُيّل إليّ أن الكلمة ألقته في أذني وخَلَدي. وذلك ما أودّ يا قارئي أن ألقيه عند الوداع في أذنك وفي خَلَدك. لعلّني وإيّاك نتعلّم كيف نجمّل الكلمة ونقدّسها لنتجمّل بها ونتقدّس. وكيف نتناول من وليمتها السخيّة ما يمهّد لنا طريق الفهم المقدّس.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سبعون – المرحلة الثالثة

فهرس

صفحة

في رفقة البحر	٥
فجر جديد وصدمة عنيفة	٢٢
لقاء	٣٠
عهود تتجدّد	٤١
ولادة جديدة	٤٩
ناسك الشخروب	٦٠
القرش والقلم	٦٨
بذور	٧٦
على قمة الدنيا	٩٤
امتحان	١٠٧
الفُلك	١٢٣
«جبران خليل جبران»	١٣٧
مهنة جديدة	١٧٥
بو ديب يودّع الشخروب	١٨٢

Twitter: @ketab_n

مع الطبيعة ١٩٠
بيت جديد ٢٠٩
مصائب قوم ٢٢٧
ماتت التي ولدتني ٢٣٧
أجيال تزحم أجيالاً ٢٤٥
خوارق؟.. .... ٢٥٩
استقلال... .... ٢٧٩
بيتي ٢٨٦
ولادة كتاب ٣٠٤
١٩٤٩ - ١٩٥٩ ٣١٧
وبعد... .... ٣٣٣
الكلمة الوليمة ٣٤٢

Twitter: @ketab_n

فهرس الرسوم

صفحة

مي وعمها ١١١

المؤلف مع نهرو وكريمته آنديرا ١١٣

نديم ١١٥

جرير ١١٥

المؤلف مع جوليان هكسلي ١٩٤٩ ١١٧

المؤلف وتوفيق عواد ١٩٣٢ ١٦٥

المؤلف وغزالة كانت عنده في الشخروب ١٦٥

البيت الجديد في الضيعة ١٦٧

صخرة الكهف والبقعة المحيطة بها ١٦٩

منظر خارجي لصخرة الكهف ١٦٩

الكوخ في الشخروب بعد التجديد ١٧١

المؤلف على قمة صنين ١٩٣٢ ٢١٧

شمادم المتحجر ٢١٩

مدخل الكهف مع صخرة شمادم ٢١٩

الكوخ القديم في الشخروب تحت الثلج ٢٢١

المؤلف على رأس صخرة شاهقة ٢٢٣

Twitter: @ketab_n

الزهر والثلج على الشخروب ٢٢٣
المؤلف مع أنطوان صادر وإيليا أبو ماضي١٩٤٨ ٢٧١
مي وأمها ٢٧٣
يوسف مع كلب الصيد «دك» ٢٧٣
المؤلف في مكتبه ٢٧٥
المؤلف مع أخيه نجيب ٢٧٧

Twitter: @ketab_n

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
كرم على درب
الأوثان
لقاء
أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون (٣ أجزاء)
اليوم الأخير
هوامش
أيوب

يا ابن آدم
في الغربال الجديد
أحاديث مع الصحافة
نجوى الغروب
صوت العالم
النور والديجور
مذكرات الأرقش
من وحي المسيح
ومضات (شذور وأمثال)
كتاب مرداد
النبي (ترجمة)
في مهب الريح
دروب

The Book of Mirdad
Kahlil Gibran
Memoirs of a Vagrant Soul
Till We Meet and Twelve Other Stories

Twitter: @ketab_n

سبعون...

المرحلة الثالثة

ليس أحب إلى قلوب القراء عامةً من مسيرة الأدباء والعظماء. وليس أحبّ إلى قلب القارىء العربي، خصوصاً من سيرة كتّابه المشهورين، وأدبائه النابهين، وأعلام تاريخه البارزين.

وأكثر ما تكون السيرة جذّابة خالدة، حين تروي حياة عظيمٍ من العظماء، وحينَ يسجّلها صاحبها نفسه بقلمه، وحين يكون هذا القلمُ قلمَ كاتبٍ فنّان، ومفكّرٍ فلسفيّ رائد، يختصر في تجاربه تاريخ عصرٍ، ومعاناة أمّةٍ، واتجاه حضارةٍ، ويختصر في أسلوبه أروع أشكال البثّ ومناهج التعبير. و**سبعون** ميخائيل نعيمه، في أجزائها الثلاثة، هي ما يطمح إلى مطالعته كل قارىء، فهي سجلّ حافل لحياة صاحبها المديدة، وتجاربه الإنسانية والكونية، فضلاً عن أنها بريشته ذات البهاء، والابداع، والإقتدار الفني المتميّز.

إنّه كتابُ كتبِ نعيمه، وكتابٌ من كتب السيرة الرائعة في الخزانة العربية.

ISBN 9953-26-036-2

9 789953 260365